متاعب الزواج

د. عادل صادق
أستاذ الطب النفسى

دار الشروق

متاعب الزواج

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص ب ٣٣ البانوراما - تليفون ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)



د. عادل صادق

أستاذ الطبّ النفسى

دار الشروق

متاعب الزواج

الزواج . . ما أروعه من نظام رباني للجمع بين الرجل والمرأة؛ ليكونا معا في بيت واحد وعلى سرير واحد ليتشاركا، وليتحابا، وليتناسلا، ويمضيا معا في رحلة الحياة، كل منهما يعاون الآخر ويعينه ويرعاه ويحافظ عليه، ويحنو إليه . .

هي فطرة الله التي فطر الناس عليها . لا نستطيع أن نستغني عنه أو نستبدله بنظام آخر . . بل هو النظام الأمثل الذي يحقق للإنسان الأمن والاستقرار والسلامة وكل مقومات السعادة . . فيه الخير كل الخير . . ليس للإنسان الفرد وحده؛ ولكن لكل البشرية .

إن الزواج بناء محكم متكامل بديع يحتوي أحلام البشر وآمالهم ورغباتهم . . ولذا؛ فإن عملية خلق الإنسان ارتبطت بالزواج . . أي تقرر الزواج للإنسان قبل خلقه أو مع خلقه أو بعد خلقه حين تقرر نزوله إلى الأرض . . فالإنسان لم ينزل إلى الأرض وهو فرد . . ولكن نزل وهو زوجان . . رجل وامرأة معا يربطهما زواج . . أي علاقة أبدية . . أي كُتب على كل منهما أن يعيش مع الآخر، وأن تنشأ بينهما علاقة عاطفية جنسية، وأن ينجبا أطفالا . . خليفة الله في الأرض ومعمرين لها .

والأصل واحد ، وخلق من هذا الأصل زوجة . . أى أن عملية الخلق بدأت من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها . . ليتزاوجا . . وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . أى أن الزواج هو إعادة التوحد . . ولذلك؛ فإن أقوى صلة هى صلة الإنسان بزوجه . . أقوى من صلة الأبوة والأمومة والأخوة . . لأنها صلة تتعدد وشائجها ووظائفها . . وهى صلة تلبى احتياجات الإنسان فى الحياة المادية والروحية، وهى صلة تحقق للإنسان معنى وجوده فى هذه الحياة . . وبذلك نخلص إلى أن الزواج هو معنى الوجود الإنسانى . . هو الأصل والحقيقة والجوهر والهدف . . قال الخالق عز وجل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الروم: آية ٢١].

الآية الأولى وحدة الأصل . . أى أن الزوج والزوجة منشؤهما واحد . . هى منه . . وهو منها . . نسيج واحد . . والزواج هو إعادة توحد . . وهذه هى الآية الثانية . . السكن . . أى يرتد الإنسان إلى قاعدته ومنشئه وأصله وهذه هى غاية مشاعر الأمان . . ثم تأتى الآية الثالثة لتحديد أسس هذا التوحد الذى قام عليه وهو المودة والرحمة . . وهى أسس موصولة بصفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى الودود الرحيم . .

ولذلك؛ فإن التوثيق الحقيقى للزواج لا يتم إلا أمام الله وبشروط الله وعلى بركة الله وبرعايته وهداه وتوفيقه . . ولهذا، فخلاص

النيات من أهم الشروط . وأن يكون زواجا خالصا لله وفق أوامره وللأغراض النبيلة التى نص الله عليها . . إنها الأمانة التى رضى الإنسان بحملها، وأبت السماء والأرض والجبال أن يحملنها . . مسئولية الخلافة وعمارة الأرض . . هذه هى مسئولية العبد المخلص المتفانى فى عبادته حين يسجد وحين يعمل وحين يتزوج .

تلك كلها معان يجب أن ينظر فيها الإنسان ويتأملها ويتدبرها ويفكر فيها . . ويفهم الحكمة من ورائها . . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . .

والزواج صلة دائمة . . وهكذا يجب أن تكون نية الرجل والمرأة عند الزواج . . أى يظلا معا مدى حياتهما . . وألا يفترقا إلا بالشروط التى وضعها الله للطلاق . . وأن يكون افتراقهما بالمعروف وهذا أبغض الحلال . . فلا يوجد ما يسمى بالزواج المؤقت . . هذا ليس زواجا . . ولكنه زنى، حتى وإن كان من خلال عقد زواج موثق ومشهر ومعلن . . الزواج الحقيقى يجب أن تتوافر فيه نية الأبدية . . الخلود . . الاستمرار . . وأن يقوم على المودة والرحمة لا على شهوة عارضة أو مصلحة مادية أو منفعة شخصية . . كما لا يوجد ما يسمى بالزواج السرى . . ولا منطق فى أن يخفى الإنسان ما أحله الله إذا كان هناك نية سيئة أو قصد غير طيب أو أمر يتنافى مع الحق والأمانة يبطن هذا الزواج؛ وبالتالى يوجب عدم إشهاره . . ما كان حق وصدق وما كان متفقا مع شرع الله يجب أن يعلن .

والإنسان يفخر ويسعد بإعلان زواجه إذا كان مبنيا على الأسس

التى وردت فى كتاب الله عز وجل وسنة رسوله سيدنا محمد ﷺ يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [سورة البقرة: آية ٢٢١].

وقال الرسول ﷺ: «تُنكحُ المرأةُ لأربعٍ: لدينهَا، ولمالِهَا، ولحَسَبِهَا، ولجمَالِهَا. فَاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»..

كما قال رسول الله ﷺ: «إِذَا جاءكُمْ مَنْ تَرضَونَ دِينهُ وَخلقهُ فأنكحُوهُ».

والمرأة حين تترك بيت أهلها لتعيش مع زوجها فهى تشعر بأقصى درجات الأمان، مدفوعة بفطرتها وغريزتها ورغبتها فى أن تتحمل مسئولياتها فى الحياة كزوجة وكأم ولتكون محورا من محاور الحياة فى تكوين أسرة وتحقيق السكن والاستقرار لهذه الأسرة.. ولتهب الرجل - أى زوجها - الحب والحنان ومتعة الروح والجسد ولتشاركه الأعباء والتبعات.. وهى من خلال الزواج تتعرف على ذاتها الأنثوية:

﴿يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣].

أى أنها تنتمى إلى جنس معين يختلف عن جنس الذكور؛ ولكنها تكتمل به ومعه وتكمله من خلال علاقة الزواج.. فالاكتمال، أى

الإدراك الكامل للذات لا يتحقق إلا من خلال الزواج . . وبفطرتها تسلك وتتحرك ناحية الرجل ومعه .

وكذلك الرجل حين يترك بيت أهله ليسكن مع امرأته ؛ فإنه يشعر بالأمان والاكتمال . . ويستشعر مسئولياته ناحية زوجته وأسرته فيعمل لإسعاد هذه الأسرة بشتى الوسائل المادية والروحية .

إذن الزواج مسئولية . . رحلة عمل ومشاركة . . واجبات وحقوق . . كلٌ له دور .

والمؤمنون بالله ورسوله وكتبه يعملون بما أمر الله ويتبعون سنن رسله ويلتزمون بما جاء فى كتبه لأن فى ذلك مصلحتهم وسعادتهم . .

وهناك آيات كريمة وردت فى القرآن الحكيم تحدد طبيعة الأدوار داخل علاقة الزواج ؛ فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ .

ويقول جل وعلا : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة ﴾ [سورة البقرة : آية ٢٢٨] .

كما يقول الحق : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [سورة النساء : آية ٣٤] .

ولكن كيف يمكن الجمع بين المساواة والقوامة؟

المساواة تكون فى الحقوق الإنسانية من حرية الفكر والتعبير والحوار والمشاركة فى الرأى والمشاركة فى صنع القرار . . الاحترام

المتبادل الكامل للذات الإنسانية . . ولكن الحياة كالبحر . . قد تشتد الرياح وتعلو الأمواج وتحدق مخاطر حقيقية ، تلك إمكانيات معينة منحها الله سبحانه وتعالى للرجل . . إنها القوامة فى الأزمات وفى الخلاف ؛ خاصة فى أمور تتعلق بأمن الأسرة واستقرارها وصميم حياتها . . إنها مسئولية حياة . . مسئولية رعاية . . مسئولية احتواء . . وهذا هو القانون الذى يحكم الأرض والسماء . . لابد من وجود الراعى والوالى والمسئول الأول الذى يوفر الحماية والأمان ويتصدى للصعاب حتى وإن ضحى بحياته .

إن علاقة الزوج بالزوجة هى علاقة ذات طبيعة خاصة . . ليس كمثلها علاقة . . إنها تحتوى على شىء من كل علاقة . فى مضمون علاقة الزوج والزوجة شىء من رعاية الأب لأبنائه ، وحنان الأم على أطفالها ، ومساندة الأخ لأخيه . . زد على ذلك الترابط الأبدى والإحساس بالمسئولية المشتركة ومجىء أطفال يحملون شيئا من كل منهما . . زد على ذلك تلك العاطفة التى تسكن القلب وتحرك الجسد . . ثم تلك العشرة الطويلة التى تخلق الألفة وتذهب عن الإنسان أحاسيس الوحشة والاغتراب .

ولأن كل طرف - أى الزوج والزوجة - يحمل جينات وراثية مختلفة ، وكل منهما جاء من بيئة اجتماعية مختلفة ، فإن ثمة مشكلات تنشأ خلال التعامل اليومى . . وهذا يؤدى إلى القلق . . والقلق يحمل قدراً من التوقعات غير المريحة . . أو أن هذه التوقعات تكون منذ البداية فيعلو القلق ؛ والقلق يؤدى إلى مزيد من التوقعات والتوجس ثم التحفز . . هذا طبيعى . . وطبيعى جداً . . بل الأصل فى الحياة هو

الاختلاف. . ولولا الاختلاف لما حدث التلاقي. . فالمختلفان ينجذبان ويتلاقيان ويلتصقان. وفي الالتصاق اصطدام، ولكنه اصطدام ترعاه المودة والرحمة. إذن الإنسان يدخل الحياة الزوجية وعقله قلق وقلبه محب. وقلق البداية هو قلق التعارف. . وهو أيضا قلق موروث، وهو أيضا قلق مدعوم بأفكار ومفاهيم سائدة تختلف من مجتمع لمجتمع، وإذا زاد القلق أدى إلى الخوف. . ومن ثم العدوان أو التحرش لمغالبة الخوف وتأكيد الشجاعة. . ولكن ليست حربا لأن الأصل في العلاقة هو الحب والرغبة في السكن والاستقرار والاستمرار. .

فالإنسان لا يتزوج بعقد مؤقت، ولكنه عقد دائم، خالد، مدى الحياة. إذن لابد من التعايش وتقليل كل المشاعر السلبية إلى الحد الأدنى. . وهي ليست سلبية لأنها طبيعية، بل ضرورية. إنه الاستكشاف من أجل مزيد من الفهم والاقتراب حتى الالتحام. . واحتواء مشكلات الأيام الأولى والسنة الأولى يكون بالنضج. والنضج هو العلم والثقافة والتجربة الحياتية بشكل عام. والنضج مطلوب للرجل والمرأة وليس مقصورا على الرجل. ويبدأ الرجل وتستجيب المرأة. وتبدأ المرأة ويستجيب الرجل. كل منهما يحتوى الآخر بعقله وقلبه. والعقل هو الأفكار والقلب هو المشاعر. . عقل وحده لا يكفي. وقلب وحده لا يكفي.

وتمضى الأيام. ويختفي قلق الاكتشاف والتوقع. . وتحل مشكلات أخرى. . مشكلات الاصطدام بالحياة نفسها. . وهو كبد مفروض على الإنسان لأنه إنسان قبل أن يحمل الأمانة. . والأمانة مسئولية. . والمشكلات إما صغيرة أو كبيرة. . ولكن لا توجد مشكلة

مهما كان حجمها إلا ويمكن احتواؤها فى الزواج . . فالأيام تكسبهما خبرة وتزيدهما اقترابا وتفاهما . وهذا الاقتراب والتفاهم لا يكون سطحيًّا فقط ولكنه يمتد إلى الأعماق . وهذا معناه الانكشاف الكامل على الجوهر . جوهر الإنسان الذى يشاركك طعامك وشرابك وفراشك وأنفاسك وأحزانك وأفراحك وتطلعاتك نحو المستقبل . ذلك الإنسان الذى يدخل فى نسيج ماضيك وحاضرك ومستقبلك . ولهذا ؛ فأنت حين تختلف مع شريك حياتك بعد خمس سنوات من الزواج أو بعد عشر سنوات أو بعد عشرين سنة أو بعد ثلاثين سنة فإنما أنت تختلف مع نفسك ، لأن شريك حياتك هو بعض نفسك أو هو كل نفسك . وهذا هو أعظم ما فى الزواج ؛ الثبات والاستقرار والرسوخ . ولهذا فمهما كانت الرياح عاتية وعاصمة فإن الشجرة راسخة ، إنها شجرة الحياة . . إنها الشحرة التى تمد الحياة بالحياة .

وهذا الكتاب يحاول أن يقول شيئًا واحدا وهو أن المشاكل التى تنشأ بين الأزواج والزوجات لا تؤثر على جوهر العلاقة . . وقد نشعر أحيانا بالملل والضيق والرغبة فى الفرار إلا أن الحقيقة أننا لا نستطيع أن نضحى بحياتنا مع شريك حياتنا بسهولة . . وأن الملل لا ينال إلا من السطح ، وأن الضيق لا يمس إلا القشرة ، وأن ما نظنه نفورا إنما يعبر عن شدة تلاصق وتلاقى الجوهر الداخلى وأن كل المتاعر يمكن التغلب عليها إلا مشكلة واحدة ؛ هى اختفاء الرحمة من القلب .

ومن الطريف أن أشير إلى أن الزوج بعد عدة سنوات من الزواج قد يظن أنه لم يعد يحب زوجته . وقد تعتقد الزوجة كذلك ، إلا أن الحب

فى الزواج له طعم مختلف، له شكل مختلف، له جوهر مختلف. إنه ذلك الحب الذى تداخل مع كل أنسجة الجسد والروح والنفس واستقر فى كل خلية وأصبح يجرى مع الدم ومن شدة أنه داخلى ومنتشر مع الخلايا وفى أعمق الأعماق؛ فالإنسان لا يراه رؤى العين ولا يحسه على الجلد ولا يشمه بأنفه. . ولكننا نراه بالقلب وندركه بالعقل فى الأزمات، وحين تتهدد حياتنا، وحين يلوح ما ينذر بانفصالنا، هنا يفيض الحب من الداخل إلى الخارج فيملأ العيون وتنطقه الألسنة وتسمعه الآذان نشيدا سماويا خالداً يعبر عن حكمة الله فى الزواج. وإنه ليس مثل أى علاقة. . بل هو توحد. . هو ضرورة حياة. . وهو التعبير عن أسمى درجات الحب وأعمق درجات الارتباط الإنسانى.

الحب بين الزوج والزوجة غير الحب بين الرجل والمرأة قبل الزواج. . الحب بعد الزواج مرحلة أعمق وأعقد؛ يعبر عن الأبدية والخلود والشكل النهائى للحياة والصورة التى يرى الإنسان نفسه عليها وماهيته وذاته حين يصير جزءا من إنسان آخر ومن خلال إنسان آخر وليس مجرد صورته مع إنسان آخر. إذن الإحسان مختلف والرؤية مختلفة. ولذا تنكسر على صخرة الزواج الصلبة جدّاً كل المشاكل.

ولكن لا بد أن نبذل جهدا إيجابيا للحفاظ على حياتنا الزوجية. لابد أن نتحمل مسئولية رعايتها وتوفير كل الظروف الصحية لانتعاشها؛ لتصبح مصدرا دائما لسعادتنا واستقرارنا ولتمنحنا المتعة واللذة. . إحدى المشاكل الإهمال. وهو إهمال عن حسن نية. . بل هو إهمال يعبر عن شدة الحب. لأن الإهمال تراخ وعدم بذل

مجهود؛ اعتماداً على أحاسيس حقيقية بأن العلاقة قوية وأبدية ولا يمكن أن تتأثر سلبيا ولا يمكن أن تموت . . قد تكون هذه هى أكبر مشكلة فى الزواج . . إهمال أشياء بسيطة . . وبسيطة جداً . . وقد يتزايد الإهمال إلى حد التجاهل غير المتعمد لحساسية الطرف الآخر واحتياجاته التى فى الغالب تكون بسيطة جداً . ويحدث تراكم مع الأيام . . والمشكلة الأساسية هى التراكم . . ونتحمل فى البداية حين نكون صغارا . . ونكبر . . ومع ازدياد التراكم يزداد الإحساس بالألم . . ونصل إلى مرحلة لا نستطيع أن نتحمل معها . . وهنا يحدث الانفجار .

على الرغم من أن العلاقة الزوجية قوية وعميقة وحميمة إلا أنها أيضا تتمتع بدرجة عالية من الحساسية . . ولذا؛ فهى تتطلب المودة والرحمة من اليدين والعينين واللسان . من القلب ومن العقل .

وهذا الكتاب يأخذ بيدك إلى طريق المودة والرحمة برفق لتنعم بأعظم سكن، وهو قلب وعقل شريك حياتك . أعظم نعمة منحها الله للإنسان .

د . عادل صادق

أستاذ الطب النفسى

أنا أحب زوجي

أنا أدمن عشق هذا الرجل. إنه زوجي وأراه أعظم رجل في الوجود بالرغم من أنه إنسان بسيط ومتواضع في وسامته ومظهره وعمله وماله ومركزه الاجتماعي. ولكنني معجبة؛ مفتونة به. إنه زوجي وهذا أمر في حد ذاته يجعلني أحبه وأعجب به وأعتبر نفسي محظوظة. إنني أعيش معه أيام عمري ولا أتصور اختفاءه بعيداً عن حياتي. إنه إنسان طيب وكريم وبسيط ومتواضع ومتسامح. ثم إنه يحبني وهذا يجعلني امرأة سعيدة وموفقة. فالحب الحقيقي النابع من قلب الزوج هو أعظم نعمة تحظى بها امرأة. وهو أبو أولادي الذين هم من صلبه وصلبي. وبالتالي فنحن نكون أسرة. وأن تعيش امرأة في ظل أسرة فهي امرأة موفقة وسعيدة.

والحقيقة أنني أيضًا امرأة بسيطة نشأت في بيت يقدس الرجل ويعتبر وجوده في حياة المرأة نعمة. نشأت على حب الزوج واحترامه والتفاني في راحته. وأنا أعيش مع زوجي بإخلاص شديد؛ ولذا فهو يحبني ويحترمني ويقدرني ويحسن معاملتي ويقبل عليّ بشغف.

ولا يضيرني أن أجعله المحور الأول والسيد والرئيس، ولا

يضيرنى أن أطيعه وأنفذ أوامره وإن كان فى الحقيقة لا يصدر أى أوامر ولكننى أعتبر رغباته وأمنياته أوامر واجبه التنفيذ .

ولاشك أن طباعه الطيبة جعلتنى مهووسة بحبه وفى الوقت نفسه لا أنكر أن هناك صعوبات فى حياتنا ، وتمر بنا مشاكل، ونختلف ونتشاجر ونتصالح ، ولكننى أحبه . والمرأة المحظوظة هى من يكون زوجها هو حبيبها ، وحبيبها هو زوجها .

إن أنفاسه تعطر البيت وتدفئ جدرانه ، ووجوده يبعث على البهجة السرور ويعطينى الأمان والحماية ويحفظ توازنا واتزانا . إنه باختصار يجعل للحياة معنىً . ويمنح الأسرة كيانها . كما يمنحها مركزاً وثقلاً ومحورا وهيبة للبيت .

وبدونه تنهار الجدران ويهوى السقف ـ أى يتصدع داخلى ـ وتتعرى الأسرة .

إنه الرجل، إنه حبيبى ، إنه زوجى ، اكتمال الحياة .

أنا أحب بيتى

أنا أحب بيتى رغم أنه بسيط ومتواضع ولكن تدخله شمس الحب فتنيره وتدفئه. ويطل عليه القمر فيكسب ضوءه محملا بجمال خلاب وفى الليل تهب عليه نسائم رقيقة عذبة؛ فتشجى النفس برومانسية تجعل القلب فى حالة عشق دائم للمكان.

ولقد وصفنى الله عز وجل بالسكن، فالزوجة يسكن إليها زوجها والسكن هو البيت الآمن المريح الحانى الدافئ المظل الممتع المبهج المضيء ولا يتسرب داخله إلا هواء مشبع بالحب والمودة والرحمة.

هذا حقيقة هو بيتى وسكنى. ولذا فأنا أتوحد معه؛ مع كل أرجائه. هو منى وأنا منه؛ أعشق جدرانه وسقوفه وأرضه وأثاثه وأركانه. أشعر بحيوية وتدفق وأنا أرتبه وأنظفه ولا تنتابنى أى مشاعر ضالة مضللة بالخيلاء والتعالى والغرور والانتفاخ الكاذب بأننى فوق مستوى هذه الأعمال. بل على العكس أشعر بالرضا والفخر بأننى المسئولة الأولى والأخيرة عن ترتيب بيتى وتنظيفه وإدارة مطبخه وإطعام زوجى وأولادى وإعداد ملابسهم وتوفير كل سبل الراحة المكانية والمعيشية لهم. هذا هو محور فخرى وزهوى ورضائى

وسروري. وهذا هو أحب أدواري وواجباتي في الحياة التي أعتز وأتشرف بها. ولا أهتز لكلمات جوفاء صماء حاسدة حاقدة جاهلة بأن إمكانياتي وقدراتي وذكائي وعلمي وثقافتي فوق مستوى الأعمال المنزلية. وذلك لأن البيت عندي ليس مجرد حجرات وأثاث ومطبخ. البيت معنى؛ قيمة؛ أسرة حب؛ زوج؛ أبناء. البيت حياة. البيت هو أساس الوجود، أساس المجتمع. البيت مدرسة ومعهد وثقافة وعلم وسياسة وفن ومتعة. البيت مستقبل. البيت احتياج نفسي للأمان والسلام والحماية والرعاية. البيت غطاء واحتواء لأقدس علاقة بين الرجل والمرأة وهي الزواج.

حين أجيء من الشارع وأدخل بيتي أشعر وكأنني دخلت الجنة.

حين يجيء زوجي من الشارع ويدخل بيتنا أرى على وجهه كل علامات التلهف.

حين أرقد على سريري ليلا لأنام بعد عناء يوم طويل أتطلع إلى وجه زوجي الذي سبقني إلى النوم تعبًا وأقول. الحمد لله.

أنــا أنثــى حقيقيــة

كثيرون من النساء والرجال يغيب عنهم المعنى الحقيقى للأنوثة، وهذا إنكار مرضى لا شعورى. ويغيب المعنى الحقيقى للأنوثة عن بعض الرجال لأنه يغيب عنهم أساسًا المعنى الحقيقى للرجولة. فالأنوثة لا يمكن أن نذكرها بمعزل عن الرجولة، أى لا يمكن أن تكون قيمة مجردة. بل لا أنوثة بدون رجولة. ولا رجولة بدون أنوثة.

وأنا أنثى حقيقية لأنى أفهم معنى الأنوثة ولأنى سعيدة بدورى الأنثوى فى الحياة ولأنى أدرك حكمة الله القدير فى خلقه لجنسين مختلفين لكى يلتقيا وينجذبا ويتكاملا ويحققا دورا ومعنى، لا أن يتشابها ويتساويا ويتوحدا. لا أن يتحاسدا ويتنافسا، ويتنازعا الأدوار.

شعرت بأنوثتى الحقيقية وأنا أنجذب نحو الرجل الذى أحببته وتزوجته.

شعرت بأنوثتى الحقيقية وأنا أشعر بأهمية الرجل فى حياتى؛ وأننى لا أستطيع الاستغناء عنه. وأن الحياة لا يمكن أن تقوم على امرأة مستقلة تعيش وحدها أو تعيش مع الرجال بدون زواج.

شعرت بأنوثتى الحقيقية وأنا أدرك مسئولياتى تجاه البيت كل المسئولية ابتداء من أبسط الأعمال؛ وهى تنظيف البيت، وانتهاءً

بأعظم الأعمال؛ وهى تربية الأبناء وتعليمهم وتثقيفهم وتنشئتهم على المبادئ الأخلاقية السامية.

شعرت بأنوثتى الحقيقية وأنا أرقد مع زوجى وأشعر بأنفاسه الدافئة الحانية المتلهفة.

شعرت بأنوثتى الحقيقية وأنا أؤدى مسئولياتى كأم.

شعرت بأنوثتى الحقيقية وأنا أغير على زوجى وأبذل كل جهدى لأحتفظ به، وشعرت بأنوثتى الحقيقية وأنا أصم أذنى عن تلك الدعوات الحمقاء التافهة بالاستقلالية والزعامة والمساواة والقيادة للمرأة وإشعال الصراع بينها وبين الرجل وهدم الأسرة، وأدركت أن هناك أسبابًا مرضية تتعلق بنقص أنوثة صاحبات هذه الدعوات.

شعرت بأنوثتى الحقيقية حين حمدت الله أنه خلقنى أنثى لكى أستطيع أن أشعر بالرجل.

أنـــا أم

أنا أم وهـذا هو مـوضع فـخـرى. حـمـلت ووضـعـت وأرضـعت وربيت وتحملت آلاما ومشاق ولاقيت جحوداً ،ولكننى راضية ومسرورة. فلقد كرمنى الله ورفع مكانتى، ووضع الجنة تحت أقدامى وأمـر أبنائى بطاعـتى وإرضـائى، وطلب من زوجى أن يتـرفق بى ويمنحنى حبه ومودته ورحمته وأن يرعانى وأن يتحمل مسئولياتى وهكذا ضمتنى أسرة يتحقق لى من خلالها معنى لوجودى وحياتى ومبرر لاستمرارى.

أنا أم تحقق من خلالى وبداخل أحشائى السر العبقرى للخلق. وأنا حاملة هذا السر. ومن أجل هذا يهون أى تعب؛ بل هو التعب اللذيذ السار؛ التعب البليغ. إنه تعب يصاحبه زهو وفرح.

وبدون أن أدرى؛ بدون تعليم أو توجيه أو ثقافة، وبحب غريزى بحت تفانيت من أجل خدمة أولادى وراحتهم. وأحببتهم حبًا عميقًا. ولا يمكن أن يقال إن حب الأم هو حب غير مشروط وبدون أن يقـابله حب أو نفس القـدر من الحب من جـانب الأبناء. بل أنا أخذت منهم الكثير؛ أخذت منهم المعنى الحقيقى لحياتى؛ أنا أعيش بهم ومن أجلهم وهذا شيء كثير وعظيم؛ أحمد الله عليه.

ومن خلالهم تعمقت وتغذت صلة أخرى بزوجى. رباط جديد فوق أربطة جديدة تربطنى به. حقيقة إن ارتباطى العميق الوثيق بزوجى تحقق قبل مجىء أولادى ولكن للحقيقة أيضًا فإن مجيئهم قد أضاف مشاعر من نوع خاص؛ عمق أحاسيس لها طعم خاص ونكهة خاصة؛ أشرق أبنائى فى جنبات العلاقة بينى وبين زوجى بنور خاص. وأعترف بالبعد الجديد الذى أضيف للعلاقة مع زوجى؛ إنه بعد الدم. أصبحت أشعر أن زوجى هو دمى هو لحمى وأننى أنا وزوجى وأولادى نسيج واحد تسبح فيه دماء واحدة وتمنحه الحياة روح واحدة. وهذا هو المعنى البليغ العميق العظيم للأسرة. الأسرة ليست مجموعة من الأفراد يحتويهم بيت ولكنهم كيان واحد. روح واحدة وإحساس وعاطفة وفكر واحد. وأنا أدركت كل هذا حين صرت أما. وهكذا شعرت بأبدية وخلود العلاقة بينى وبين زوجى ويرقص قلبى حين أرى الحنان الطاغى النابع من قلب زوجى تجاه أبنائى. وأشعر أنه حنان خالص لى أنا. فأنا الأم؛ أنا الأحشاء التى احتوت هؤلاء الأبناء وأنا الطعام والدماء التى سرت فى عروق هؤلاء الأبناء؛ أنا التى حملت السر الأعظم والتى عانت وتألمت.

علمنى أبنائى روعة الحب رغم الألم.

علمنى أبنائى روعة الصبر والتحمل.

عرفت من خلال أبنائى سر الخلق ومعنى الوجود، وأصبحت أهتف من أعماقى بفهم وحب وحرارة بالغة؛ سبحان الله.

أنـــا أتحمـــل

أشعر فى أحيان غير قليلة أننى لم أعد قادرة على التحمل، لم أعد قادرة على الاستمرار. لم أعد قادرة على العطاء. أشعر فى داخلى بثورة وغليان وتمرد ورفض وغضب وحنق؛ أشعر أننى مرهقة ومتعبة، وأشعر بفتور وملل وضجر وسأم؛ وأشعر أننى أريد أن أهرب بعيدًا؛ ولا أريد الزوج ولا الأولاد ولا البيت كما أشعر أننى أستطيع أن أستغنى عنهم جميعًا وأنهم لم يعودوا يمثلون الشىء الكثير فى حياتى.

تنتابنى هذه الحالات؛ والتى قد تستمر أيامًا وتعاودنى مرة كل شهر أو شهرين بالرغم من أننى متوازنة نفسيًا وأتمتع بالاستقرار المزاجى. إذن هى حالات تنتابنى لأسباب مباشرة فى حياتى. فالمسئوليات كثيرة والحمل ثقيل.

زوجى عصبى، متقلب المزاج، مشغول دائمًا.

الأبناء كلما كبروا ازدادت صعوبة توجيههم. فلقد أصبحوا أكثر عنادًا وأكثر تحديًا؛ بالإضافة إلى مشاكلهم الدراسية وما ينتابنى من وساوس تتعلق بمستقبلهم، وكذلك مخاوفى المرعبة فيما يتعلق بسلوكهم.

لدينا صعوبات مادية كثيرة ولا أستطيع أن أحصل على كل ما أحتاجه حتى الضرورى منها.

الفتور الذى انتاب العلاقة بينى وبين زوجى وذلك التباعد النسبى بيننا يجعلنى أشعر بالغضب والسخط والخوف.

إشاعات تتناثر من هنا وهناك تشير إلى عدم إخلاص زوجى الكامل لى.

الإرهاق الذى ينتابنى بسبب مسئوليتى الكاملة عن كل صغيرة وكبيرة فى البيت بينما زوجى يتعامل مع البيت كأنه «لوكاندة».

أثور وأعلن رأيى، وأخرج من البيت وأصفع الباب خلفى بعنف. وما إن أمضى بضع خطوات خارج البيت حتى أشعر بحنين طاغ للعودة. ينقلب السخط إلى رضا، والخوف يتحول إلى طمأنينة، والضيق يتحول إلى بهجة؛ والتمرد يتحول إلى قبول. خارج البيت أشعر بالضياع؛ بالإنهاك؛ بأننى قد تعريت تمامًا. بأننى وحيدة وضالة.

ما إن أمضى بضع خطوات خارج بيتى حتى أشعر بالاشتياق لزوجى. وأتذكر كم هو يتحمل من أجلنا. أتذكر حبه وحنانه وكرمه ودفئه؛ وأرى أن أبنائى مثاليون بالنسبة لغيرهم من الأبناء فى هذا الجيل وهذا العصر.

وفى ظل الضياع الذى أشعر به وأنا خارج بيتى أدرك أن بيتى هو الجنة التى يجب أن أرعاها وأن ما أبذله من جهد للعناية به هو قليل بالنسبة للسعادة التى أشعر بها وأنا بداخله؛ يستظلنى ويحمينى ويدفئنى، وهو المكان الذى يتيح لى أن أنعم بنعم الأسرة.

ولذا يجب أن أتحمل . . أن أتحمل أى مشاق ، إنه تعب بسيط ومشاق هينة ، ولعل هذا التعب هو الذى يجعل للحياة مذاقًا . وهذا بعض دورى فى الحياة ، وهذا بعض قدرى ، وهذا معنى أن أكون امرأة أنثى ؛ زوجه ؛ أمًّا . وقَدَرُ المرأة الأنثى ، وقَدَرُ الزوجة الأم أن تتحمل . .

أنا أتمسك ببيتى

تضافرت قوى كثيرة لتبعدنى عن بيتى. اتحدت قوى الشر لتهدم البيت.

ولكنى أتمسك ببيتى وأدفع حياتى ثمنا للدفاع عنه كيلا يسقط. إنه الوطن، وهو الأم، وهو المستقبل، وهو الكيان. لقد رفعته من على الأرض حجرًا حجرًا. وتماسكت الأحجار مع بعضها البعض بفعل الحب وبفعل الرغبة الحقيقية فى الاستقرار وبفعل الإحساس الغريزى بالحياة داخل نطاق أسرة وبفعل أسرة وبفعل تكوينى الأنثوى السوى. ولذا لن أسمح لأحد أن يقترب من بيتى. ولدى أسلحة كثيرة للدفاع عن بيتى. ولدى أرصدة. ولدى ينابيع ثرية. إننى ثرية بأشياء كثيرة. إيمانى بالله؛ إيمانى بأنه لا يصح إلا الصحيح ولا ينتصر إلا الحق والخير. لدى ثقتى بنفسى وحب زوجى، لدى السنون والذكريات؛ ذكريات التعب والعرق والكفاح والألم والسرور والفرح واللذة والأمل والطموح، لدى الأبناء، لدى أنوثتى الصحيحة الحقيقية التى أعتز بها.

لدى رصيد من خبرتى فى الحياة وفى نفوس البشر، لدى علمى وثقافتى، لدى عقلى الذى أحكمه فى كل الأمور، لدى عواطفى الصادقة التى ربما تفوت عقلى فى التقدير والحكم.

ولهذا فأنا قوية شرسة وعنيدة وعنيفة فى الدفاع عن بيتى. ولذا تسقط السهام السامة منكسرة محطمة من قبل أن تقترب من جدران البيت العتيد، ويصاب أصحاب السهام بالحسرة والخيبة؛ يسيطر عليهم الإحساس بالفشل فتزداد شرورهم ولكن لن يفلح كيد المفسدين.

أنا أدافع بصمت؛ وببسالة؛ وجسارة.

أنا أتحمل؛ أنا صامدة؛ ولن أستسلم.

لن أعطى الفرصة للشر كى ينتصر. فهذا ضد قانون الحياة.

والفضل لله، ثم لإحساسى الحقيقى بأنوثتى التى هى مصدر كل ثرائى.

أنا لا أريد الطلاق

انعقدت سحابات سوداء فوق بيتى فحجبت الشمس ومنعت الدفء وأوقفت النسائم وأخرجت الطيور التى كانت تعلو الأشجار المحيطة .

لقد تجمعت كل الأسباب التى تؤدى أو توجب الطلاق وليس مهما الآن أن نبحث عن الأسباب والدوافع وتحديد المسئوليات ، ليس مهما أن نعرف ، وما أود أن أعلنه من داخلى أننى لا أريد الطلاق .

ولكن المهم وما أود أن أعلنه من داخلى أننى لا أريد الطلاق .

أنا أكره أن أحمل لقب مطلقة .

أنا أكره أن أواجه الحياة بدون رجل معى .

أنا أكره أن أكون وحيدة .

أنا أكره نظرات الرجال الجائعة للمطلقة .

أنا أكره نظرات النساء الشامتة للمطلقة .

أنا أكره نظرات الاعتذار عن عدم استقبالى من النساء المتزوجات حتى يحمين أزواجهن منى .

إن بيتا بلا رجل هو بيت بلا معنى؛ مجرد ملجأ للنوم. إن جدرانًا لا تدفئها أنفاس رجل هي جدران ميتة.

أنا لا أتصور أن يلمسنى رجل آخر بعد زوجى.

أنا لا أتصور أن أبدأ من جديد مع رجل آخر.

لا أدرى ماذا أفعل برصيد ذكرياتى مع زوجى.

أنا لا أتصور أن تنتهى الحياة بين اثنين عاشا مع بعضهما البعض أيامًا وسنوات.

أى جراح عميقة مؤلمة ستصيب أبنائى لوجود رجل آخر فى حياتى غير أبيهم.

أى جراح عميقة ستصيب أبنائى لوجود امرأة أخرى فى حياة أبيهم غير أمهم.

إذن الطلاق خراب ودمار وتحطيم وانهيار وفوضى وألم.

ولكن قد تكون هناك مبررات قوية للطلاق لا يمكن تجاوزها.

ولكن فى تقديرى أنا الشخصى لا أعترف بمعظم هذه المبررات القوية وأرى أنه يمكن تجاوز الكثير منها.

فأنا إنسانة بسيطة، وأنا أنثى حقيقية؛ طموحاتى فى الحياة مرتبطة بأسرتى. والحياة فى مجملها ليست سهلة وتحتاج إلى مكابدة وتحمل وصبر. ولا يوجد إنسان كامل. فالكمال لله وحده. وأنا أحاول أن أتخلص من بعض عيوبى لأكون أكثر إيجابية فى نجاح حياتى

الزوجية، وأن أكون أكثر صبراً وأكثر تحملاً لعيوب زوجى لتستمر حياتى الزوجية. قد يبدو هذا الكلام سطحيًا ولا يعالج المشاكل معالجة موضوعية حقيقية ولكننى أؤكد رغم بساطتى الظاهرة ورغم تواضع لكثير من إمكانياتى أننى أقول كلاما حكيما بليغا عميقا يمس قلب الحقيقة والواقع، ويكشف عن جوهر الحياة، ويوضح أن الأصل فى الزواج هو الاستمرار والاستقرار والخلود، وأن الطبيعة السوية للإنسان ألا يعيش وحيدا وأن يحافظ على زوجته وأن يتحمل وأن يصبر وأن يكابد، وأن المشاكل تتضاءل بمرور الوقت، وأن الإساءات تنسى، وأن العمر قصير نسبيا.

أنا أغفر لزوجي

ذات صباح يوم جمعة وأنا مكتئبة ، ولكن يراودني أمل في انفراج . كنت أقرأ أصداء السيرة الذاتية فطالعت أقصر قصة قصيرة في بضع كلمات تقول : «إذا استطعت أن تتسامح فأنت أقوى الأقوياء» وفجأة نبع من قلبي خاطر يشبه قصة قصيرة أو أردت به أن أكمل قصة نجيب محفوظ . يقول الخاطر أو تقول قصتي : «وإذا استطعت أن تتسامح فأنت أنبل النبلاء» . وانقشع اكتئابي ولكن ظلت همومي .

لقد داهمتني الظنون وأحاطت بي من كل جانب . إن زوجي يخونني ؛ أو هكذا قالوا لي . والأمر قد يكون هينًا عند بعض الزوجات ولكنه عندي عظيم .

والأمر قد تنزعج له بعض النساء من زوايا معينة ولكنني أنظر إليه نظرة مختلفة .

إن الأمر مس عندي صميم المعنى ؛ الجوهر ؛ الأصل ؛ الحقيقة . إن الأمر عندي مس صميم العفاف . والعفاف عندي يرتبط بالكرامة والكيان والصدق والقوة ثم الخير والجمال والسمو ، ثم يجيء عندي بعد ذلك الحب ، ثم تجيء العشرة .

ولذلك حدث اهتزازا كبير فى حياتى؛ انهيار. وأصبح الأمر لا يتعلق بشخص زوجى أو بعلاقتى به أو بمصير زواجى بقدر ما يتعلق بكل المعانى والمفاهيم التى نشأت عليها واعتززت بها وأعززت زوجى من خلالها لأنه كان يجسدها واتفقنا عليها واجتمعنا حولها وصارت محور حياتنا.

ولقد مررت بعدة مراحل. فى البداية كان الرفض وعدم التصديق والإنكار. لم أحاول أن أثبت أو أنفى لأن الأمر كان مرفوضًا كليًّا.

وإذا بأهل الإفك لا يهدءون ولا يهجعون؛ ويواصلون الإلحاح من أجل تدمير المعانى الجميلة بداخلى والتى تربطنى بزوجى.

وإزاء الإلحاح أعطيت أذنى؛ غير رافضة أن أسمع ولكن رافضة أن أصدق.

ومازلت صامتة، لم أفاتحه، لأن الأمر عندى ليس شجارا وعتابًا وعقابًا ولكنه أكبر من ذلك وأعمق وأخطر.

وفاض الحزن وجاء الاكتئاب. ومع الاكتئاب تَسْوَدُّ الحياة وتهون. وإذا هان وهانت معه بقية القيم التى ترتبط به فلا معنى للاستمرار.

ولكم كان الأمر صعبًا جدًّا.

ولكن لا مفر ولا حيلة ولا استطاعة.

ثم قرأت أصداء السيرة الذاتية. وتبدأ القصة بشرط مسبق؛ وهو إذا استطعت أن تتسامح. إذن لا بد من الاستطاعة. إذن هناك من يستطيعون وهناك من لا يستطيعون. هناك ما يسمى باستطاعة التسامح

وهذه الاستطاعة لابد أن تستند إلى مقومات فى شخصية من يتسامح . وأيضًا مقومات مرتبطة بظروف الحدث أو الواقع .

إن أهل الشر هم الساعون إلى الوقيعة . إن ما بيننا من البداية ولسنوات طويلة كان اتفاقا على العفاف .

إن تاريخ العلاقة اتسم بارتباطه بمجموعة أخرى من القيم الطيبة .

إن مثل هذه الأشياء لا يعلمها إلا الله وحده ، ولا يمكن أن يقوم عليها دليل . ولقد أوجد الله سبحانه وتعالى صعوبات كثيرة فى وجه إقامة أى دليل حتى يستحيل أن يوجد دليل يكون هو وحده المطلع .

إن ما بيننا بدأ حبّا واستمر حبّا

إن بيننا عشرة .

إن الحياة مليئة بالحاسدين الحاقدين .

إننى أثق بنفسى .

إنى مازلت لا أصدق .

ولكن كان ينقصنى أن أقرأ : «إذا استطعت أن تتسامح فأنت أقوى الأقوياء» وأنا أملك كل مقومات القوة لكى أكون أقوى الأقوياء ؛ ثم أضفت أنا من عندى «إذا استطعت أن تتسامح فأنت أنبل النبلاء» .

وهكذا استطعت أن أحافظ على زواجى .

صديقتي.. شكرا

لم أستطع أن أتبين حقيقة الأمر إلا بعد سنوات طويله . . والأمر يتعلق بالأعماق الدفينة لنفسية أقرب صديقاتي وأعزهن إلى قلبي ؛ صديقة العمر ، وما زلت أقول إنها إنسانة طيبة ، وأنا لم أخدع فيها .

وهي لم تقصد بعقلها الواعي أن تدمر حياتي . . وإنما سلوكها ينبع من مكان بعيد جدًا في عقلها اللاواعي . أعماقها الدفينة غير المرئية .

في كل مرة كنت أتحدث معها أشعر بمودتها الخالصة وصدقها وحبها لي وحرصها على حياتي . ولكن مع نهاية الحديث كان ينتابني إحساس خفي بعدم الارتياح . شيء كالوخز ؛ ألم مبهم كان يصيبني في مكان ما ؛ شعور غير معروف بالغضب والثورة والرفض والتمرد . ثمة مشاعر سلبية غير محددة وبدون أسباب تجاه زوجي .

على مدى سنوات طويلة ؛ وفي مقابلات وأحاديث متعددة تصل إلى المئات كانت تبث أفكارها على هيئة قطرات غير مرئية وغير محسوسة ولكن مؤثرة ؛ لأنها كلها تؤكد نفس المعنى ، فأحدثت أثرها بفعل الإلحاح والاستمرار والتراكم . وكانت القطرات السامة تتركز حول المعاني التالية :

- إننى أفضل من زوجى .
- إننى أملك مواهب متعددة .
- إن زوجى يحرمنى من فرص كثيرة فى الحياة تتعلق بنجاحى ومستقبلى .
- إن زوجى غير مخلص .
- إن الزواج ليس أهم شىء فى حياة المرأة، وإن المرأة تستطيع أن تعيش مستقلة دون زواج .
- إن الزوجة يجب أن تقف فى وجه زوجها بقوة حتى لا يتمادى فى الضغط عليها .
- إن الزوجة يجب أن يكون لها استقلالها المادى حتى لا يستغل زوجها احتياجها؛ فيمارس ضغوطًا عليها .

وأعترف أنه على مدى سنوات طويلة تأثرت بأفكار صديقتى والتى لم تكن تقولها مباشرة ولكن لها أسلوبها البارع الذكى غير المباشر . وأعترف أن علاقتى بزوجى تأثرت سلبيّا .

حتى جاء يوم خرجت فيه صديقتى عن حكمتها واتزانها وتخلت عن ذكائها وقذفت فى وجهى بعدة نصائح القصد منها أن أترك البيت فوراً . وأفزعتنى صراحتها ومباشرتها . وأكسبتنى الصدمة القدرة على الرؤية المفاجئة بعد أن كنت معصوبة العينين لسنوات . وكأنى أرى صديقتى لأول مرة .

وأخذت أسترجع نهر السموم الذى تسرب فى دمائى إلى عقلى وروحى قطرة قطرة، واكتملت الصورة أمام ناظرى. والصورة تنطق بأن صديقتى كانت تريد لاشعوريا أن تدمر حياتى الأسرية؛ كانت تريد هدم بيتى؛ كانت تريدنى أن أصبح مطلقة.

ما هى الدوافع اللاشعورية التى دفعت صديقتى إلى أن تواجه كل اهتمامها وتركيزها نحو تدمير حياتى رغم حبها لى؟

إن صديقتى مسكينة لقد عاشت حياة صعبة فى طفولتها؛ ثم إنها لم تشعر يوما أن زوجها يحبها. كانت حياتها الزوجية تخلو من المودة والرحمة، ثم كان طلاقها. فعاشت حياة المرأة المطلقة من وحدة إلى نبذ اجتماعى إلى صقيع. ودون أن تدرى كانت تحسد كل امرأة تنعم بحب واهتمام زوجها. إن أكبر سبب يثير حسد امرأة هو سعادة امرأة أخرى فى الحب والزواج. لا تحسد امرأة من أجل مال أو جاه أو جمال أو علم وإنما تحسد لأنها سعيدة مع رجل تحبه ويحبها وتعيش معه تحت سقف واحد فى إطار الزواج.

كان الهدف الرئيسى لصديقتى أن أتمرد على حياتى ثم أكره زوجى، ثم أطلب الطلاق.

ونجحت صديقتى إلى حد ما.. وعشت توترات حادة مع زوجى ومررنا بأوقات حرجة. وكانت صديقتى تدعم موقفى المتمرد وتدعونى إلى مزيد من التمرد بالتأكيد والتركيز على تشويه صورة زوجى.

وفى يوم عاصف مظلم أصرت صديقتى على أن أترك البيت

وأرفع راية العصيان وأصر على الطلاق وكانت هذه هى المرة الأولى التى تكشف فيها صديقتى عن نواياها الخفية .

وأنار الله بصيرتى فاستطعت أن أنفذ إلى أعماقها غير السوية .

وأشفقت على نفسى وعلى زوجى وأسرتى وأسفت للأيام التى عانيتها فيها تمردًا وصراعًا وعنادًا . ولكنى أشفقت أيضًا على صديقتى ؛ فهى فى حاجة إلى مساندة نفسية من متخصص .

وبدون ألم سلخت صديقتى من حياتى ، وأغلقت باب بيتى بهدوء .

عمــرى يكبــر

لاحظت أننى أتقدم فى العمر بسرعة فى السنوات الأخيرة، هكذا شعرت. فالعام يمضى وكأنه شهر وتقفز الأرقام إلى الأمام بطريقة مفزعة. أقبل الخريف وتأملت وجهى فى المرآة وربما لأول مرة أرى التجاعيد بوضوح وكأننى أراها مكبرة واضحة من خلال ميكروسكوب. ولا أخفى أنه قد انتابتنى كآبة وجلست أسترجع سنوات عمرى التى مضت، وخطر على بالى سؤال غريب أو أراه غريبًا رغم أنه سؤال تقليدى ويمر على خاطر ملايين البشر حين يتحسرون على السنين التى ولت سريعًا، سألت نفسى: هل أنا استمتعت بسنوات عمرى؟ هل نعمت بشبابى؟ ماذا أنجزت؟! ماذا حققت؟! ماذا جنيت؟! ولأنه كانت تغمرنى مشاعر اليأس والخوف معًا فإننى شعرت بالندم والأسف والأسى. رأيت أن أيامى ضاعت هباءً، وأننى أهدرت شبابى وأننى أعطيت دون أن آخذ، وأننى لم أحقق شيئًا حقيقيًا لنفسى. واجتاحنى غضب وجاء زوجى، واصطنعت سببا لبدء شجار وصعدت الشجار كالبركان. لمته وعاتبته على كل موقف ضايقنى فيه. اتهمته بأنه أضاع شبابى؛ عبرت له عن ندمى لأننى قبلت استمرار الحياة معه. وأخبرته أننى على وشك اتخاذ

أهم قرار فى حياتى لألحق بأيامى واختنقت بالدموع وارتعش جسدى وانهزمت وانسحبت، ولحق بى.

وبنظرة فهم وتعاطف وبصوت حاسم ودود أخبرنى أنه حقا يشعر بالذنب لأنه لم يحقق لى السعادة التى أستحقها، وأنه لولاى لما استمرت هذه الأسرة، وأننى ضحيت وعانيت وأعطيت الكثير له وللأبناء، وأنه يدين لى بالفضل لما وصل إليه ولما وصل إليه أبناؤنا من نجاح. بل إن النجاح الحقيقى لأبنائنا هو استقامتهم وتمسكهم بالقيم السامية.

ثم التقت عينانا بعد أن كنت مخفضة الرأس؛ فلاحظت فى عينيه ثمة رغبة؛ فخفضت عينى مرة أخرى، فعاود الكلام بصوت متهدج؛ فقال: كم أنت رائعة الجمال والدموع فى عينيك، أحس بطفولتك ورقتك وحنانك وتسامحك، بل دعينى أحس أيضا بأنوثتك. وفى هذه الحالة أشعر بحنين طاغ فى أن أضمك إلىّ. كم أنت رائعة الجمال يا زوجتى العزيزة.

هدأت وتبدلت حالتى؛ وإذا بى أقول له بصدق ودلال: كنت فى الماضى جميلة لقد كبرت يا زوجى العزيز.

فإذا به يهتز صدقا وحنانا: أقسم بالله يا زوجتى الحبيبة أننى أراك أجمل امرأة فى العالم. أراك كما أنت منذ أول لحظة التقيت بك، وزاد جمالك بفعل السنين والذكريات. الفهم والمشاعر العميقة والآلام والطموح والنجاح والأبناء. لقد كبرنا معا وما أروع أن يكبر الإنسان مع شريك حياته؛ لأنه لن يراه كبيرا. فالصورة الأولى لاتبرح

الخيـال . اللقـاء الأول ثم يضـاف إلى جـمـال الشكـل اكتشـاف الروح والتعلق بهـا : الائتناس ، الألفـة ؛ الأمان ؛ الفـهم ؛ المودة ؛ الـرحـمـة ، وبذلك تكتمل أجمل لوحه حب نابضة .

وعدت لأتكلم وإذا بى أقول دون وعى منى : ياه! كل هذه السنين الجميلة مضت ونحن معا .

وحانت منى التفاتة إلى المرآة فرأيتنى فعلا أجمل امرأة فى العالم .

وجهى جميل بالتجاعيد

ليس لى اهتمام إلا برجل واحد هو زوجى، وهو محور حياتى، ولا تهمنى نظرات أحد إلا نظراته. وأنا أتجمل من أجله. تطالعنى عيناه فى مخيلتى وأنا أنتقى ملابسى وأنا أتخير عطرى. أحب أن يرانى دائما أجمل امرأة. تقلقنى عيناه مهما يتطلعان بدون قصد وبدون سوء نية إلى أى امرأة حتى وإن كانت دميمة.

وأيضا يهمنى أن أبدو صغيرة فى عينيه، أخاف تقدم العمر.

لذلك قلقت حين ظهرت التجاعيد.

وفكرت فى جراحة تجميل لشد الوجه لكى أبدو أصغر من سنى بعد اختفاء التجاعيد وانشغلت بهذا الأمر؛ أصبحت مهمومة به.

وفاتحت زوجى فى الأمر؛ قلتها صراحة إننى أريد أن أذهب لجراح التجميل وابتسم بهدوء كعادته وفاجأنى برد غريب لم أتوقعه، قال: ولأزوره أنا أيضًا معك ولنفس السبب. فنظرت إليه مندهشة مستنكرة وقلت بانفعال يهدد بثورة: ولماذا تريد أنت أن تزيل التجاعيد؟ فقال لنفس الأسباب التى من أجلها تريدين أنت إزالتها. فقلت بانفعال أقل: ولكننى أريد أن أزيلها من أجلك أنت. أريد أن أظل فى عينيك جميلة

وصغيرة. فقال وقد اتسعت ابتسامته وأضاء وجهه: وهذه هى نفس أسبابى، أريد أن أبدو لعينيك صغيرًا وجميلاً.

قلت وقد فهمت ما يرمى إليه: ولكنك تعجبنى هكذا. أشعر بالأمان مع تجاعيدك وشعرك الأبيض. تطمئنى ثقتك بنفسك ويزدهينى نضجك، وهذا هو الجمال الحقيقى للرجال. أجمل الرجال أكثرهم ثقة بنفسه.

فقال لى وقد ارتسمت أمارات الجدية على وجهه؛ ليعلمنى بحقيقة راسخة: وأنا أحب تجاعيد وجهك، واختفاؤها يزعجنى لأن اختفاءها معناه إلغاء السنين التى عشناها معًا، لقد عايشت ظهور هذه التجاعيد، لقد استغرق الأمر سنين. ولهذا فهناك علاقة ألفة وصداقة ومودة ومعرفة وثيقة بينى وبين هذه التجاعيد؛ إنها جزء من أيامى؛ إنها جزء منك؛ إنها جزء من علاقتنا؛ إنها الدليل؛ إننا عشنا معًا سنين طويلة وإن واجبنا أن نتمسك بهذه التجاعيد لا أن نزيلها؛ إنها تزيدك روعة وجمالاً.

ورفعت وجهى إليه فرأيته عملاقًا جميلاً: وقلت كم هو رائع شعرك الأبيض.

فرفع وجهى بيديه وقال: دعينى أقبل أجمل وجه وبالذات هذه التجاعيد.

معنـــى الرومـانسيــة

كان زوجي يجلس قبالتي ممسكًا بكتاب، بينما أنا أنظر إلى السقف ضجرة ملولا، أو بالأحرى فاترة خامدة. وتناهى إلى سمعي صوت أم كلثوم مرددًا «جددت حبك ليه»، إذ كان زوجي يحرك مؤشر الراديو ربما بدون هدف وربما باحثًا عن شيء معين. وتوقعت أن تتوقف يده عن تحريك المؤشر؛ ليواصل سماع بقية الأغنية، إذ إنها تحمل الذكريات لدينا. إنها أغنية حبنا أغنية اللقاء الأول. وصعقت حين واصل تحريك المؤشر، واختفى صوت أم كلثوم، وأيقنت أن الأغنية لم تلفت أذنيه وبالتالي لم تشد إحساسه، أو ربما سمعها ولم تحرك فيه شيئا بدليل استمرار تحريكه للمؤشر؛ وحزنت من قلبي.

ومنذ مدة وأنا أشعر بجفاف في حياتنا. أرى وجه زوجي متجهما مشدودًا وصوته حياديًا، وإقباله عليّ محدودًا وتقريبًا انعدمت كلمات الحب بيننا.. وعجبت كيف تبدل هذا الرومانسي الحالم الذي طالما أغرقني بكلمات الحب، والذي أقنعني أن حياتنا ستكون ورودًا وموسيقى وشعرًا وحبا في حب.

تبدد حلم الرومانسية.

وليت الواقع مريح مُرْض، ولكنه متجهم وجاف وصعب وشاق، ويدعو إلى الضجر والملل والفّتور.

انصرفت من المكان الذى كان يضمنا، وألقيت عليه نظرة باردة شعر بها؛ فاهتزت رموشه وارتسمت حيرة على وجهه، فنادانى ولم أرد؛ فتبعنى وكأنما فهم ما يجول بخاطرى وبادرنى بقوله: إننى أشعر بقلق شديد بعد وعكتى الصحية الأخيرة.

فنظرت إلى عينيه بهما حيرة ممزوجة بصفاء؛ فغادرتنى برودتى وحل مكانها اهتمام وقلت له: ولكنك شفيت بالكامل والحمد لله.

فقال: مع تقدم العمر علينا أن نتهيأ لمثل هذه الوعكات.

فقلت: مثل هذا التهيؤ يقلب حياتنا قلقا وشقاء.

فقال: أشد ما يقلقنى هو أنت والأولاد.

فقلت بحنان داهمنى فجأة: ما دمت بخير فنحن أيضا بخير.

اقترب منى حتى شعرت بأنفاسه ولكن دون أن نتلامس، وقال: أريد أن أعوضك عن سنوات الكفاح والتعب، وأريد أن أؤمن لك مستقبلا مريحا أنت والأولاد، فى حالة رفعت يدى كاتمة صوته؛ فتناول يدى وقبلها وعاود كلامه: مهما قدمت لك فهذا قليل أمام ما قدمتيه لنا من رعاية وحب.

قلت: ياه من زمن بعيد لم تسمعنى كلمة حب واحدة.

قال: ولكنى أحمل لك حبا فى قلبى أنوء بحمله.

قلت : ولكنى لا أدرى عنه شيئا .

قال : لأنه تعدى حدود الكلمات ، إنه فوق الكلمات ؛ لأنه من صميم الحياة ، لأنه أصبح هواءنا وغذاءنا ودماءنا . والدليل الوحيد على هذا الحب هو أنك محور حياتى وأنا بالقطع محور حياتك . وإننا لا نستطيع أن نفترق يومًا واحدًا . وإن كل سعى فى الحياة هو من أجلك ومن أجل الأبناء . وإن كل سعيك فى الحياة هو من أجلى ومن أجل الأبناء .

إن الأسرة هى كيان واحد متماسك بالحب والإخلاص ، ولا يمكن أن يخاطب الإنسان كيانه الذاتى بالكلمات

قال بلعة أقرب إلى الفلسفة : إن واقعيتى هى صميم رومانسيتى ، ورومانسيتى هى صميم واقعيتى ، إن الأمر مثل العلاقة بين القلب والمخ . عمل القلب هو صميم حياة المخ . وعمل المخ هو صميم حياة القلب . وإذا أردت أن أوضح بصورة أخرى فإننى أقول : لأننى أحبكم بشدة فإننى أصبحت شديد الواقعية . وهذه مسئوليتى كرجل .

فتساءلت لأعرف : وما هى مسئولياتى كامرأة؟

فقال ؛ كحكيم : أن تحافظى على مشعل الرومانسية فى حياتنا برقتك وحنانك وحبك ومودتك ؛ لتنتعش حياتنا بالعطر والموسيقى والزهور .

الصمت بيننا

مساحات الصمت زادت على مساحات الحوار. كنا لا نكف عن الكلام. وكان الكلام هو وسيلتنا لتبادل أفكارنا ومشاعرنا. وكان يقول لى: إن أشد ما يمتعه هو أن يستمع لصوتى ناقلاً أفكارى معبراً عن عواطفى. كان يدمن تحاوراتنا. كان يقول لى: إن ذلك لايقل متعة عن اقترابنا الكامل، ذروة اللذة تحتاج عقله. كانت تعجبه أفكارى وآرائى، كان يرى فيها إبداعًا وفنا جميلاً وعمقًا. وكان يبادلنى الحوار بنفس الحماس، وكنت أتلذذ بسماع صوته. كان أيضًا لا يكف عن الكلام نتكلم فى أى شىء: علم، ثقافة، سياسة، مشاكلنا، أحلامنا، حبنا، أولادنا. كان يثرى أفكارى بل ويثرى روحى أيضًا، وكان هذا فى نظرى دليل؛ الاهتمام الكامل المتبادل ولذلك كانت تنتابنى لحظات توتر حينما كان ينقطع الحوار دقائق، كان الصمت يقلقنى. كان الافتراض الطبيعى عندى هو أننا يجب ألا نكف عن الكلام أبدًا مادمنا معًا وجهًا لوجه، لحظات الصمت الوحيدة كانت حينما نجلس نقرأ قبالة بعضنا البعض. ولكننا كنا نقطع هذا الصمت عشرات المرات حول ما كنا نقرأ، ولذلك كان من المستحيل أن يؤدى عملاً متكاملاً بتركيز وأنا معه.

هكذا كنا ولسنوات قليلة .

ثم بدأت مساحات الصمت تزيد تدريجيّا ويقل الحوار تدريجيّا . وتحتضر الكلمات .

ويزداد قلقى ثم ضجرى وتتحرك مخاوفى وأتساءل : هل هو الملل يزحف على حياتنا؟ هل نضبت الكلمات؟ هل سئمت الروح . . ؟ هل فرغ العقل بعد أن فرغ كل محتوياته؟ هل مات الإبداع . . ؟

واستسلمت ؛ لأنه لم يكن عندى أيضًا ما أقوله . ولكننى كنت ألقى اللوم عليه فهو الذى جرنى إلى الصمت بعد أن قلت كلماته .

ولكن الحياة استمرت ، والغريب أننى لم أشعر بافتقاد أى شىء ، لم أشعر بنقص بل درجة الإشباع كانت كاملة ومخاوفى كلها نظرية .

وأخذت أتأمل الأمر بعناية وقمت بتجربة عملية ، سجلت فى ذاكرتى الكلمات التى تبادلناها فى يوم معين منذ الاستيقاظ وحتى أوينا إلى فراشنا ، لقد كانت حقّا كلمات قليلة . وقلت لنفسى حقّا لقد طرأ تغير على حياتنا . ولكن يبدو أنه غاب عنى أن أتامل معنى الكلمات وعمقها ودلالاتها التعبيرية . لقد حسبت الكلمات بالعدد لقد كان حسابًا كميّا . مع أن الحوارات يجب ألا تقاس بعدد الكلمات ، وإنما بالمعانى المتبادلة بعمق الأفكار ؛ واكتشفت أنه غابت عنى حقيقة أعم ، وفى الثقافة أصبح قادرًا على استخدام كلمات أقل ولكن ذات معان ومدلولات أعمق .

وغاب عنى أيضًا حقيقة أنه كلما زادت سنوات المعاشرة، وكلما زاد الاقتراب، وكلما عمقت العلاقة بين اثنين وخاصة حبيبين وزوجين؛ زادت قدرتهما على التحاور غير المنطوق. أى تصبح هناك وسائل أخرى كلامية بغير اللسان للحوار والتبادل والإحساس، يصبح كل منهما قادرًا على قراءة وجه الآخر. بل من متابعة حركة العين ذاتها يستطيع أن يعرف الكثير عما يدور بخلد الآخر. وتصبح الابتسامة أكثر تعبيراً وتأثيرا وكذلك الإيماءة والحركة. وأيضا السلوك التلقائى والسلوك المقصود. إنها درجات أقصى من الاقتراب إلى الحد الذى يصبحان فيه كأنهما شخص واحد. ومطقيا فإن الإنسان لا يتكلم مع نفسه بصوت مسموع. ولكن الحوار يكون داخليا بين الإنسان ونفسه حوار غير مسموع. وهذا هو ما يحدث بين الزوجين الحبيبين بعد سنوات من الزواج. تصبح حواراتهما غير مسموعة لأنها غير كلامية وغير لسانية.

وهناك شىء آخر أخطر يتعلق بالإحساس إن إحساس كل منهما بالآخر ينمو ويكبر ويعظم إلى الحد الأدنى الذى لا يحتاج فيه إلى كلمات لنقله والتعبير عنه، إذ يصبح كل منهما فى حالة إحساس دائم بالآخر. إحساس كل الوقت، عاطفية حقيقية راسخة مؤكدة، تبعث على الإحساس بالاطمئنان والأمان والاستقرار والثبات والخلود؛ ولذا تصبح أى كلمات غير كافية للتعبير عن هذه الدرجة من العواطف.

وبذلك يصبح الصمت بليغا. أى أبلغ من الكلمات. ويصبح للصمت قدرة تعبيرية هائلة، يصبح الصمت معناه قمة الإحساس

بالآخر، يصبح الصمت معناه أن كلا منهما يعيش داخل عقل الآخر، وأن روح كل منهما ملتصقة بروح الآخر.

وهذا يختلف تماما عن الصمت الذى يقصد به التعبير عن غضب أو رفض أو عداوة أو فراغ بالإحساس. نقلت إلى زوجى هذه الأفكار التى راودتنى عن الصمت؛ فقال لى: كلما مرت بنا السنون ونحن نعيش معا؛ ازددت حبا وفهما واقترابا، اشتدت بى الرغبة لأفيض وأعبر وأنقل لك ما بداخلى. وبعد أن تكلمنا كثيرا لسنوات وسنوات وأجهزنا على كل القواميس والمعاجم، لم أجد غير الصمت كأبلغ وسيلة للوصول إليك، أى إلى عقلك وروحك. كنت فقط أتأملك فى حركتك وسكناتك، كنت أنظر إلى وجهك، كنت أتأملك فى داخلى، كنت أطالعك وأنت نائمة، وكان هذا هو حوارى معك الذى يشبعنى ويسعدنى ويثيرنى.

ستصمت أكثر وأكثر وماذا سنفعل بوقتنا بعد سن المعاش؟ فقال بصوت طفولى أحبه: إننى أعد العدة لذلك بقراءة العديد من القصص لأحكيها لك، أما عن الحب فإننا سنتبادله فى صمت.

فتور زوجى

زوجى غير مقبل، ليس فتوراً عاطفيًا؛ فأنا أشعر بنبض أحاسيسه، ولكنه فتور جسدى، وأنا كنت أعتبر زواجى ناجحًا جنسيًا بالمقاييس العاطفية. فأنا أحب زوجى كما هو يحبنى ولقاءاتنا الجسدية كانت دائما تعبيراً عما تجيش به نفوسنا من عواطف، فأنا نشأت فى أسرة محافظة وكذلك زوجى. ولنا حياؤنا الشديد فى الأمور الجنسية. وأنا وزوجى مختلفان عن معظم الناس إذ لا نتناول هذه الأمور بالكلمات، ولم يحدث قط أن تناولناها بالمزاح كما يفعل بعض الناس، ولكننا نتناولها بالأحاسيس الصامتة. أنا وزوجى نعتبر أن العلاقة الجنسية بين الزوجين أمر يتعلق بالمشاعر، أمر سام، أمر لا يجوز التعبير عنه بالكلمات سواء كانت جادة أو مازحة أو حتى علمية، بل الأحاسيس هى التى تتكلم وتتناغى فى صمت وتتحرك.

ولم يكن الجنس أبداً محور علاقتنا، أقصد لم يكن محوراً أساسيًا، فعلاقتنا على الحب والرغبة الحقيقية فى أن نعيش معًا، والاهتمام بأبنائنا والانشغال بطموحاتنا، أقصد حياة ثرية بها كثير من الانشغال والاهتمامات. ولكننا كنا نستمتع بشكل معقول بعلاقتنا الجنسية.. وحمدت الله أن زوجى وأنا نحمل نفس الأفكار والمفاهيم

المتعلقة بالجنس، ولنا نفس درجة الاهتمام، وموقفنا منه واضح، ومتفقان على وضعه ومكانته فى إطاره الصحيح بالنسبة لحياتنا، أى باختصار كنا منسجمين.

ولكن طرأ فى السنوات الأخيرة تغيير فعلى وشعرت بتباعد زوجى عنى، فى البداية كان الأمر غير ملحوظ، ولكن حين تنبهت وتذكرت أدركت تباعده.

وفى السابق كانت تمر بنا فترات تباعد، ولكنها كانت مرتبطة بالتوترات التى كانت تمر بها علاقتنا.. ولكننا أصبحنا متباعدين بالرغم من حيوية علاقتنا وانسجامنا عاطفيا وقلة توتراتنا.

إذن ماذا حدث..؟ هل هذه هى طبيعة الأمور بعد انقضاء سنوات عدة على زواجنا؟! أم أن الجسد من الممكن أن يسأم دون أن تفتر العواطف؟! أم أن سأم الجسد هو تعبير خفى عن سأم العواطف؟ أم أن الأمر ليس له علاقة بالسأم؟!

وطبعا لم أفاتح زوجى بأفكارى وهواجسى، فكما قلت نحن لا نتحدث فى أمور الجنس؛ حياء ولأن هذا أمر فوق مستوى الكلمات.

ولكنى أخذت أفحص الأمر بعناية أكثر متأملة فى نفسى ومستعرضة تاريخ علاقتى بزوجى من البداية.

وحين بدأت بنفسى وجدت أن مشاعرى الجنسية تمر بفترات هبوط غير معروف سببها، وقد تمتد هذه الفترات لعدة أسابيع، ليس فتوراً كاملاً إلى حد الانعدام، ولكن يصبح الأمر غير مطروح فى ذهنى

وليس مطروحًا فى نسيجى العاطفى، أى أنسى هذا الأمر ولا يحتل حتى أطراف دائرة وعيى ومحيط اهتمامى، ثم أعود تلقائيًا إلى حالتى الطبيعية، وليس معنى حالتى الطبيعية أن يحتل الأمر مركز الوعى والاهتمام، ليس معنى حالتى الطبيعية أن يصبح الجنس شيئًا قائمًا بذاته بارزًا محددًا على خلفية حياتنا كتعبير عن رغبة وغريزة مستقلة، بل أقصد بحالتى الطبيعية التلقائية كاستجابة لفورات عاطفية وتأججات نفسية تحتاجها نفسية الحياة الزوجية من وقت لآخر، وهذا هو دور الجنس والاحتياج له فى العلاقة الزوجية. وهو يختلف عن أى جنس آخر فى حياة الإنسان، وهذا هو الجنس الطبيعى وأى جنس آخر هو غير طبيعى. إن الجنس فى حياة المتزوجين مرتبط بدورات عاطفية؛ ولذا يتحرك الأزواج نحو بعضهم البعض بشكل طبيعى تلقائى بفعل نداء خفى داخلى مصدره الوجدان، ولهذا فهو يعبر عن احتياج نفسى أكثر مما هو تعبير عن احتياج جسدى. بل هو احتياج نفسى فى صورة احتياج جسدى، ولذا فالإرضاء النفسى يفوق الإرضاء الجسدى فى حالة الجنس بين الأزواج.

قد تتباطأ الدورات العاطفية أو قد يطرأ عليها تغير ما غير مفهوم وغير معروفة أسبابه؛ ولذا تخفت الفورات العاطفية والتأججات النفسية الدافعة للنشاط الجنسى بين الزوجين دون أن يدريا. ثم يتقاربان دون أن يدريا أنهما يتقاربان، ودون أن يتذكرا أنهما كانا متباعدين. إنها حركة طبيعية تلقائية مثل تقلبات الطبيعة.

لاحظت أيضًا فى أثناء تأملى الذاتى لمشاعرى الجنسية كزوجة أن هذه المشاعر تتوقف على عدة عوامل أخرى كثيرة، من ضمنها موقعى

بالنسبة لأيام معينة فى الدورة الشهرية، وأيضًا صحتى العامة، وأيضًا تقلباتى المزاجية الطبيعية، وكذلك همومى وانشغالى.

إذن أنا شخصيّا أمر بحالات صعود وهبوط، فلماذا كل هذا الانزعاج للفتور الذى أصاب زوجى؟

وعدت لأتامل علاقتنا، علاقتنا كزوجين نعيش حياة كاملة بكل أبعادها، منذ أن عرفت زوجى وحتى الآن، أى بعد سنوات عدة طرأت على هذه العلاقة تغيرات حاسمة، ولا أقول تغييرات، وإنما هى مراحل مررنا بها وكل مرحلة تقود إلى أخرى. وأقول إنها مراحل نضج وتطور. نضج وتطور فى المضمون واستتبعه بالضرورة تغيير فى الشكل يتلاءم مع المضمون.

فى البداية كان الجنس أكثر تحديدًا وبروزًا رغم ارتباطه الوثيق بالعاطفة، ومع مرور الوقت أصبح متداخلا أكثر فى النسيج العاطفى. ذابت الرغبات البدنية مع العقل والقلب، وأصبحت الحركة كلية وشاملة، ولا يفهم من كلمة النضج أنها التعقل والهدوء، فالأمر ليس له علاقة بهدوء وتعقل إنما له علاقة بوحدة الكيان والانسجام الكامل بين حركة الجسد والفكر والوجدان، ثم الانسجام المتبادل بين كيانين إنسانيين يعيش كل منهما داخل الآخر، ولذا فالإشباع يتحقق لوجدان وفكر وجسد فى بوتقة واحدة وانصهار كامل، وفى حركة تلقائية تبادلية خاضعة لعوامل كثيرة؛ تجعلها تمر بحالات صعوبة وهبوط نشاط وفتور، وليس الأمر إقبالاً وإدبارًا، ليس اقترابًا وتباعدًا.

وهدأت نفسى وحين هدأت بما هو أهم وأخطر ، شعرت أنه حتى فى حالات الفتور سواء من جانبى أو من جانب زوجى ، شعرت أنه حتى فى حالات التباعد الجسدى، فإننى فى كل الأحوال مشبعة فكريّا ووجدانيًا وجسديّا . . وهذا هو الزواج .

المرض الشهرى

أتردد كثيراً فى الذهاب لأى طبيب، أتحمل أى أعراض مؤلمة حتى يفيض بى الكيل، أتذرع فى البداية بالصبر ثم أحاول أن أداوى نفسى، وأقرأ، فلدى ثقافة طبية لا بأس بها، وأنظر إلى أعراض كثيرة على أنها طبيعية ولابد أن يعانيها غالبية الناس، وأنها تمثل مراحل نمو وتطور، أو هى أعراض لدورات فسيولوچية طبيعية يمر بها جسم الإنسان.

ومن هذه الأعراض تلك المصاحبة لمراحل الدورة أو الطمث على مدى شهر. ومنذ بداية الطمث عندى فى الثالثة عشرة، وأنا أعانى مرة كل شهر لمدة أسبوع على الأقل ـ معاناة تفوق الاحتمال، بعض النساء مثلى وبعضهن يفقننى معاناة، والبعض الآخر لا يعانى من أى شىء.

وحاولت أن أقرأ، أن أفهم لماذا تحيض المرأة؟ ولماذا تتألم؟

فابتداء من سن البلوغ حوالى الثالثة عشرة وحتى الخامسة والأربعون أو ما يزيد قليلاً تحيض المرأة كل شهر. والحيض معناه أن البويضة لم تلقح، فالرحم يتهيأ كل شهر لاستقبال البويضة الملقحة مشروع إنسان وعلى مدى الشهر، وكل شهر تفرز هرمونات من المخ

والغدة النخامية والمبيضين بأنواع ومقادير ترتفع وتنخفض عند أيام معينة من الشهر، إن كل ارتفاع وانخفاض يصاحبه تغيرات فسيولوچية وأيضًا نفسية، وهذه التغيرات تصاحبها آلام ولكنها محتملة لا تعوق الحياة، آلام تنبئ عن التغيرات التى تحدث بالداخل والدالة على الاستعدادات الأنثوية الدورية لأداء دورها فى تلقى الخلايا الأولى للحياة . . لإنسان قادم .

ولأسباب غير معروفة علميًا على وجه الدقة؛ فإن هذه الآلام الجسدية والنفسية قد تكون قاسية غير محتملة وقد تعوق الحياة بشكلها الطبيعى .

فقد تتعرض المرأة لتقلبات مزاجية حادة وعنيفة تمر بها على مدى الشهر وكل شهر . هى ذاتها لا تدرى كنه مشاعرها، ولا تدرى حجم التغيرات التى تطرأ عليها، أى لا تكون على بصيرة بما يمر بها من تقلب مزاجى، وتعتقد أن هذه هى مشاعرها الطبيعية الحقيقية عند كل لحظة ومع كل موقف .

تنتقل من حالتها المعتادة إلى الفتور ثم إلى العدوانية ثم الابتهاج، إقبال ثم إعراض، عصبية ثم هدوء، حب ثم كراهية . إنه تذبذب حار مرهق ومؤلم، تبدو مخلوقة غاية فى الغرابة بالنسبة للمحيطين بها .

ويمكنك أن ترسم هذه التغيرات بأعراض محددة هى ذاتها تتكرر فى كل مرة وفى أيام معينة من الشهر .

فمثلا فى الأسبوع الذى يسبق بدء الدورة تبدو المرأة فاترة ثم مكتئبة ثم عصبية ثم عدوانية . ثم تأتى الدورة فتختفى العدوانية

ويعاودها الهدوء. ثم يمر أسبوع فتبدو مرحة منطلقة متحمسة متفائلة عاطفية رقيقة وشاعرية، ويحار الإنسان فى أمرها؛ إذ كيف تتحول فى غضون أيام من عدوانية شرسة عنيفة إلى رقيقة حالمة وديعة.

حياتها، عملها وعلاقتها وقراراتها ورؤيتها للأشياء تتأثر بهذه التقلبات المزاجية الحادة والسريعة، ففى أيام معينة ترى كل شىء قاتمًا وسيئا ويملؤها الشك والغيظ، ثم يعقبها أيام تتقلب إلى النقيض؛ فتتغير رؤيتها وبالتالى يتغير حكمها وتقديرها. أى لا ثبات ولا استمرار ولا استقرار ولا راحة لها وللآخرين.

٩٠ ٪ من نساء الأرض يتعرضن لتقلبات مزاجية مع كل دورة هورمونية، هذه التقلبات قد تصل إلى درجة من الحدة تسبب آلاما نفسية قاسية فى ٢ ٪ من النساء. قد تقتل المرأة نفسها أو قد تقتل إنسانًا آخر. أقصى درجات العنف.

ولنبدأ الدورة الهورمونية من أولها: إن عملية التبويض لدى المرأة تعتمد على تنسيق هورمونى يبدأ من المخ. إنه نسق أو نظام أو سيمفونية قائدها منطقة فى المخ تعرف باسم الهيبوثلاموث Hypothalamus.

إنه المايسترو الذى يتحكم فى جهاز الغدد الصماء، ويتحكم فى الانفعالات، ويتحكم فى كل أجهزة الجسم الداخلية كالقلب والمعدة والأمعاء والشرايين وأعضاء التناسل.

كيف يتحكم الهيبوثلاموث فى الغدد الصماء؟

إنه يفعل ذلك من خلال سيطرته على سيدة الغدد والتى توجد بالمخ واسمها الغدة النخامية Pituitary gland . إنها الغدة المسئولة عن نمو الإنسان وتتحكم فى بقية الغدد، وهى أيضا تتحكم فى المبيضين؟

والمبيضان يفرزان هورمونى الإستروجين والبروجيستيرون Oestrogen & progesteron وهما المسئولان عن إعداد الرحم لتلقى البويضة الملقحة، وبالتالى فهما مسئولان عن الدورة الشهرية فى حالة حدوث الحمل، وكذلك مسئولان عن أجزاء أخرى من الجسم كالثدى؛ ولذا تلاحظ المرأة ازدياد حساسية ثدييها للألم فى فترات معينة كل شهر، وكذلك يتأثر المهبل وعنق الرحم .

ففى منتصف الدورة (أى فى اليوم الرابع عشر) يزداد الإستروجين الذى يؤدى إلى زيادة بلل المهبل وعنق الرحم (زيادة الإفرازات) وذلك يساعد الحيوان المنوى فى رحلته حتى يتم تلقيح البويضة .

إذن فمن اليوم الأول لبدء الدورة إلى منتصف المسافة، فإن الغدة النخامية تصدر أوامرها للمبيضين لإفراز الإستروجين؛ وذلك لإعداد البويضة لتصبح جاهزة للتلقيح، وفى منتصف الشهر تنفصل البويضة عن المبيض؛ لتمر عبر قناة فالوب Falopian Tule .

فى المنتصف الثانى من الشهر يفرز هورمون البروجيستيرون لإعداد الرحم لاستقبال البويضة الملقحة. وفى نهاية الشهر إذا لم يحدث التلقيح؛ تنخفض نسبة الإستروجين والبروجيستيرون؛ ولذا ينهار الجدار الذى تكون فى الرحم لاستقبال البويضة، ويخرج من المهبل إلى الغدة النخامية ثم إلى المبيضين .

هكذا قرأت عن فسيولوجية الدورة الشهرية. ولكن ماذا يحدث لى أنا فى أثناء هذه الدورة؟

إن معاناتى شديدة وقاسية وتتكرر مرة كل شهر، تبدأ فى الأسبوع الأخير الذى يسبق بداية الدورة، وتستمر يومين أو أكثر بعد بدء الدورة، ثم تختفى الأعراض تماما، وكأنها لم تكن تبدأ فجأة فى يوم أو حتى فى ساعة وربما فى لحظة تستمر أياما، أسبوعا، أو أكثر ثم تختفى مثلما ظهرت.

أول عرض أشعر به هو تذبذب حاد فى حالتى الوجدانية، انقلاب مفاجئ يبدأ فى لحظة ويصل إلى أقصى مداه فى نفس اللحظة التى بدأ فيها.

فجأة وبدون مقدمات وبدون أسباب على الإطلاق أشعر بالحزن، وتنهمر دموعى أو أتحول إلى إنسانة عصبية ثائرة غاضبة، ولا أستطيع أن أقول شيئا خارجا قد أثارنى وحرك غضبى واستفز عصبيتى، ولكن الأصح أن ثورتى المفاجئة وغضبى الحاد قد خلقا، وتسببا فى الموقف الخارجى الذى تلصق به بعد ذلك تهمة إثارة غضبى، ثم أهدأ وأعود لأنفجر من جديد.

وقد يصبح الغضب مستمراً ويبدو ذلك جليا على وجهى، الذى يصبح مشدوداً مستفزاً حانقًا، أرى كل شىء حولى يثير الغضب، ويدعو إلى الحنق، أصبح عصبية عدائية إلى أقصى حد، قد أخرج عن الحدود اللائقة فى حديثى مع الآخرين. قد أتفوه بألفاظ نابية أندم عليها بعد شفاء الحالة.

تلازمنى حالة قلق حاد وتوتر مستمر أشعر وكأنى فى سجن أو كأنى فى حافة هاوية دائما، مشدودة دائما، متحفزة دائما، متوقعة لمصيبة أو مشكلة كبيرة، وينتقل توترى إلى من حولى. ويصبح الكل فى حالة استفزاز وتحفز. وقد تشتعل الدنيا فى لحظة واحدة ومن خطأ غير مقصود.

ثم يسيطر علىّ الاكتئاب بكل أعراضه، يبدو وجهى كئيبا منطفئا مقطبا، أشعر بالضيق فى صدرى والكراهية لذاتى وأتمنى لو غادرت الدنيا. أرى كل شىء حولى باهتا لا يبعث على أدنى اهتمام أفقد حماسى لكل شىء. وأعجب من نفسى إذ كنت مشتعلة حماسا، منذ أيام قلائل كانت ضحكاتى تدوى فى كل أرجاء المكان وأتحدث بطلاقة وتفاؤل وأمل، وفجأة تجمد فى داخلى كل شىء؛ فتخمد الحركة ويتوقف اللسان وتذوى الابتسامة. كل شىء بطىء داخلى وخارجى.

ويتوقف تفكيرى كأنما أصابه الشلل كما حدث تماما لوجدانى، وأجد صعوبة شديدة فى التركيز والفهم والمتابعة.

ومن أسوأ الأعراض التى تنتابنى: العنف، والعدوانية، والعداء لكل من حولى، وغالب ما أوجه عدائى ناحية هدف واحد محدد وهو زوجى.

ويلازمنى الأرق خلال هذه الأيام. وأحيانا أنام ضعف ساعات نومى المعتادة.

وأحس بالنفور من أطعمة معينة وفى أحيان أخرى أقبل على الأكل بشهية زائدة.

ويلازمنى الصداع النصفى وآلام الثديين وتورمهما .

هذه هى حالتى فى أسبوع ما قبل بداية الدورة الشهرية ، وأنا أتألم لنفسى وأتألم لأسرتى نعيش جميعا أياما صعبة ، ولكن زوجى أيقن أن هذا أمر خارج عن إرادتى . أصبح يرصد هذه الأيام ويحرص على عدم استفزازى ، بل ويقبل منى استفزازى وعصبيتى وعدوانيتى وعدائى وسلاطة لسانى وقلة ذوقى ، وهذا هو الزواج ، وهذا هو الحب ، المودة والرحمة وخاصة فى أوقات الشدة ، وأوقات المرض .
حقا إنه المرض الشهرى .

معاناة الحمل

تعلمت الصبر من أبى. علمنى الرضا بقضاء الله، تشرب وجدانى بالتسليم والخضوع والتوكل، واكتسب عقلى نفاذ البصيرة وعدم التعجل فى الحكم على الأمور، والتفاؤل المبنى على معطيات العلم والإيمان بقدرة الخالق عز وجل، إذ يقول للشىء كن فيكون.

لم أحمل فى خلال السنة الأولى من الزواج، ولا فى الثانية، ولا حتى فى الثالثة، ولم يجد الأطباء عيوبا جسمية تعوق نهائيا المقدرة على الحمل، وإنما اضطرابات بسيطة تمت معالجتها، ولكنى رغم ذلك لم أحمل ومرت السنة الخامسة واستسلمت ورضيت. وكذلك قبل زوجى الأمر الواقع. ولكن أبدا لم نفكر فى انفصال. لم يفكر أحدنا فى زواج آخر. هو عندى أثمن من كل أطفال العالم، وأنا عنده أثمن من كل أطفال العالم. أقول هذا ولكننا لم نكف عن الأمل والحلم والتمنى والدعاء، أقول هذا ولم نمتنع عن الإحساس بغلالة حزن رقيقة تغلف القلب والعقل معا.

لم يمنعنا هذا من الشعور بالنقص فى بعض الأحيان، لم يمنعنا هذا من غبطة الأسر التى أنعم الله عليها بالأطفال ولكن بدون حسد أو غيرة.

وأعترف أننا فى أحيان كنا نشعر بخواء وفراغ وسكون وصمت، ولكن دون ملل أو ضجر من حياتنا .

ومع مرور الوقت نشأت بيننا مشاعر جديدة، فأحسست أنه ابنى وأحس أننى ابنته، لقد مارسنا مشاعر الأبوة والأمومة إلى جانب مشاعر العشاق الأزواج .

وفى أحيان قليلة كنا نفقد رغبة التواصل الجنسى، ولعلنا نشعر أنه لا جدوى من الجنس ما دام لا يحقق إنجازا فعليا، وكأن الجنس لابد أن يستتبعه حمل، جنس بلا حمل لا ضرورة له، ولذا فلتنطفئ الرغبة .

وقليل جدًا جدًا ماكنا نثور ونعترض ونرفض ونتذمر ونتمرد . ثم نعود سريعا فنستغفر الله .

ولكن أبدا ما فكرنا فى الزواج لمال أو جاه أو جمال أو جنس أو رغبة فى الأطفال، تزوجته؛ لأننى أريد أن أكون معه، لأننى أحبه وهو ما تزوجنى لمال أو جاه أو جنس أو رغبه فى أطفال . ولكنه تزوجنى؛ لأنه يريد أن يعيش معى؛ لأنه يحبنى .

وبدون توقع، بدون علاج، بدون تعمد حملت، إنه على كل شىء قدير، سبحان الله والحمد لله، كل شىء عنده بميقات، يرزق من يشاء، ينزل من السماء بقدر، ولا أستطيع أن أصف مقدار فرحتنا معا حتى خشينا هول الفرحة .

ومع بداية الشهر الثانى انتابنى فتور، مات الحماس، انتزعت الفرحة من قلبى، وحاولت أن أجد سندا عقليا لمشاعرى الغريبة ولكننى لم أجد .

ثـم أهمـلت زيـارتى للطبيب، وأهملت التعليمات المتعلقة بكل ما يمكن أن يساعد استمـرار الحمل والحفـاظ على الجنين، لـم يعد الأمر يهمنى.

ثم انقضت أفكار هى الجنون بعينه: أود الخلاص من الجنين، ومات زوجى رعبا، ليس خوفا على الجنين ولكن قلقا من أجلى، وكان هو صديقى وحبيبى قبل أن يكون زوجى. فأفضيت له بحزنى، يأسى، ضيقى، برغبتى المستمرة فى البكاء لعدم قدرتى على الاستمرار فى حمل الذى بين أحشائى، برغبتى الفعلية فى الإجهاض.

أدرك بحبه لى أن بى حالة غير طبيعية، واصطحبنى إلى الطبيب وجاء التشخيص اكتئاب الحمل، والنسبة تقول إن هناك سيدة واحدة من بين كل خمس سيدات حوامل تعانى نفسيا فى أثناء فترة الحمل، هكذا قال الطبيب: قد تكون فى صورة تغيرات طفيفة فى الشخصية كأن تصبح السيدة الحامل عصبية، قلقة، مندفعة، ويضطرب نومها، ويقل تركيزها، أو قد تصبح هادئة أكثر من المعتاد، متبلدة تجاه المشاكل اليومية، وأكثر ميلا إلى العزلة، عازفة عن الاهتمامات المعتادة، وأكثر ميلا إلى الحزن وسرعة التأثر أو سرعة الاستجابة الحزينة للأحداث البسيطة، وقد تصاب السيدة الحامل بالاكتئاب المرضى بكل أعراضه من يأس وحزن وتأنيب ضمير ورغبة فى التخلص من الحياة. وقد تصر على الخلاص من جنينها؛ فهى ترى أن الحياة متعبة ومضنية، ولا تريد أن تأتى بطفل يواصل رحلة العذاب، وقد تنتابها حالة قلق نفسى حاد، بكل ما فيها من مخاوف، وعدم استقرار وأرق واضطرابات الهضم وسرعة ضربات القلب، أو قد تنتابها الوساوس، وأخطر هذه

الوساوس أن تسيطر عليها فكرة أنها ستلد طفلا مشوها، أو أنها إذا ولدت فى مستشفى؛ فإن طفلها سيختلط مع الأطفال الآخرين، ولن تستطيع التعرف على طفلها الحقيقى.

والعلاج يا طبيب..؟

لا يمكن إعطاء أية عقاقير فى أثناء الشهور الثلاثة الأولى من الحمل.. ولابد من الطمأنة والتشجيع والتدعيم والمساندة، نقول لها اصبرى وتحملى ساعة بساعة ويوما بيوم؛ حتى تمضى الأيام ثم تمضى الشهور. قليل من العقاقير وكثير من المساندة.. والزوج يلعب الدور الأساسى فى المساندة والتشجيع والتهوين والتدليل والتودد، قليل من العقاقير وكثير من الحب، والأمر قد يصل إلى درج الاحتمال إما الإجهاض أو قتل النفس. اصبرى، تحملى، سنساعدك، هناك علاج ستشعرين بتحسن سريع. وقد نضطر للجلسات الكهربائية، وليس لها تأثير ضار على الإطلاق. المهم لدينا سلامة الأم أولا وسلامة الجنين ثانيا.

الحمل معاناة يقول الله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ [سورة الأحقاف: ١٥].

ويقول تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [سورة لقمان: ١٤].

المعاناة جزء لا يتجزأ من الحمل.

والحياة الزوجية ممكنة بغير الأطفال، فالزواج جعله الله ليسكن الرجل إلى زوجته وتسكن المرأة إلى زوجها.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩].

وفى الزواج ينعم الرجل والمرأة بأشياء كثيرة قد يكون من ضمنها الأطفال والجنس، ولكن ذلك يفوق ذلك، ينعم الإنسان بالأمان والاستقرار، يحتاج الإنسان إلى رفيق حياته؛ يوده ويرحمه..

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.. [سورة الروم: ٢١].

سكن ومودة ورحمة، ثم يأتى الأطفال أو لا يأتون. وإذا أتوا فمعاناة حمل وولادة وتنشئة.

متاعب الولادة

أحب لحظات شروق الشمس. أحس بالضوء يتسرب إلى روحى فيضيئها؛ فأشعر بفرحة حقيقية، ما أروع الطبيعة وما أروع حركة الكون. حركة الحياة ومن أجل الحياة، الشمس من الأشياء الباعثة على الحياة، وكذلك وجه زوجى لحظة قدومه كإشراق الشمس، وأيضا شعرت بالنور يضىء روحى حين تطلعت إلى وجه وليدى لحظة أن جاء للحياة.

ليس من سماتى أن أرقص فرحا أو أزهو وأطير، ولكن فرح هادئ، سرور خافت يمس القلب، نشوى متزنة، تبتهج المشاعر، وأعرف أننى فى قمة سعادتى حين يملأ النور روحى.

سعدت أنا وزوجى بطفلنا الأول.

وبعد أيام تبدل الفرح الرقيق إلى حزن رقيق، ولا أدرى كيف أصف الحزن الرقيق. أستطيع أن أقول: إنه غير متوحش، ليس فيه قسوة الاكتئاب ولا ضراوة الأسى، بل يلمس النفس لمسا رقيقا حانيا؛ فتتألم ألما خفيفا، ولكنه يبعث بالدموع إلى العيون تنسال فياضة بلا سبب ظاهر غير شجى النفس. وثمة لون رمادى ينتشر من حولى كسحابات الغروب فى الشتاء؛ فتملأ القلب خوفا وإشفاقا ويضطرب الخاطر.

ولكن الحياة تمضى؛ آكل وأعمل وأنام وأتكلم ولا أحد يلحظ وأجاهد أن أخفى ما بى؛ فالأمر لا يستحق وكذلك الأمر محير وأسأل نفسى بوجل مابى؟ ماذا أصابنى؟ لماذا لا أفرح؟ ما هذا الألم الذى يحوم حول روحى؟ ما هذا الوخز الذى ينقر قلبى برفق؟

وتستمر الحياة وأبذل جهدا خارقا من أجل أن أؤدى واجباتى المفروضة علىّ بدون تقصير، ولكنى أشعر بالإرهاق والتعب، ويصبح الأمر فوق طاقتى، يضطرب النوم، نوم متقطع، ودموع الليل لا تقل غزارة عن دموع النهار، ولكنها لا تسبب إزعاجا كثيرا؛ لأنه لا أحد يراها فىّ، أكلف نفسى جهد إخفائها، أستيقظ مرة أخرى لإرضاع وليدى، وأستيقظ مرة بعدها على حلم مزعج «كابوس»، ثم أنام لأستيقظ مرة ثالثة على ضيق فى صدرى . .

وهكذا الليل عناء والنهار مكابدة ومثابرة. أرسم الابتسامة على وجهى والنفس تئن، وأحيانا تنهار مقاومتى، ولكن فى معظم الأحوال يتجاهل الآخرون الحزن الذى أصبح باديا على وجهى وجسدى؛ فهم لا يتوقعون أن تحزن أم فى مثل هذه الظروف، أو هم لا يريدون أن يضايقوا أنفسهم بأحزان لا مبرر لها.

وأسأل الطبيب الذى يباشر وليدى، فيقول: هذا أرق وأغرب أحزان تعانيها المرأة، أكثر من نصف الأمهات يعانين من هذه الأحزان بعد الولادة. إنها تبدأ فى الأيام العشرة الأولى بعد مجىء الطفل، وتستمر أياما وشهورا، ومعظم هؤلاء الأمهات لا يلقين أى مساعدة طبية رغم احتياجهن لها.

وحنان الزوج واهتمامه وتفهمه من العوامل الحاسمة لتخفيف حدة المعاناة .

ولكن الأمر قد يأخذ شكلا أكثر حدة وأكثر توحشا ، قد تصاب المرأة فى الأسابيع الأولى بعد الولادة بمرض الاكتئاب ونسبة انتشاره من ١٠٪ إلى ١٥٪ وإذا لم يعالج فقد يستمر لشهور طويلة تصل إلى عام كامل .

التشخيص يأتى متأخرا لأن أحدا لا يتوقعه .

ما هى أعراض الاكتئاب بعد الولادة . . ؟

١ ـ قلق زائد من أجل صحة الطفل .

٢ ـ لوم النفس والإحساس بالنقص والتقصير كأم ، وأنها ليست كفئا لتربية طفلها التربية الصحيحة ورعايته ، وتقارن نفسها ببقية الأمهات من الجيران والأقارب والصديقات .

٣ ـ صعوبة النوم والاستيقاظ المتكرر ويضاعف ذلك من اضطرارها للاستيقاظ فى أوقات أخرى لرضاعة الطفل .

٤ ـ تفقد اهتمامها بما حولها ، وتشعر وكأنها تتحرك كآلة بلا روح ، وتنساب دموعها بلا سبب أو لأسباب بسيطة .

٥ ـ تراودها وساوس أنها قد تؤذى طفلها ، تراودها اندفاعات أن تخنقه أو تقذف به ؛ وتنزعج لهذه الأفكار الشاذة التى تراودها وتتعذب بها .

٦ ـ تراودها فكرة الموت ليس بصورة مباشرة ولكن تشعر أن الموت راحة وتتمنى لو أنها تموت فجأة .

٧ ـ القلق والتوتر وعدم الاستقرار والعصبية والخوف .

٨ ـ فقدان الرغبة الجنسية تماما .

٩ ـ وقد تتجمد مشاعرها تجاه طفلها وتنفر منه وترفض العناية به وتقذف به إلى أمها أو شقيقتها أو إلى أى أحد يرعاه .

١٠ ـ ومن الوساوس الغريبة التى تداهمها أن هذا الطفل ليس طفلها ، وإنه اختلط مع طفل آخر بالمستشفى ، أو قد تعتقد أن طفلها قد تعرض لإصابة خطيرة فى أثناء الولادة سينتج عنها تشويه أو تخلف عقلى .

١١ ـ وقد يختفى الاكتئاب وراء شكاوى جسدية متعددة يحار معها الأطباء كآلام المعدة والظهر والساق والصداع وفقدان الشهية للطعام والغثيان والقىء واضطرابات فى ضربات القلب وضيق التنفس وصعوبة التبول .

فقد تصاب المرأة باضطراب عقلى بيّن بعد الولادة ، مزيج من أعراض الفصام وتشوش الوعى وتبدأ الأعراض كالآتى :

١ ـ أرق شديد .

٢ ـ تذبذب المزاج الذى يتأرجح بين البكاء والإحساس بالحزن وبين المرح والانشراح .

٣ ـ الشعور بالاضطراب والحيرة.

٤ ـ أحاسيس غريبة كالانفصال عن الواقع، وكأنها فى حلم تشعر بالاندهاش أو الاستغراب، ويصاحب ذلك الشعور بالتعاسة وعدم الارتياح.

٥ ـ نبذ الطفل وإهماله تماما أو الاعتقاد بأنه مشوه أو ميت.

٦ ـ وقد تتطور الحالة بشكل مفاجىء وتنقلب إلى حالة من الهياج والعنف.

٧ ـ مشاعر الاضطهاد والشك.

٨ ـ أفكار انتحارية، فقد تحاول فعلا وقبل أن تنتحر قتل طفلها.

٩ ـ شعور شديد بالذنب وتأنيب الضمير والصمت الكامل والامتناع عن الطعام والحركة.

كل هذه الأهوال من الممكن أن تتعرض لها المرأة بعد الولادة، المرأة وليس الرجل؛ لأن الرجل لا يحمل ولا يلد، فليس هذا هو دوره فى الحياة إنما هو دور المرأة مصدر الحياة والأضواء والحنان والتحمل والصبر. والحياة الزوجية مسئولة من الرجل والمرأة، ومن مسئوليات الرجل رعاية المرأة والاهتمام بها، وتقديم أقصى مساعدة وخاصة فى الأوقات الحرجة.

المرأة بعد الولادة تكون هشة تحتاج إلى التعامل الرقيق والملاحظة الدقيقة والعناية المركزة.

وحين أوصانا رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنساء؛ فإنه كان يعلم بالأوقات الحرجة التى تمر بها والتى تحتاج فيها إلى المساندة الحقيقية.

والحياة الانفعالية للمرأة حياة غير مستقرة فى بعض هذه الأوقات، تتأرجح فيها مشاعرها بشدة؛ فلا ينبغى أن نتعامل معها بمستوى ثابت من السلوك أو بطريقة رد الفعل التلقائى المبنى على الأفعال التى تصدر عنها؛ فاستوصوا بالنساء يا معشر الرجال.

صعوبة الإجهاض

مع بداية الشهر الرابع من الحمل فاجأتنى آلام مزقت أحشائى وسالت منى دماء، وكان الطبيب حاسما؛ لابد من الإجهاض، وانتابنى شعور عميق بالأسف وتأنيب الضمير؛ فالجنين المفقود عن طريق الإجهاض ليس مجرد أنسجة ميتة؛ بل هو كائن معنوى متكامل ومشروع للمستقبل وأحلام متفائلة.

الحمل كان حدثا سعيدا فى حياتى وأيضا فى حياة زوجى، سعدنا معا وحلمنا وخططنا معا لمستقبل الطفل القادم. تخيلناه بعد أن يولد وحين يكبر وحين يحبو وحين يمشى وحين يتكلم، عشنا قصة حياته فى الخيال قبل أن يولد.

وزوجى عانى بشدة وشعر أيضا بالذنب وعجز عن تقديم أى مساعدة لى؛ وهذا يعنى حيرته التامة واختلاط مشاعره وقلقه الزائد، ولم يستطع الاقتراب منى لأنه شعر بالأسف وبالغضب، ولم يكن يدرى لماذا هو غاضب ولمن يوجه حنقه، لم يكن يريد أن يسمع من أحد أى تعليق أو مواساة، كان يشعر بالحرج إذا حدثه أحد فى هذا الموضوع.

وزادت معاناتى لعجز زوجى وغضبه وعدم تعاطفه الظاهر معى، لقد كنت هشة ضعيفة وفى غاية الحساسية، تغمرنى مشاعر الفشل وعدم الاكتمال، وضاعف زوجى من هذه الأحاسيس؛ ولذا ابتعدت عنه وشعرت بالعداء ناحيته، لقد كان الإجهاض سببا فى تدهور علاقتى بزوجى، تباعدنا عاطفيا وجسديا.

لقد حزنت من قلبى وظللت ولمدة طويلة أجترئ وأستعيد وأسترجع أحزانى.

لقد كان قرار إنهاء الحمل معناه الموافقة على فصل جزء من نفسى، لقد كنت أتوحد مع جنينى، كان جزءا من نفسى ولحمى ودمائى، لم يكن شيئا منفصلا مزروعا فى أحشائى بل كان بعض أحشائى؛ ولهذا تشبثت به مثلما تتشبث الأرض بنباتها حين نحاول أن ننزعه منها وتزيد مقاومة الأرض كلها، كانت الجذور بالأحشاء، وتغضب الأرض مثلما غضبت أنا، إن تجربة الإجهاض كانت مصحوبة عندى بالغضب والعار والذنب.

وأنا أحتاج لزوجى فى لحظات قوتى وضعفى وفى لحظات سعادتى وحزنى، ولكنى لم أشعر بمثل هذا القدر من الاحتياج مثلما شعرت وأنا أمر بتجربة الإجهاض، كنت أريد أن أشعر بقدر تفهمه وإحساسه بى وتوحده معى. كنت أريده متغلغلا فى أحزانى وشعورى بالذنب والعار، كنت أريده أن يدرك هذه المشاعر الدقيقة الصعبة والتى يستحيل على أحد غيره أن يفهمها، فقط الزوج؛ لأنه قريب وشريك ولأن الأمر يعنيه هو بالدرجة الأولى، كنت أتمنى ألا يستقل بغضبه وحزنه وأساه، كان لابد أن نمتزج بمشاعرنا وآلامنا وأحزاننا.

كم هى صعبة ودقيقة وبعيدة وغريبة وغير مفهومة مشاعر المرأة وخاصة فيما يتعلق بزوجها وأبنائها .

الأسرة قضيتها الزوج والأولاد والبيت والحب والحمل ، ولا أحد يفهمها ويشعر بها إلا من يحبها ويتزوجها ، هنا تطمئن إلى من ستجده بجوارها فى أوقاتها الصعبة ، والإجهاض هو أحد هذه الأوقات .

مرحبا بسن اليأس

أنا إنسانة متفائلة، أحب الحياة، أفيض بالحيوية فى معظم الأوقات، ولذا فأنا أكره كلمة اليأس. اليأس معناه تراجع وهزيمة واستسلام وشعور بالأسى. وسمعت كثيرا عن سن اليأس وخاصة عند المرأة، ولم أكن أصدق. ليس عدلاً أن نَصِفَ مرحلة من العمر باليأس.

وأين إرادة الإنسان فى التغلب على المشاعر السلبية؟. لذا لم أكن أتوقع أنْ أمُرَّ أنا، وأنا بالذات بهذه المرحلة.

.. حين بلغت الخامسة والأربعين بدأت اضطرابات غير متوقعة فى الدورة الشهرية، اضطرابات مفاجئة على غير انتظار فى أوقات غير معلومة، اختلاف الميعاد، نقص الكمية، زيادة الكمية، تطول المدة.. مدة النزيف.. تقصر المدة. تأتى كل ثلاثة أسابيع، أو كل ستة أسابيع. تمتنع شهرين كاملين ثم تنتظم، وعرفت أنه لا تنجو امرأة من اضطرابات الدورة إيذانًا ببدء هذه المرحلة. مرحلة سن اليأس وهذه الاضطرابات قد تستمر عامين أو ثلاثة قبل التوقف النهائى للطمث.

إذن أنا على أعتاب اليأس. وقاومت، لن أشعر باليأس أبدًا، وكنت أستند إلى شيئين هامين، أولهما: ثقتى بنفسى، وثانيهما: حب زوجى

لى وطبعًا حبى له . . ولذا لم يكن يشغلنى على الإطلاق تقدمى فى العمر، ولم يكن يشغلنى التجاعيد التى بدأت تنتشر هنا وهناك؟

ولكن بدأت تواجهنى مشكلة أخرى، وهى تلك السخونة التى تهب على صدرى ووجهى فتحرقنى. شىء كالنار أو كالماء المغلى فجأة بدون مقدمات، وأحيانا يبدأ «الهبو» من أصابع قدمى ويجعل الآخرين يشعرون بى فى هذه اللحظات؛ وأشعر بالخجل ويصاحب ذلك عرق وسرعة فى ضربات القلب، وحالة من الضيق تعتلى صدرى وتذهب الحالة كما جاءت فجأة، وأظل أنتظرها خوفًا ورعبًا وتجىء وتتعاقب.

إذن الأمر جد وليس هزلاً؛ أى أن هناك أعراضًا معروفة وشائعة عن هذه المرحلة ـ اليأس ـ ولكنى قاومت وتحملت، ولن أيأس أبدًا.

ومضى عام لم يحدث فيه تطور كبير فى الحالة إلى أن داهمتنى نوبات مفاجئة من الخوف بدون سبب محدد، وخاصة بعد الاستيقاظ المفاجئ من النوم وباضطراب نومى اضطرابا شديدًا أجد صعوبة فى بداية النوم، أو أستيقظ فجأة فى منتصف النوم، ثم أجد صعوبة فى الاستيقاظ صباحًا وأقوم متثاقلة بدون حماس وتماسكت. ولم أشك ولم ألجأ للحبوب المنومة.

ولكن ما أزعجنى نوبات أخرى من الضيق، بل أقول الشعور العميق بالحزن يستمر ساعات وقليلا ما يستمر عدة أيام، ثم أستعيد حالتى الطبيعية مع قليل من المرح والحماس وأنسى فترات العذاب، ولكن العذاب لا يتركنى؛ فتعاودنى مرة أخرى نوبات الحزن.

وآه من الشعور بالملل وأخطر من الملل الشعور بالوحدة، وحدة من الداخل ليس لها علاقة بالزحام من الخارج.

وحين تتملكنى مشاعر الوحدة؛ أبكى، أشعر بالعجز؛ بالوحدة، وحدة من الداخل ليس لها علاقة بالزحام من الخارج.

وحين تتملكنى مشاعر الوحدة ؛أبكى وأشعر بالعجز وعدم الكفاءة والضياع ويمتد الألم ليشمل معدتى.

ولكن الذى أثار قلقى بل عجزى هو حالات الشك التى بدأت تنتابنى. الشك فى مشاعر الناس وكلامهم وحركاتهم وإيماءاتهم وتجسيم الأمور والتهويل والحساسية الزائدة وردود الفعل الحادة من جانبى وهى ردود فعل حادة وقاسية ومفاجئة وغير متوقعة ولا تتناسب مع حجم الموقف.

ولا أدرى لماذا توجهت بكل شكوكى نحو زوجى، ولا أدرى أيضًا لماذا اعتبرته مسئولاً عن الحالة التى أمُرُّ بها، ولا أدرى أيضًا لماذا أخذت أتذكر كل الأحداث السيئة وخاصة التى كان طرفًا فيها.. وكنت أنتهز الفرصة لأتشاجر معه. ولما كان صبوراً سمحًا محبّا؛ فإن حنقى وغيظى كانا يزدادان. كنت أبحث عن وسائل أخرى لإثارته وإغاظته؛ فمثلاً أقابله بوجه متجهم وأتعمد ألا أرد عليه، أتجاهله. أحيانًا كان يفقد أعصابه؛ فتشتعل النار بيننا وأحيانًا أخرى كان يتمسك بالصبر، لقد أحلت حياته إلى جحيم.

وأخذت أجمع كل الأسباب الممكنة لتكون مبررًا لطلب الطلاق، وحين وصلت إلى هذه المرحلة أدركت أننى على شفا الانتحار.

أصبحت حادة، عنيفة، قاسية، سليطة اللسان، سهلة الاستثارة، عدوانية، لا أرعى مشاعر أحد بل أتعمد الإساءة والجرح؛ فخسرت بعض الصديقات، وابتعدت عنى الزميلات والزملاء، وأصاب زوجى القلق والضيق.

ولكنى لن أنسى له أبدًا أنه كان صبورًا وحليمًا، لا أقول كل الوقت ولكن كثيرًا من الوقت وفى أوقات قليلة جدًّا كان يثور.. ولكنه لم يكن يفهم وأنا أيضًا لم أكن أفهم ولم أكن أعرف، كنت أظن نفسى على حق وكنت أرفض أن أرجع سبب حالتى إلى سن اليأس التى أمر بها، لن أيأس أبدًا وسأقاوم.

وصاحب ذلك نوبات حادة ومتكررة وسريعة التعاقب من الصداع النصفى ألتهم من أجله عشرات المسكنات.

وفقدت رغبتى الجنسية تمامًا.. وصاحب ذلك جفاف المهبل وآلام لا تطاق وقت الجماع. وعمومًا فإن الإحساس العام الذى سيطر علىّ هو اضمحلال قواى الجسدية وانسحاب الطاقة والضعف العام والإحساس بالانتفاخ وثقل الجسم.

كل شىء أصبح صعبًا.. ثقيلا.. مملا.

كيف الخلاص من هذه الحالة؟

خوف . . اكتئاب . . شكوك . . أوهام . . حساسية . . عدوان . . وساوس . . صداع . . انتفاخ . . سوء هضم . . آلام المعدة .

محاولة لا تهدأ وبتصميم لهدم حياتى .

ثم رفض لأى محاولة للتفسير أو التبرير أو ربط هذه الأعراض بسن اليأس .

لماذا المرأة . . ؟ ولماذا فى هذه السن . . ؟ !

ما سر ارتباط الأعراض بفقد القدرة على الإنجاب والإثمار . . ؟ .

أهو اليأس لتراجع الشباب؟ . . وما الشباب؟ هل الشباب هو نضارة الجلد؟ هل الشباب هو الطمث والإنجاب؟ وهل الحياة غير ممكنة بدون أن تكون المرأة شابة؟ هل الحياة مقصورة ومحجوزة فقط للشباب؟ من أنا ومن أكون بعد السبعين؟ وهل إذا كانت الحياة للشباب فقط فلماذا أعيش بعد انقضاء الشباب؟ .

دوامات عصفت بى ؛ آلام الجسد والنفس وحيرة العقل .

ما الحكمة . . ما الفلسفة؟ ما المعنى؟

وإذا كانت هذه المرحلة من مراحل التطور جزءاً من دورة الحياة الطبيعة الناموس ، فلماذا الألم؟ لماذا المعاناة . . ؟ أم أن الألم هو من سمات مراحل التطور والنضج والنمو؟ أم أن الألم قدر مكتوب على الإنسان؟ أم أن الألم هو المعنى ، معنى وراء كل شىء . أم أن أى استقرار لحال لابد أن يسبقه عاصفة؟

ومرت العاصفة وعاد إلىَّ الهدوء والسكينة وانقشع الظلام، ودخلت مرحلة جديدة من العمر وأدركت أننى قوية فيما يتعلق بأمر واحد وهام، وهو أننى رغم معاناتى الهائلة إلا أنه لم يكن يزعجنى قط أننى أتقدم فى العمر. لم تكن قضية العمر تشعلنى. لم يشغلنى قضية التجاعيد، ولم يشغلنى انقطاع الطمث، ولم يشغلنى عدم المقدرة على الإنجاب فى هذه المرحلة. أى أن معاناتى لم تكن لأسباب نفسية، ولكن معاناتى كانت بسبب طبيعة المرحلة من الناحية البيولوجية بسبب انخفاض إفرار هرمونى الإستروجين والبروجيسترون من المبيضين.

بعض النساء تتضاعف لديهن المعاناة فى هذه المرحلة بسبب قلقهن على شبابهن. يزعجهن انقطاع الطمث. ولذا يشعرن بالحسرة والأسى وتنهار تماما الثقة بالنفس.

أما أنا فلا، كنت قوية، قوية فى ثقتى بنفسى وقوية لأننى كنت على ثقة أن الرجل الذى أعيش معه يحبنى لأننى أنا الإنسان أنا الروح، أنا القلب والعقل أنا الأنثى. وأنوثتى بمعنى القدرة على الحب، بمعنى القدرة على الإحساس بدورى المتكامل فى الحياة فى جميع مراحل العمر.

ولذا كان حنان زوجى هو أكبر معين لى لاجتياز هذه المرحلة، وكان صادقا فى حنانه، لم يكن عطفا ولم يكن شفقة ولكن كان حبا حقيقيا، حبا ينمو، حبا بعمق. . كأنه يقول، وكان صادق القول كل

يوم يمر من عمرك أحبك أكثر، وهذا أعطى لحياتنا معنى أجمل، وأعطى لنا فرصة للتمتع فى مثل عمرنا ونضجنا وقدرتنا على الحب.

والغريب أنه بعد انقشاع هذه المرحلة زادت قدرتى على الاستمتاع العاطفى مع زوجى، وزاد إقباله علىّ، بل كان أكثر تلهفا من أى مرحلة سابقة من عمرى ومن عمره، وأصبح لا يطيق أن يبتعد عنى يوما واحدا، وأصبحت لا أطيق أن أبتعد عنه ساعة واحدة، واستمتعنا بآفاق أرحب فى الثقافة والفن. ووجدنا متعا جدية فى الرحلات لم نكن نعيها من قبل. أصبح للأماكن معان مرتبطة بالحضارة والتاريخ والجمال. أصبحت علاقتنا بالناس أكثر دفئا وإشباعا. أصبحنا نهتم فى عملنا بالكيف وليس بالكم، بالإبداع وليس بالتكرار.

الغريب فى الأمر وأقول بصدق ودقة متناهية شعرنا وكأننا ولدنا من جديد، إنه ميلاد جديد لحياة جديدة. مستقبل جديد؛ منتهى التفاؤل. . سرور طاغ، سعادة بالغة. وأصبح لكل دقيقة معنى وهدف. وأصبحت مشاعر وأفكار وإمتاعات وإبداعات كل يوم واحد تساوى سنة مما عشناه من قبل.

إذن كان يجدر بى أن أقول مرحبا بسن اليأس لأعبرها إلى الحياة الجديدة.

شكرا يا زوجى الحبيب. كنت عونى بعد الله ومصدرا لقوتى وثقتى بنفسى.

الرحم.. والثدى

أحيانا أشعر أن زوجى لا يفهمنى، ويلازمنى يقين بأنه لم يوجد بعد الرجل الذى يستطيع أن يفهم المرأة فهما حقيقيّا كاملاً مهما كانت درجة اقترابه منها. ومن أكثر اقترابًا وقربًا من الزوج الحبيب؟!

ويضايقنى عدم إحساس زوجى بمشاعرى الدقيقة وأفترض فيه أن يكون لديه القدرة على الوصول إلى مشاعرى الدقيقة مادام يحبنى، وأثور وأشعر بالغضب، وأنهال عليه بالاتهامات.. وذلك لأنى أحتاج إليه فى أوقات صعبة جدًا. لا أستطيع أن أتحدث مع أمى أو صديقتى بل هو وحده فقط، وأفاجأ بأنه لا يدرك بدقة حساسية وصعوبة وتعقيد ما أشعر به.

وأحتاج أن أشرح له. ولكن كان يسعدنى أكثر لو أنه فهمنى وأحس بى دون أن أدعوه لذلك. إن المرأة تحب مبادءات الرجل وشجاعته وذكاءه وجرأته وحسمه وحزمه. إن المرأة تحب الرجل الذى يفهمها ويشعر بها، الرجل الذى لديه حساسية خاصة تجاه صعوباتها ومشاكلها وآلامها وطريقة تفكيرها. إن المرأة تحب الرجل الذى يفهمها ويشعر بها، الرجل الذى لديه حساسية خاصة تجاه صعوباتها

ومشاكلها وآلامها وطريقة تفكيرها . إن المرأة تحب الرجل الذى يحبها من بعد أن تحبه .

ومشوار العمر يزيد الاقتراب والتفاهم والفهم الأعمق ، ولكن رغم ذلك أشعر بأن زوجى لا يستطيع أن يضع يده على الأماكن الدفيئة الحساسة داخلى ، المتعلقة بى كأنثى بشكل عام والمتعلقة بشخصى أنا ، ولذا أجده حائراً فى الأزمات الصعبة التى أمر بها .

ولقد مررت بأزمتين خطيرتين كادتا أن تطيحا بعقلى ، واحتجت فيهما بشدة لمساعدة زوجى واقترابه وفهمه وذكائه وحبه ومودته ورحمته وإنسانيته .

فى مرة أصابنى نزيف حاد مصدره الرحم ، وتصورت أن الطبيب سيأمر بإزالة رحمى .

فى مرة أخرى ظهر ورم فى ثديى ، وتصورت أن الطبيب سيأمر بإزالة صدرى .

كم هى صعبة وحرجة هذه المواقف فى حياة المرأة . موقفها الأنثوى العام ، وأيضا موقفها بالنسبة لزوجها وعلاقاتها به .

خفت وارتعبت وجزعت وتألمت وحزنت وأرقت ، وكنت فى أشد الحاجة لأن يفهم أحد كيف أشعر ، كيف أفكر ، كيف أرى الأمور ؛ وذلك ليفهم كل سلوك سيصدر عنى خطأ أم صوابا ، طائشا أم مندفعًا أم متأنيًا ، أهوج أم مدروسًا ؟ فى هذه الأحوال تحتاج المرأة إلى عقل زوجها ليحتويها وإلى قلبه ليتسلمها وإلى حضنه ليضمها وإلى يده

لتربت عليها. تحتاج إلى قوته وثقته وطمأنينته. تحتاج إلى رؤيته الشاملة ونظرته المستقبلية، تحتاج إلى الإحساس الكامل بحبه.

وأنا مضطرة أن أشرح لزوجى وأشرح لكل رجل موقف المرأة من رحمها ومن ثديها. حتى إذا أصاب أحدهما مكروه استدعى جراحة إزالة يستطيع أن يفهم ويستطيع أن يعالج. الجراح مسئول عن المعالجة الطبية، أما الزوج فمسئول عن المعالجة النفسية

كيان المرأة إحساسها بذاتها كامرأة، إدراكها لأنوثتها وكذلك ثقتها بنفسها، كل ذلك يرتبط بصورتها المرسومة فى عقلها عن جسدها. . تصورها عن كل جزء من جسمها، مدى مساهمة كل جزء فى إبراز جمالها وأنوثتها وجاذبيتها وقبول الرجل وميله إليها. . «شعرها - أنفها - شفتاها - عيناها - وجنتاها - ثدياها - أظافرها - بشرتها - أذناها».

والمرأة منذ مرحلة مبكرة جدًا من عمرها تحفظ شكل وحجم وموقع كل جزء من جسمها وعلاقته بالأجزاء الأخرى. تعى كل التفاصيل بدقة وتستطيع وهى مغمضة العينين أن تسترجع كل جزء بوضوح كامل.

وعلاقة المرأة بالمرآة علاقة خاصة جدًا، وكذلك علاقتها بعيون الناس. فهى ترى نفسها فى المرآة أكثر من مرة كل يوم وكلما أتيحت لها الفرصة، بهدف وأحيانًا بدون هدف. وعيون الناس مرآة أخرى، مرآة حية ناطقة تعطيها رد الفعل الفورى ومدى تأثير جمالها وجاذبيتها.

وهنا يتضح الاختلاف الجوهرى بين المرأة والرجل فى العلاقة مع المرآة والعلاقة مع عيون الآخرين ، والمرأة تتعرض لاختبار جديد مع كل عيون جديدة تقع عليها . أو هى تريد أن تمتحن قدراتها ، تريد أن تدرك ذاتها ، تريد أن تكتسب ثقة أزيد بالنفس .

ولكن الأمر يتوقف أيضًا على كيف تشعر هى داخل نفسها؟ إذا شعرت بأنها فى حالة طيبة ؛ فإنها سوف تبدو جذابة للآخرين ، وإذا شعرت بأنها فعلا جذابة ؛ فإن ذلك سوف ينعكس على حالتها المعنوية فتشعر أنها فى حالة طيبة .

إذن هى حلقة متصلة تبدأ من تصورها عن نفسها وحالتها المعنوية ثم عيون الناس التى تعكس لها جاذبيتها . فتشعر أنها جذابة فعلا وبذلك ترتفع روحها المعنوية وهكذا .

إن الأمر لا يتعلق فقط بمظهرها الخارجى إنما يتعلق أيضا برضاها عن نفسها وإحساسها بذاتها وتصورها عن جسدها . إن صورة الجسد تكون مطبوعة فى الداخل ، فهناك صورة تراها فى المرآة وصورة أخرى تراها فى الداخل .

والحقيقة أن صورة الخارج التى تعكسها المرآة تؤثر على الحالة المعنوية ، ولكن صورة الداخل هى التى تحدد الإحساس الحقيقى بالذات ، فالمرأة قد تكون جميلة ولكنها تشعر داخلها أنها دميمة غير مقبولة ومرفوضة ، سترفض نفسها ، ستكره نفسها ، الثقة بنفسها ، هكذا هى صورتها المرسومة داخلها عن نفسها .

وقد يكون الشكل الخارجى قليل الجمال ولكنها رسمت فى داخلها صورة جميلة عن نفسها، صورة جذابة، صورة تنطق دائمًا بالحيوية، وتلك إحدى سمات الشخصية الناضجة إذ تتجاهل التفاصيل غير الجميلة فى مظهرها، وتكون الصورة الكلية المرسومة داخلها صورة جميلة وشائقة وجذابة، ويصاحب ذلك حالة معنوية مرتفعة تنعكس على سلوكها تجاه الآخرين والذى يتميز بالثقة بالنفس.

والقصة تبدأ منذ وقت بعيد فى الطفولة من خلال عيون الأم وإعجابها وقبولها وتقبلها ومديحها، أول عيون نرى فيها أنفسنا هى عيون الأم؛ انعكاساتها نراها على سطح عيون الأم. هى المرآة الأولى فى حياتنا قبل أن نعى صورة المرآة وأهميتها.

إن أول مرآة نتطلع إليها هى عيون الأم، ابتسامة الأم تعنى سعادها بنا. ضحكاتها معناها جاذبيتنا. كلمات المديح وعلامات الرضا على وجهها هى الأعمدة الأساسية للثقة بالنفس. إن الأم تلعب أخطر الأدوار فى إحساس الإنسان بذاته، بكيانه المادى والمعنوى.. لا تثق بنفسها لأن أمها زرعت فى داخلها هذه الأحاسيس المريرة، لأنها رأت نفسها دميمة فى عيون أمها، لأن الأم امتدحت جمال الأخت الأكبر أو الأصغر منها، لأن أمها كانت دائمة النقد لها.

وبعد ذلك تأتى عيون الأب. فإذا أعطانا الأب اهتماما فمعناه أننا مهمون وأن لنا حضوراً ووجوداً وأن لنا قيمة، وإذا انشغل الأب بطفل آخر فإنه يقضى علينا، وإذا انشغل الأب بامرأة أخرى غير الأم يهدم كل مشاعر الثقة.

وبعد ذلك تأتى الدائرة الأوسع، الأقارب والجيران والأصدقاء الزملاء فى المدرسة والمدرسات ثم الناس فى الشارع. كيف ينظر الناس إلينا؟ كيف يتعاملون معنا؟ نظرات الإعجاب والاندهاش نظرات القبول والاستحسان كلمات المديح والإطراء.

هكذا تتشكل الصورة الداخلية عن الذات جسدًا ونفسًا.

إن المرأة تحتاج فى كل لحظة من حياتها أن تشعر أنها امرأة، أنها أنثى. والأشياء التى تؤثر على شكل المرأة ومظهرها وتضعف من أنوثتها يكون لها أثر سيئ على نفسيتها وتمثل إجهادًا وضغطًا شديدين.

والمراهقات وصغيرات السن ينشغلن إلى درجة كبيرة بالأمور المتعلقة بالشكل والمظهر والجمال. وقد يظل هذا الاهتمام حتى بعد تخطى سن الشباب، تظل المرأة طوال حياتها منشغلة بمظهرها وملبسها ومدى تأثيرها على الآخرين وخاصة الرجال، وتلك هى النوعية من النساء التى تعانى بشدة بعد ذلك حين تبدأ مظاهر تقدم العمر على الوجه والشعر والجسم.

ولكن عمومًا؛ فإن المرأة حين تصل إلى مرحلة النضج؛ فإنها تقبل بعض النقائص فى شكلها مثل حجم الأنف أو شكل الأذن أو لون البشرة أو قصر القامة أو البدانة إلى آخر تلك العيوب الشكلية، كى تقبل التغيرات التى تحدث بفعل الزمن. تقبلها المرأة الناضجة بل وقد تعتبر أن ذلك ما يميزها وتشعر أن شخصيتها وجاذبيتها وقدرتها على الحب تعوضها عن كل نقائصها الشكلية. ثمة إحساس داخلى وعميق بالتمكن الأنثوى والقدرة على التأثير من خلال الذكاء، ومن خلال

الإحساس ومن خلال عاطفة حب لا تستطيع أن تمنحها إلا أنثى حقيقية، إنها تركيبة عقلية نفسية تضفى شكلا خاصًا على الأنثى فتبدو رائعة الجمال.

ولهذا فهناك امرأة متواضعة جدًا فى جمالها ولكنها تفيض أنوثة وجاذبية وثقة بالنفس وامرأة أخرى توافرت لها كل مقومات الجمال ولكنها تفتقد لأى جاذبية أنثوية؛ فالأنوثة هى إحساس المرأة بذاتها من خلال الرجل، من خلال علاقة وعطاء، إنها إحساس يقينى بالانتماء إلى جنس معين والقدرة على التواصل والارتباط بالجنس الآخر. إنه تقبل للدور الأنثوى وأداء لهذا الدور عن اقتناع ورضا. إن الأنوثة إحساس داخلى نفيض بمظاهره على الشكل الخارجى.

* * *

ثم ظهرت مشكلة رحمى وتصورت أن الجراح سيأمر بانتزاعه منى، ورغم وجوده فى غياهب البطن وعدم دنوه وانعدام تأثيره، إلا أنه هو عمود الإحساس بالأنوثة ومركز الحياة ومبعث الفخر ومحور كيان المرأة، تزدهى به وهو غير ظاهر وتشعر به وهو غير محسوس. ويكفيها أنه بداخلها حتى وإن فقد قدرته على العمل، حتى وإن أصبح عضوًا عاطلاً زائدًا على الحاجة، أى انعدام دوره الفسيولوجى، ولكن يظل دوره المعنوى حتى آخر يوم فى عمر المرأة، إنه يساهم بشكل أساسى ورئيسى فى بناء صورة المرأة عن نفسها وإحساسها بذاتها وإدراكها لكيانها، ومثلما لا يمكن أن نتخيل صورة الإنسان بلا رأس لا يمكن أن نتخيل صورة أنثى بلا رحم.

ولذا فهى صدمة قاسية حين ينهى الطبيب إلى المرأة قراره بضرورة إزالة الرحم، إنه مثلما نخبر إنسانًا بضرورة إزالة رأسه. أى إعدامه وإنهاء حياته.

إن قرار إزالة الرحم هو قرار بإعدام الأنوثة، تتلقاه المرأة بفزع وتنهار فى داخلها دون أن يلحظ أحد، وتشعر بالأسى على فقد أعز ما تملك. تحزن وتأرق وتفقد شهيتها للطعام وتفقد شهيتها للحياة. تمر المرأة بفترة عصيبة بعد تلقيها القرار الطبى الحاسم، وتنطوى على نفسها وعلى أفكارها القائمة، وتعيش أيامًا وشهورًا وهى مترددة، وتتنازعها رغبات متعارضة، ويشتد الصراع إذا كان بقاؤه يهدد حياتها تهديدا فعليًا باستمرار النزيف وإنهاك قواها، أو لوجود ورم خبيث أو حتى ورم حميد ولكنه مصدر دماء لا تتوقف، إنه من أصعب القرارات التى تتخذها المرأة فى حياتها.

وكل امرأة تتصور أن الرحم هو عضو جنسى، فهو امتداد لأعضائها التناسلية، وبالتالى تتصور أن له دورًا فى العلاقة الجنسية، وبالرغم من عدم صحة هذا إلا أنها ترفض التخلى عن هذا التصور، وتعتقد أنها ستصبح منقوصة جنسيا بإزالة الرحم، وأن الرجل سوف يستشعر هذا النقص مما يؤثر على درجة إقباله عليها وانجذابه لها.

وكثير من النساء تتأثر مشاعرهن الجنسية بعد إزالة الرحم بسبب هذا التصور الخاطئ، وقد يتأثر الرجل أيضا تحت وهم هذا الاعتقاد الخاطئ أو بسبب اضطرابات المرأة ذاتها.

وقد تضطرب الزوجية اضطرابًا شديدًا بعد إزالة الرحم. ليس بسبب عدم إقبال الزوج، ولكن بسبب الاضطراب الشديد الذى يصيب المرأة والذى يجعلها أقل ثقة بالنفس، وبالتالى أكثر عصبية وحدة واندفاعا وأكثر شكا، وتحتاج إلى تأكيدات أكثر من زوجها بقبولها والإقبال عليها

كما أن إزالة المبيضين مع الرحم يؤدى إلى ظهور أعراض سن اليأس، والتى تتسم بالحساسية الشديدة والعصبية والشعور باليأس والضيق، وكذلك الاندفاع والحدة والشك وسوء الظن بالإضافة إلى الأعراض الجسمانية المؤلمة.

هذه هى المشاعر الدقيقة والمفاهيم الخاصة المتعلقة بالرحم، والتى يجب على الرجل أن يتفهمها، وبالتالى يدرك كيف تشعر المرأة إذا كان لزاما أن يزال رحمها، ومَنْ غيره يستطيع أن يساعدها فى مثل هذه الظروف؟ مَنْ غير الزوج الذى عاشر وعايش امرأته وفهم دقائق نفسها وأحوالها وتقلباتها ومزاجها؟ مَنْ غير الزوج الذى أحبها وأدرك أن أنوثتها فى عقلها وليس فى جسدها؟ مَنْ غير الزوج الذى يتضاعف انجذابه لزوجته بمرور الأيام فتتعلق روحه بروحها وتصبح هى المصدر الوحيد لإحساسه بكل شىء.

الجَرّاحُ يزيل الرحم والزوج يعيد الطمأنينة والثقة.



ونفس القدر من الانزعاج شعرت به حين ظهر ورم فى ثديى وتصورت أن الجراح سيقرر إزالته.

الثدى لدى المرأة حمل بمعان مشابهة للرحم؛ ولذا فهو يحتل مكانة بارزة لدى المرأة ولدى تصورها عن نفسها كأنثى وكيان قادر على الحب. الثدى يرتبط بالجمال والأنوثة والجاذبية والحب والجنس ويلعب دوراً فى العلاقة بالرجل، فهو محمل ببعض الأعصاب الحسية التى تشكل جزءاً من الأحاسيس الجنسية عند المرأة.

قرار إزالته يسبب صدمة قاسية بالنسبة لأى امرأة، وقرار الإزالة قد يكون حاسماً وقاطعا يحمل معنى الأمر أكثر من مجرد النصيحة الطبية ولا يعطى فرصة للتردد أوالتراجع. وتجد المرأة نفسها فى خلال يومين أو ثلاثة وقد أزيل أحد ثدييها تماماً.

تفاجأ المرأة بهذا البتر المفاجىء، وتشعر بأحزان الفقد، وتهتز من داخلها اهتزازاً عنيفًا، وتأسى على ثديها وعلى أنوثتها الضائعة وجاذبيتها التى فقدتها. تنهار ثقتها بنفسها تماما إنها حالة من الألم التى تؤثر على مزاج المرأة واستمتاعها بحياتها واستجابتها العاطفية والجنسية، وخاصة إذا لم يتفهم الزوج حساسيتها الشديدة فى هذه المرحلة.

إن البتر الحقيقى يكون فى صورة المرأة الداخلية، والتى تغذى إحساسها بأنوتتها وثقتها بنفسها وتحدد إقبالها على الرجل واستجابتها لإقباله. قد تعتاد العين البتر الخارجى، ولكن العين الداخلية تظل قلقة حائرة ضائعة لا تغمض ولا تعتاد، وهذا هو ما أردت أن يعرفه الرجل، كل رجل. قد يكون الرجل عطوفًا وحنونًا وشغوفًا بحب زوجته وانجذابه لها وتلهفه وإقباله عليها متناسيًا ومتجاهلاً ثديها الذى

أزيل أو رحمها الذى رفع عنها . وهذا يساعد المرأة أن تتناسى . سوف تعتاد عينها الداخلية على هذا البتر ، ولكن الذى يجب أن يفهمه الرجل أن العين الداخلية ستظل ترى البتر .

إن ثمة اهتزازاً كبيراً سيصيب تصور المرأة عن ذاتها . إن المشكلة فى الصورة الداخلية وليست الصورة الخارجية . وهذا هو السبب فى صعوبة الموقف وصعوبة معالجته .

إن الأمر يحتاج إلى وقت وفهم وحب .

زميلتى.. رجل أعمال

لم أندهش كثيرًا وأنا أطالع صورتها فى الصحف بمناسبة زواجها الرابع من رجل أعمال معروف. أقول لم أندهش لأنه عرف عنها حبها الشديد للرجال ونحن لم نزل فى المدرسة الثانوية. لم تكن على حظ كبير من الجمال لكنها كانت شديدة الجاذبية واللباقة والذكاء، واشتهرت بتعدد علاقاتها مع الشباب وتعرضت لمشاكل متعددة، ولكنها لم ترتدع، ولعل ذلك بسبب التفكك الأسرى الذى عاشت فى ظله. ترافقنا جميع سنوات الدراسة ولكننا لم نكن نتبادل كلمة، رغم محاولاتها للاقتراب منى بالرغم من أننا كنا على طرفى نقيض.

افترقنا ولم ترد على خاطرى قط لسنوات طويلة، وفجأة أصبحت نجمة من نجوم المجتمع يتردد اسمها وتنشر أخبارها فى الصحف كسيدة أعمال معروفة فى دوائر المال و«البيزنيس».

وتخرج ابنى مع عشرات الآلاف مثله فى كلية نظرية، لينتظر خريجوها ما لا يقل عن سبع سنوات حتى يتم إلحاقهم بعمل، ولما كان زوجى رجلا بسيطا محدود العلاقات ليس له نفوذ؛ فقد كان علينا أن ننتظر الفرصة المستحيلة لكى يعمل ابنى.

وفجأة وبلا مقدمات لمع فى عقلى خاطر أن أتصل بزميلتى سيدة الأعمال، ولم أنتظر طويلا على التليفون، وجاءنى صوتها بلا اندهاش ولكن بترحيب وبلهجة غير آمرة، ولكنها شديدة الوثوق أنها ستتلقى استجابة إيجابية، طلبت منى الحضور إلى مكتبها.

المكتب فخم وهى شديدة الأناقة والجاذبية لا تبدو عليها التغيرات المتوقعة فى سن الخامسة والأربعين. أبدو جانبها وكأنى أمها. رحبت بى بحرارة فى ثوان عادت بعدها للتليفون فى حديث هامس أغلبه على الخط الآخر فانتهت المكالمة، وانشغلت بالأخرى؛ لكن انقلبت صورتها وتحولت إلى وحش غاضب تسب بأسوأ الألفاظ، وجاء التليفون الثالث؛ فبدت كسيدة أعمال حقيقية تعطى أوامر حازمة قاطعة ولا تنتظر استجابة من الطرف الآخر؛ مهارة، خبرة، ذكاء، ثقة.

ثم تطلعت إلىّ لتقول شيئًا، وإذا برجل فى الخمسين أو يزيد شديد الأناقة شديد الثراء فى كل شىء يقتحم المكتب ويكون هو زوجها. نسيت أن تقدمنى إليه ولكنه صافحنى ونظر إلىّ نظرة أزعجتنى وكأنه يجرنى من ملابسى، ولم تأبه هى بإطالته النظر إلىّ وإبقائه يدى فى يده أطول من المعتاد، وتناول منها مظروفا وخرج.

وجاء تليفون رابع وخامس، ثم دخل بدون استئذان أيضًا شاب صغير وسيم لا يتجاوز عمره الخامسة والعشرين. وتهلل وجهها واتسعت عيناها كأنها تفتح ذراعيها، وتهادى هو ناحية مكتبها ومال عليه بنصفه الأعلى وتبادل نظرة ذات معنى، ولكنها لم تنس أن تقدمنى إليه، وتجاهلت أن تقدمه لى، ولكن صوتها وعينيها

وابتسامتها كانت توحى من هو بالنسبة لها، وصحبته إلى باب المكتب وتهامسا طويلا، ثم عادت مرحة تتدفق حياة.

ثم طلبت استدعاء شخص معين من موظفيها إلى مكتبها رددت اسمه حتى شعرت وكأن صدمة كهربائية صعقتنى، لقد كان وربما لا يزال الأسماء الهامة في مجتمعنا، كان يشغل وربما لا يزال منصبًا خطيراً وصعبًا وسياديًا، دخل ضعيفًا طائعًا، فتحدثت معه دون مواربة أو تحسب لوجودى عن موضوع محجم الرشوة التى كان يجب عليه أن يقدمها لشخصية معروفة.

ثم دخل المكتب فريق آخر من موظفيها شابان صغيران وفتاة، ولكن يبدو أن لهم دلالا عليها، تربطهم بها علاقة تفوق علاقة الموظف. ثم طلبت من أحد الشابين أن يطلعها على آخر نكتة. . فحكى نكتة جنسية جعلتنى أشعر بالدوار. . وضحكت زميلتى فدوى صوتها فى أذنى مضاعفًا عشرات المرات فى ترددات سريعة كصدى منبعث من ممر مظلم سحيق، وإذا بها بعد ذلك تعلق على نكتته بنكتة جنسية أخرى أكثر فظاعة، وأحسست بآلام حادة تمزق أمعائى، وخرجت بعض العصارة من فمى نتيجة لغثيان قاتل اجتاحنى، وقمت أتخبط لأخرج من هذا المكان ولم تدر زميلتى أننى غادرته.

مذكرات امرأة عاملة

زوجى متيسر الحال، ولكنى خضت تجربة العمل لأحقق ذاتى.

بعد أن عملت حاولت أن أفهم معنى «تحقيق الذات» فلم أفهم.

العمل قسمان: إنتاج وخدمات. لابد أن يتقن حرفة حقيقية، ومن يعمل بالخدمات لابد أن يستفيد الناس منه استفادة، وتقضى مصالحهم.

من ينزل سوق العمل لابد أن يكون لديه ما يقدمه فعلا.

إنى أتساءل هل هناك عمل من أجل العمل!!.

العمل أكسبنى خبرة فهم الناس ولكن بعد أن دفعت الثمن من أعصابى.

تأكد لى أنه لا يمكن لامرأة أن تنزل إلى العمل بدون مشاكل إلا إذا وافق زوجها على أن تعمل، ليس موافقة ظاهرية أو على مضض إنما يكون مقتنعا بأهمية وضرورة عملها.

يتأثر عملى كثيراً بهموم بيتى، إذا ذهبت إلى عملى وأنا قلقة أو مهمومة أو غاضبة ينعكس ذلك على أدائى فى العمل.

إذا احتاجنى البيت بإلحاح كأن يمرض ابنى مثلا ، فإننى أتحايل بكل الطرق من أجل الإجازات .

لا يستفيد منى العمل شيئا فى أسبوع ما قبل الدورة الشهرية .

المنافسة غير الشريفة، مقالب، ألعاب بهلوانية . الكفاءة وحدها لا تكفى لابد من التملق، مهارات معينة مطلوبة . أعود إلى بيتى مستهلكة نفسيّا .

مادامت المرأة تعمل خارج البيت فلماذا تظل مسئولة عن شئون البيت؟ لا بد أن يشاركها الرجل فى نصف أعمال البيت .

أصابنى الاكتئاب شهراً وانتقلت العدوى إلى زوجى وأبنائى؛ بعد أن نلت فى التقرير السرى درجة مقبول .

اختلفت مع زوجى لعدم تعاونه معى فى شئون البيت . أقصد النظافة والمطبخ . غضبت وذهبت إلى بيت أسرتى : أمى وأبى العجوزين . وجدت نفسى مضطرة أن أعاون أمى فى أعمال المنزل والنظافة والمطبخ، بينما كان أبى وهو على المعاش يقضى وقته على القهوة . منتهى الظلم . ولكن أمى لم تكن تشعر بهذا الظلم .

ابنتى رسبت فى الإعدادية؛ اتهمنى زوجى بالتقصير لأنى أم غير متفرغة .

ابنى فى الثانوية العامة يدخن الحشيش؛ اتهمنى زوجى بالتقصير لأنى أم غير متفرغة .

إذن ما هى حدود مسئوليات زوجى فى التربية؟

حين أعود من عملى ظهراً لا أستطيع أن أنطق كلمة واحدة، مستهلكة مستنفدة تمامًا، أدخل المطبخ فى صمت وأتناول معهم الغذاء بصمت.

كيف نطلب من أم كلثوم كامرأة أن تهتم بشئون النظافة والمطبخ؟

أشعر أن زوجى يكون فى قمة غيظه وحنقه وأنا أتزين للخروج للعمل صباحًا. هل يريدنى أن أذهب بدون زينة؟

أزعجنى أن بعض الزملاء والزميلات لا يعرفون أن هناك حدوداً قاطعة بين الزمالة والصداقة والعلاقات الخاصة.

ابنتى بعد أن تزوجت وأنجبت تريدنى أن أستقيل من عملى لأتفرغ لرعاية طفلها فى أثناء وجودها فى عملها؛ نصحتها بحضانة تقوم عليها سيدات ماهرات أو «دادة» مثقفة.

ابنى يشترط لزواجه فتاة لا تعمل.

ابنتى الصغرى اشترطت لزواجها رجلا «مقتدراً» يجعلها لا تضطر للعمل لكى تتفرغ لبيتها.

كيف نطلب من زعيمة أن تتفرغ لزوج وأطفال ونظافة ومطبخ؟

لا أدرى لماذا لم يجعل عملى منى زعيمة..؟

زوجى رجل «شيك» لا يطلب منى أن أساهم بمرتبى فى البيت أنا أحتفظ بكل مرتبى لنفسى.

لا أدرى لماذا يصرون أن تبقى المرأة فى البيت لتستقبل زوجها بابتسامة بعد يوم عمل مجهد، ومن يستقبلنى أنا حين أعود من عملى؟!

يقولون إن الزواج مسئولية وأدوار. . وأنا أتساءل من الذى حدد هذه الأدوار. . ؟

إذا ارتفع المستوى الاقتصادى لكل الناس وتعلمت كل الفتيات فمن تلك التى ترضى أن تعمل خادمة فى منزل سيدة أعمال. . ؟

لماذا يفضل الناس لوظائف معينة امرأة كالمربية والخادمة؟ لماذا لا نستخدم رجالاً فى مثل هذه الوظائف؟ إن ما يغيظنى أن المرأة هى التى تستخدم فى وظائف تربية الأطفال والنظافة والمطبخ. . افعلن شيئًا أيتها الزعيمات حرصًا على مكانة المرأة.

ملحوظة: صاحبة هذه المذكرات سيدة استقالت من عملها بإرادتها.

أصداء من روح زوجة صالحة

قال لى زوجى

زينتك الحقيقية الفضيلة ، إنها ترجح كفتك أمام رصيد العالم كله من الذهب .

زوجى وأمه

حين أدركت كم يحب هذا الرجل أمه ، سلمت له نفسى بالكامل وحتى آخر العمر .

صديق زوجى

فهمت مغزى نظرات صديق زوجى ، واستطعت بسهولة لا تصدق أن أبتره من حياتنا دون أن أجرح مشاعر زوجى .

نار الغيرة

رغم موضوعيتى ورجاحة عقلى فإننى لا أستطيع أن أمنع نار الغيرة من اجتياح كل كيانى حين ينظر زوجى إلى امرأة أخرى .

فساتينى

كل فساتينى أشتريها من أجله فقط

عطرى

أستخدم نوعًا واحدًا من العطور منذ تعرفت بزوجى وحتى اليوم، نصحتنى أمى بعدم تغيير اللقاء الأول.

حينما يكتمل القمر

أتفاءل باكتمال القمر. تربطنى به علاقة خاصة، انضم زوجى إلينا فأصبحنا ثلاثة أنا وزوجى والقمر، رأى رؤيا العين كثيرًا من مناجاتنا.

أغانى زمان

ما من أغنية من أغانى زمان إلا وارتبطت بقصة حبنا، كنا ومازلنا نغوص معًا فى بحر النغم.

فنجان القهوة

من أكثر الأشياء التى أستمتع بها فى حياتى وكأنى فى الجنة فنجان القهوة مع زوجى وقت العصارى.

الورد جميل

الورد جميل والحب أجمل وزواج المحبين أجمل وأجمل. ثمة علاقة عضوية بين الورد والحب.

حين أرقد

حين أرقد فى الليل بجوار زوجى ويقترب منى تصل أنفاسى إلى أقصى درجات هدوئها رغم بركان الحب داخلى .

لا أرى رجالاً

قد لا يصدقنى أحد حين أقول إننى لم أعد أرى رجالاً منذ أن أحببت زوجى وتزوجته .

الإمامة

حين يؤمنى زوجى أنا وأولادى فى الصلاة أشعر بنعيم الحياة وحلاوتها .

حكمة زوجى

نصحنى زوجى ألا أضيع وقتى فى محاولة إصلاح امرأة منحرفة ، وقال لى : إن خير وسيلة للتعامل مع امرأة منحرفة هو تجاهل انحرافها ، ولكنى قلت له إن الله غفور رحيم .

تربية طفل واحد

إن تربية طفل واحد وتنشئته ليكون رجلاً صالحًا ومثقفًا أصعب من إدارة مدرسة بها ألف طفل .

سيد عبد الجواد

بعض الزوجات يشكون من ضعف شخصية أزواجهن. فى قرارة أنفسهن يتمنين رجلاً مثل سيد عبد الجواد.

أمينة

بعض الزوجات يحسدن أمينة لقد كان سيد عبد الجواد يحبها ويحترمها .

زوج ضعيف الشخصية

لا يوجد زوج ضعيف الشخصية ، وإنما توجد زوجة قوية جداً ؛ إنه خلل فى النظام .

الكعبة

حين زرت الكعبة لأول مرة دعوت لزوجى وأبنائى ثم أمى ثم أبى ثم لنفسى .

الاستثناء

طباع البشر جلبت على القيم السامية ، الاستثناء هو الانحراف .

رجل واحد

المرأة خلقت لرجل واحد .

مدعاة العشق

أكبر مدعاة لعشق الرجل هو أخلاقه .

امرأة فاضلة

المرأة الفاضلة لا يتزوجها إلا رجل فاضل .

السيدة خديجة

مثلى الأعلى فى النساء السيدة خديجة رضى الله عنها ، ثم أمى .

أخلاق الرسل

بعض الرجال لديهم بعض أخلاق الرسل بفضل أمهات صالحات . بعض الرجال من الممكن أن تكون لهم بعض أخلاق الرسل بفضل جهود صالحات محبات .

التفوق

لم أشعر فى يوم من الأيام ولو لمرة واحدة أننى متفوقة على زوجى فى أى شىء .

خضوع الزوجة

سألتنى ابنتى عن معنى طاعة الزوجة لزوجها، وتساءلت فى شبه غضب: لماذا تخضع الزوجة لزوجها. أليس فى ذلك إهدار لكرامتها؟! وإذا تم الخضوع فأين الديمقراطية التى هى أساس أى علاقة إنسانية صحيحة.؟!

فى الزواج من رجل صعب محب صادق شريف وأمين ومخلص وكريم وشجاع تسلم الزوجة نفسها، تسلم حريتها تخضع بإرادتها بلا تحفظ، تعطى نفسها بالكامل. تخضع بلا شعور بالهزيمة بلا إخبار، وتلك هى الحرية الحقيقية فى أعظم صورها وهى أن تخضع الزوجة بإرادتها طوعا، ليس خضوع المهزوم لكنه خضوع القوى الشجاع المؤمن.. المؤمن بالحب والزواج المؤمن بنفسه المؤمن بالطرف الآخر.

ويحين تسلم المرأة حريتها، فإن الرجل يحتوى هذه الحرية ويكون مسئولا عنها، وهى مسئولية ضخمة ورهيبة، مسئولية تحتاج إلى نضج وتوازن نفسى وقوة وإيمان وشجاعة. احتواء هذه الحرية يحتاج إلى شجاعة واقتدار. فهو ليس غازيا منتصرا والزوجة خاضعة مهزومة، بل الزوجة الخاضعة شجاعة وقوية ومؤمنة؛ لأنها محبة،

ولأنها تثق بأنوثتها، ولأنها تؤمن بدورها فى الحياة، والأمر يتطلب من الزوج أن يكون أكثر قوة وأكثر شجاعة وأعمق إيمانا؛ حتى لا يرى الأمر من منظور الانتصار والهزيمة، فالزوجة لم تخضع له لسبب قدرته الغازية أو بسبب ميزاته الشخصية، وإنما هى قد خضعت واستسلمت له وأعطت له كل شىء؛ لأنها أحبته، أحبته كله، أحبته كما هو، أحبته بعيوبه ونقائضه وضعفه، لكنها رأت نوره الداخلى رأت تساميه وشجاعته وقوة إيمانه. أدركت مثاليته الكامنة فى أعماق نفسه والمتاحة فى الزمان المستقبل. أحبته رغم اختلاف الناس عليه وارتضته زوجا. وحين تزوجته سلمت له حريتها لأنها لحظة حاسمة أو منعطف هام فى بداية علاقة الزواج، لحظة أو منعطف الصدق.

وهى متعة كبرى متعة التسليم، إنها أروع أحاسيس الزواج، إنه الإخلاص كله والانتماء، ذلك هو جوهر الإخلاص أو ذلك هو فعل الإخلاص، ذلك الفعل المتعمد ولا يمكن أن يكون هناك غير الإخلاص. وكيف لا تخلص الزوجة وقد اختارت طوعًا وبإرادتها أن تسلم حريتها لإنسان آخر وأن تخضع له.

والخضوع لا يمكن أن يحدث على أى مستوى آخر من العلاقات الإنسانية. يحدث هذا فقط فى الزواج القائم على الحب الحقيقى. أى لابد أن يكون حقيقيا؛ لأنه فى الحب الزائف يسعى الإنسان للامتلاك والسيطرة والقهر. بالحب الزائف والزواج الهش هناك صراع وأنانية، أما الحب الحقيقى والزواج الحق فهو تسليم وأمان وسلام وثقة لأن هناك صدقا.

والخضوع قد يبدو غير ديمقراطى ولا يمكن أن يحقق معانى الاستقلالية والتفرد والتميز والوعى الكامل والإرادة المطلقة. كيف يكون الإنسان حرا وفى نفس الوقت خاضعا؟.

ذلك هو الأمر الغريب المحير فى الزواج، ذلك هو سر الزواج ومعناه، وتلك القدسية، وهذا هو مصدر السعادة القصوى والمتعة الروحية التى هى بلا حدود، وذلك هو الشعور بالأمان والطمأنينة.

فالزوجة لا تسلم نفسها إلا لزوج تثق به ولا تثق إلا لمن يكون صادقا. وهى حين تسلم نفسها تعلم تماما أنها تقدم نفسها هدية لمن يستحق، وهى هدية غالية جدًا، وهى تعلم أنها حين تقدم هذه الهدية فإن الزوج سوف يقدرها حق قدرها، بل سوف يفصح أنه لا يستحق هذه الهدية العظيمة وأنه ليس أهلا لها.

هنا تشعر الزوجة أنها قد قدمت الهدية فعلا لمن يستحق. الزوج سوف يشعر بالوجل والخوف من تلك المسئولية العظيمة. وهذا هو دوره كرجل؛ سوف يتقدم بشجاعة تجاه هذه المسئولية.. سوف يحمل هذه الشمس العظيمة فى يمين، سيعلن أنه سيكون مسئولا، سيقول لزوجته إنك مادمت قد سلمت لى نفسك وحريتك؛ فسوف أكون مسئولا عنك، سوف أرعاك وأحميك. إنى أحترمك وأؤمن بك. سوف أعطيك أنا الآخر ذاتى وكل حياتى، سوف أهبك نفسى.

فإذا الذى يعطى سيأخذ أكثر مما أعطى، وإذا الذى يسلم يمتلك، وإذا الذى خضع يشعر أنه عظيم فى خضوعه؛ رفيع فى استسلامه.

كيف إذن يرتفع من يخضع؟ كيف إذن يمتلك من يستسلم؟ كيف إذن يتحرر من يهب حريته؟ كيف إذن يتفرد ويستقل من يحاول جهده أن يذوب وأن يتوحد؟ هذا هو الزواج، هذا هو سر الأسرار، هذا هو المعنى العميق الغريب، هذا هو التسامى والقدسية.

والتسليم يعنى أن الواحد قد أصبح اثنين دون التلاشى، إن المرأة لا تتلاشى أو تتبخر أو تنصهر حين تسلم، بل على العكس فهى تحتفظ بالتكامل، والرجل لا يحطم المرأة حين يتقبل حريتها، بل هو يراها كذات فريدة متميزة متكاملة غاية فى الروعة، رائعة الحسن، مثيرة لكل خيال، جديرة بالاحترام والتقدير، إنها تعيد خلقه وهو يعيد خلقها.

هنا يشعر الرجل بأنه أمام حدث هام فى حياته، حدث يهزه هزا، ضوء ساطع كاشف يتسلط على داخله فيضيئه ويبهره، إنه يرى ذاته من خلال هذه المرأة الزوجة.

يشعر الرجل بسعادة فائقة ـ ليس زهوا، وليس غرورا، وليست سعادة الغازى المنتصر ـ حين تخضع له زوجته خضوعا إراديا لا يتحقق إلا لإنسان ناضج متكامل سوى نفسيا.

والتسليم هو أكثر التعبيرات رقة فى وصف الأنوثة. التسليم يتيح للرجل أن يشعر برجولته ويتيح للمرأة أن تتحقق من أنوثتها، ولهذا فهى تضع نفسها تحت إمرة هذا الرجل وتهبه كل شىء بدون تحفظ.

وبهذا يتأكد لك يا ابنتى أن قمة ذاتيتك تتحقق من خلال فعل الخضوع والتسليم للزوج. ولا يمكن أن يتحقق هذا لزوج إلا إذا كانت زوجته تحبه وتحترمه.

إلى ابنتى

أريدك يا بنتى العزيزة أن تكونى زوجة ناجحة، ومن خبرتى فى الحياة أستطيع أن أحدد لك سمات الزوجة الناجحة.

هى امرأة سوية ناضجة ينسجم تكوينها الفسيولوجى والتشريحى مع تكوينها النفسى، فى نسق أنثوى بديع، تقبله وتعتز به ولا ترتضى أن تستبدله أو تقترب به من النسق الذكرى.

ومن فطرتها الأنثوية الصافية الخالصة أنها لا تتزوج إلا من رجل تحبه، يحرك ويطلق نوازعها الأنثوية إلى أقصى درجاتها وتتأكد هذه النوازع معه وبرجولته. هى امرأة ترفض أن تتزوج من رجل لا تحبه أو رجل منقوص الرجولة.

وهى امرأة مثلما تعتز بأنوثتها، فهى تعى أيضا دورها الأنثوى فى الحياة ومع رجل، وكأم.

وهى زوجة قادرة على احتواء الزوج بالحنان والاهتمام. فهى بحسها الأنثوى تدرك احتياجات الرجل. هى تعرف بفطرتها أن بالرجل جزءا لطفل يحتاج إلى أم، وبه جزء ناضج واع منطقى يحتاج إلى امرأة ناضجة عاشقة، وبه جزء أبوى يحتاج فيه أن يؤدى دور

الراعى والمسئول والقائد؛ لهذا فهى تعطيه حنان الأم وحب المرأة العاشقة وخضوع الابنة المتفهمة. وهى تعرف أن الرجل يتوقع الاهتمام من الزوجة، يتوقع التقدير، ولهذا فهى تعيش أحلامه وانتصاراته وأمجاده حتى وإن كانت هى الشاهدة الوحيدة عليها. تعيش حياته واهتماماته وعمله لحظة بلحظة.

الحب هو حياتها، وزوجها هو محور حياتها، وأسرتها هى مملكتها.

هى زوجة ثرية العقل غنية الروح. تعيش بفهم يدفعها إلى الانفتاح على الكون، فتفهم من أمور الحياة وأحوال الدنيا ما يجعلها مثقفة متفتحة فاهمة متعقلة عذبة الحديث مقنعة المنطق مؤثرة بأفكارها وروحها.

ولذا فمن حبها لزوجها وإحساسها بحب زوجها لها؛ تدرك أن نفوذها وتأثيرها لا يكمن فى جمالها الخارجى وزينة جسدها الشكلية، وإنما يكمن فى جمال عقلها ورونق روحها.

هى الزوجة التى تملك روحا سمحة ونفسًا طيبة وطباعًا هادئة غير متسلطة، غير عدوانية، لا تستهويها ولا تزدهيها سلطة أو قيادة أو زعامة. ولأنها ارتبطت برجل تحبه وتثق به، تطمئن إليه؛ فإنها تسلم له قيادة مركب الحياة. تساعده بعقلها وجهودها. تقف بجانبه وليس وراءه ولا ترضى أن تقف أمامه.

أن تكون «غيرتها نابعة من حبها للحفاظ على حبها وزوجها الذى تثق به». فهو جدير بالثقة، ولأنها تثق بنفسها أيضا وفوق كل ذلك

وقبل ذلك ثقتها بالحب الذى يربطها بزوجها. غيرة عاقلة هادفة هادئة تسعد الرجل وفى نفس الوقت تحذره وتوقظه وتنبهه.

إخلاصها ووفاؤها ليس محلا لنقاش أو تأكيد وإلا أصبحت الأمور كلها عبثية، ولكنها تحرص كل الحرص على مشاعر زوجها من خلال سلوكها الاجتماعى المتوازن الراقى الذى يعكس حكمتها وتوازنها النفسى، وثقتها بنفسها وعدم احتياجها لكلمات الإطراء وعبارات المديح وتلميحات الغزل، فهى ترفض ذلك بإباء نابع من حسها الأخلاقى القوى ومن احترامها لذاتها واحترامها لكيانها كزوجة. ولأنها واعية وناضجة وذكية فإنها لا تستخدم سلاح الشك والغيرة لإذكاء مشاعر زوجها نحوها؛ لأنها تعرف أن هذا سلاح مدمر يقضى على الأحاسيس الطيبة لدى زوجها. يقضى على إحساسه بالأمان.

أن تكون مديرة إيجابية، مشاركة متعاونة، فعالة وذلك فى إدارة شئون حياة الأسرة. وأن تعرف جيداً أنها مصدر الحياة. ومصدر الاستمرار. . ومصدر الاستقرار. وأنها هى القائد من الداخل ومن الباطن. وأن مصدر قوتها هو الحب والاحتواء والفهم والذكاء. الذكاء الأنثوى الفطرى الذى يدرك بالحس الداخلى وباللاشعور، أنه لولا المرأة لما كانت الحياة، المرأة الزوجة، المرأة الفاضلة.

أن تستند حياتها كلها إلى قاعدة أخلاقية تتمثل كل القيم العليا الرفيعة من صدق وأمانة وتواضع وتسامح ينعكس فى سلوكها العام وحياتها الزوجية.

أن تكون تقية مؤمنة . لا خير فى امرأة لا تعرف ربها . ولا اطمئنان مع زوجة لا ترعى حدود خالقها .

وأدعو الله يا بنتى أن يحميك من الفشل فى حياتك الزوجية . وهذه هى سمات الزوجة الفاشلة :

- أن تكون عاجزة عن الحب .
- أن تدخل فى منافسة مع الرجل .
- أن تكون عدائية متسلطة .
- أن تكون تافهة العقل .
- أن تفتقد مشاعر الانتماء للبيت ويصبح زوجها على هامش حياتها .
- أن تتمتع بالاستهتار والسطحية والمبالغة والاهتمام بالمظهر الذى يكشف عن جوهر ضحل .
- أن تكون قاعدتها الأخلاقية مثقوبة . فتهدر القيم وخاصة المتعلقة بالولاء والالتزام والإخلاص فى الحياة الزوجية .
- أن تكون غير متوازنة نفسيا فتتذبذب انفعالاتها وتتأرجح ثقتها بنفسها ؛ فتندفع نحو حماقات ومهاترات ؛ لتأكيد الذات والدفاع عن النفس ضد اعتداءات وهمية ، وبذا تتسم حياتها بالعنف والعدواة والشك وسوء الظن .

- أن تفتقد مشاعر القدسية، قدسية الإنسان، قدسية العلاقة الإنسانية، الصداقة، الحب، الزواج، الأمومة. وهذا يجعلها تتناول الأمور الجادة والقدسية تناولا سهلا رخيصا يفتقد للبراءة والطهارة.
- أن تتمتع بالغرور والأنانية والنرجسية؛ فلا تعطى ولا تذوب. وإنما تصبح طرفا شاذا وناشزا فى علاقة أساسها العطاء والذوبان وهى العلاقة الزوجية.

وفقك الله يا بنتى.

إلى ابنى

سألنى ابنى عن مسئولية الرجل وحجم إسهامه فى نجاح الزواج؛ فقلت له: إنه المسئول الأول وصاحب الدور الأكبر، وهذه هى سمات الزوج الناجح:

أن ينجح فى أن يبث مشاعر الأمان الحقيقية لدى زوجته. الزوجة الآمنة لابد أن تكون زوجة صالحة إذا كان لديها الاستعداد للصلاح. إن أهم ماتحتاج إليه المرأة هو مشاعر الأمان والطمأنينة، وإذا فقدتها؛ اضطربت. والرجل الحقيقى هو القادر على منحها هذه المشاعر والمصدر الأول لأمان المرأة، هو حب الرجل لها الحب الحقيقى. فإذا شعرت بحب زوجها اطمأنت، والزوج الناجح هو الذى تكون زوجته هى حبيبته، وحبيبته هى زوجته، وأن يرى الزواج كعلاقة مقدسة. علاقة أبدية خالدة. تطمئن المرأة فى حياتها مع رجل يقدس الزواج.

أن يكون مصدر قوته الحقيقية هو صدقه. الرجل الصدوق هو «رجل قوى صادق مع نفسه، صادق مع الناس، صادق مع زوجته». الصدق هو «قيمة أخلاقية عليا وهى تعنى السمو». فالصادق هو إنسان رفيع، ولا بد أن يكون شجاعا وهذا يعنى أيضا ثقته بنفسه وتلك هى مظاهر

الجمال الحقيقية التى تشد المرأة إلى الرجل، وتلك هى مواطن الجمال الحقيقية عند الرجل. والمرأة تستسلم لرجل شجاع.

أن يكون قادرا على حمل المسئولية، مسئوليته فى الحياة، مسئوليته عن نفسه وعن زوجته وأسرته ومسئوليته كإنسان. والمسئولية تنبثق من الإرادة الواعية الحرة، وهى تعنى وعيه بدوره وقيمته وأهميته، تعنى إحساسه بذاته ونضجه. والرجل الحقيقى هو الذى لا يساق إلى تحمل مسئولياته ولا يتهرب منها، وإنما يسعى إليها بصدق وهمة وإيمان وفهم وحب، ويسعد بما يقدمه للآخرين من عطاء، سواء إذا كان عطاء المسئولية أو عطاء حرا نابعا من حسه الإنسانى النبيل.

والزوج الناجح هو رجل ناجح، ناجح فى عمله، يعتز بعمله ويتقنه ويقبل عليه بحب ويحاول أن يبدع فنه ويطور نفسه، يؤكد ذاته، يحقق طموحاته. لا شىء يأخذه بعيدا عن حمله، لا شىء يستغرقه ولا شىء يغرقه، أحد جوانب إحساسه بذاته هو نجاحه فى عمله وكذلك أحد جوانب فخره وثقته بنفسه واعتزازه بذاته. وهذا يعنى جديته وشعوره العميق بالمسئولية وحياته الزوجية. إن نجاحه فى عمله يثرى حياته الزوجية، وتوفيقه فى حياته الزوجية يثرى عمله. إنها علاقة تبادلية مباشرة تحفظ للرجل توازنه النفسى وتحفظ للحياة الزوجية استقرارها وتكون إحدى دعائم نجاحها.

أن يكون ناجحا اجتماعيا. أن يكون قادرا على التأثير الاجتماعى، أن يكون له نفوذ إنسانى، وهذا يعنى ثراء شخصيته، يعنى اهتمامه بالحياة وبالإنسان وبالمجتمع. اهتماماته التى تمتد خارج

نطاق عمله وأسرته، وبذلك يكون هو الوسيلة للعلاقة التبادلية بين الأسرة والمجتمع، كل منهما يثرى الآخر.

أن يكون بناؤه الأخلاقى الإنسانى سليما يعكسه ضمير نظيف وينبع من نفس طيبة خيرة هى المصدر للقيم الأخلاقية الإنسانية العظيمة.

فهو شريف، أمين، عطوف، متسامح، نبيل، متواضع، وينعكس هذا على حياته العامة وحياته الخاصة.

فالإنسان لا يتجزأ، والأخلاق لا تتجزأ، فمن كان غير أمين فى حياته العامة؛ فهو غير أمين بشكل أو بآخر فى حياته الخاصة. . وهو بهذه النفس الطيبة الخيرة يبعث أقصى درجات الطمأنينة فى نفس زوجته.

أن يتمتع بالثبات الانفعالى؛ فلا يندفع غاضبا ثائرا لأبسط الأمور ويفقد السيطرة على أعصابه وسلوكه، وينهار ويصدر عنه كلام غير منطقى وألفاظ سيئة. وأن يكون صبورا حكيما منطقيا مقدرا عاذرا. وأن يتجاوب انفعاليا مع مقتضيات الموقف، وأن يكون حجم انفعاله مناسبا للموقف، وأن يكون انفعالا بناء لمعالجة الموقف، وأن يكون قادرا على السيطرة على هذه الانفعالات إذا اقتضى الموقف، وأن يكون راقيا أيضا فى غضبه فلا يلجأ إلى العنف البدنى أو اللفظى، أو السخرية أو التهكم والتحقير واستخدام الكلمات البذيئة. إن الزوجة تفقد إدراكها الدقيق لحدوده كرجل إذا رأته فى

هذه الصورة المتهاوية المنهارة، وخاصة إذا كانت تقف هى قبالته، أى أن الموقف يتناولها هى شخصيا.

والرجولة الحقة هى التى تجعل المرأة تشعر بأنوثتها الحقة. والأنوثة الحقة لا تظهر فى ظل رجولة مهزوزة أو منقوصة. والمرأة لا تشعر بذاتها الحقيقية، ذاتها الأنثوية إلا مع رجل حقيقى فى قوته وشجاعته وقدرته على الاحتواء وغيرته الموضوعية النابعة من حبه ومن دوره فى المحافظة على زوجته بعيدا عن مشاعر الضعف والهوان وحب الامتلاك والتعلق المرضى، والتى تتبدى فى صورة «غيرة» زائدة هى أقرب إلى الشك، ولا تعنى إلا انهيارا رجوليا داخليا وعدم الثقة بالنفس.

أن يحافظ على التوازن بين الرومانسية والواقعية، وبين الخيال والحقيقة. الرومانسية تحفظ له شاعريته ورقته التى تحتاجها المرأة، وفى نفس الوقت فإن واقعيته تتيح له الإدراك السليم للواقع والحكم الموضوعى على الأمور والقيادة الواعية المستبصرة بمقتضيات الحياة. والمرأة تفقد حماسها واستثارتها إزاء عاشق ولهان تستغرقه الرومانسية ويذهب به الخيال بعيدًا عن أرض الواقع والحقيقة، وفى نفس الوقت يفزعها الرجل الجاف الجامد الذى لا يهتز قلبه للحن جميل، ولا تنتشى روحه لزهرة بديعة، ولا يسير خياله ليلا أو فجرا، ولا تتعلق روحه بمعنى شعرى جميل. المرأة تطمئن للرجل المتوازن وتثق بالرجل المتكامل، وتتعلق بالرجل الحى المتحرك النشط القوى الشجاع الحالم الرقيق، مزيج الرجولة الحقة.

أن يكون حازما قائدا راعيا عادلا . المرأة السوية تسلم قيادها لزوجها . والقائد الناجح لابد أن يكون حازما . حازما بلا قسوة وبلا عنف . الضعيف المتهاون هو الذى تنتابه حالات العنف والثورة، وهو الذى يقسو قسوة زائدة . وحزم الرجل مصدره عقله ، ومن خلال أساليب عقلية وهى المنطق والثبات والحجة والإقناع . والحزم لا يعنى أن يكون مرهوبا بل يكون عطوفا . فى العطف حزم وفى المنطق حزم، وفى عدم التنازل والتهاون فى الأمور الهامة حزم، وفى التجاوز عن الصغائر، وفى التسامح عن أخطاء غير مقصودة حزم، وحقه فى الحزم يأتى من دوره كراع . راع لامرأة وراع لأسرته، والراعى لكى يستمر دوره؛ لابد أن يكون عادلا . والعدل قيمة تعنى السمو والحكمة . العادل هو إنسان سام حكيم .

لأن دور الرجل أن يكون قائدا فلا بد أن يكون حازما، وليس من حقه أن يكون حازما إلا إذا كان راعيا . ولا حق فى رعاية إلا بالعدل، هذه صفات أربع متلازمة للرجل الزوج الذى يحظى بحب واحترام زوجته واطمئنانها للحياة معه : القيادة والحزم والرعاية والعدل .

أن يكون تقيا مؤمنا لا خير فى رجل لا يعرف ربه . ولا اطمئنان مع زوج لا يراعى حدود خالقه .

* * *

واحذر يا بنى أن تكون زوجا فاشلا وهذه هى سمات الزوج الفاشل :

- هو رجل لا يقدس الزواج .
- هو رجل فاشل بوجه عام فى أمور كثيرة من حياته ، عمله ، علاقاته الاجتماعية .
- هو رجل انهزامى انسحابى ينزلق بسرعة فى مهاوى اليأس ، ويفتقد لروح المرح ، ضعيف الهمة قليل الحركة
- سريع الانفعال والغضب ، فاقد السيطرة ، ينهار إزاء المواقف الصعبة .
- كاذب ، وكذبه لضعفه وعدم ثقته بنفسه .
- يفتقد لروح القيادة ، متهاون غير حازم ، ويقبل سيطرة الغير عليه .
- يفتقد مشاعر الخير والحس الإنسانى ، متعال ، مغرور ، نرجسى ، عدوانى ، قاس .
- ينزلق أخلاقيا بسهولة ، غير أمين .
- لا يحرك مشاعر الأنوثة عند امرأته ، تفتقد معه إحساسها بذاتها الحقة ، وتفتقد معه مشاعر الأمان .
- يسيطر عليه الشك ، غيرته مرضية ، نابعة من حبه للامتلاك وضعفه الداخلى .

وفقك الله يا بنى.

قبل النهاية آخر الطريق

أصبح القلق يهدنى تماما فيمتنع عنى النوم ويحرمنى الأرق من الساعات القليلة التى اعتدت نومها فى أول الليل. لقد ازداد سعاله فى الأيام الأخيرة وأرهق جسده ولم تعد تجدى معه أية عقاقير وتناهى إلى بوضوح أذان الفجر وأشفقت من إيقاظه؛ فعيناه لم تغمضا إلا منذ ساعة. همس لى الشيطان ألا أنهض للفجر حتى لا أحدث جلبة توقظه، واستسلمت للرقاد والوساوس؛ وإذا بيده تهزنى هزا رقيقا ليوقظنى للصلاة؛ فتظاهرت بالنوم. واشتد دفعه لى ولكن برفق بقدر ما يسمح به جسده الواهن ومشاعره الشفافة. نهضنا؛ توضأنا وصلينا، وأمسك كل منا بمصحفه. عاوده السعال بشدة وجحظت عيناه واحمر وجهه فى ظل صفرة وشحوب؛ فتمزق قلبى وانتابنى رعب. ذهبت إلى المطبخ وأعددت له كوبًا من اليانسون. عدت فوجدته قد استلقى على كنبة الصالة وأسند المصحف إلى صدره. لم أشأ أن أوقظه فسعاله يهدأ وهو نائم. لم يغفل إلا ربع ساعة واستيقظ طالبا يانسونه ولكنه كان قد برد فأعدت تسخينه. أنعشه اليانسون فشعر بتحسن؛ عاكسته نبرات صوته فنهض بحذر وفتح البلكونة؛ فهبت نسمات عذبة ملأت جو الصالة ونفحتنا رائحة خاصة بالفجر.

وبعد دقائق بدأ العزف الجماعى لكوكبة ضخمة من العصافير اعتدنا على سماعها منذ أربعين سنة حيث استقامت شجرة عتيدة قاصدة بالذات بيتنا وبلكونتنا ونشرت فروعها المزدهرة الكثيفة والتى أصبحت مرتعا للعصافير تأوى إليه، وهى تؤدى نشيدها مرة فى الفجر ومرة أخرى عند الغروب. لم تكن تغيب عنا هذه المظاهرة إلا مرتين فى العام؛ فى إجازة نصف العام الدراسى فى الشتاء حين كنا نذهب لرأس البر.

تحرك صوب الراديو إذ كانت الساعة قد جاوزت السادسة بدقيقتين ليستمع إلى نشرة الأخبار من إذاعة القاهرة. أعقبتها أغنيات الصباح التى لم تتغير منذ سنين طويلة. وكان لا يمل سماع أم كلثوم: «يا صباح الخير يا للى معانا». وكانت تعجبه أيضا أغنية محمد قنديل: «يا حلو صبح» وارتطمت الجرائد بشيش البلكونة محدثة الصوت المعتاد؛ فناولتها له وذهبت إلى المطبخ لإعداد الإفطار. تبعنى ورجانى فى إضافة بيضة مسلوقة؛ فنظرت إليه رافضة دون أن أتكلم حيث حذرنا الطبيب من البيض، ولكنه أصر وأنا رفضت محذرة؛ فهددنى بأنه لن يأكل؛ فلم أأبه لتهديده وعدت ببضع معالق من الفول بزيت الزيتون وقطعة صغيرة من الجبنة البيضاء وكثير من العسل؛ فالتهمه أما أنا فاكتفيت بشرب الشاى معه إذ كان الضغط مرتفعا بشدة.

وعدنا إلى الفراش لنستريح ساعة أو ساعتين؛ ولكننى لم أستطع؛ إذ بدأت الآلام تقطع فى ركبتى. امتقع وجهى من شدة الألم، وفهم هو ما أعنيه؛ فسعى إلى أقراص الروماتيزم؛ فطلبت منه قرصين ولكنه أصر على قرص واحد حتى لا تتألم معدتى وهدأت الآلام

قليلا وارتفعت معنوياتى وحرك يده إلى أعلى ثم نزل بها على صدرى متظاهرا بالنوم ولكنى رفعت يده بغير شفقة ووضعتها بجانبه، ولكنه عاود وضعها فوق صدرى، فأعدتها مرة ثانية إلى جانبه بحدة، وحين هم بتحريكها مرة ثالثة أعطيت له ظهرى وقلت له بدون غضب. «هو ده وقته!!».

وغفونا قليلا ثم نهضنا إلى سوق الخضار. كانت خطواتنا بطيئة جداً هذا الصباح وكنت أتكئ على ذراعه بالرغم من أن حجمى كان ضعف حجمه ولكنه كان يصر على ذلك ولم تكن قامته تنصب إلا وهو ماشيا بجوارى. تقطعت أنفاسه فى طريق العودة واضطررنا للوقوف مرارا وعاودنى إحساسى بالشفقة والخوف. كان يضطر إلى الحبة التى توضع تحت اللسان لتوسيع الشرايين وبعد كوب من الشاى الثانية استطاع أن يقف معى فى المطبخ ليعاوننى، ورغم أن ذلك كان يضايقنى إلا أننى اعتدت على ذلك فى السنة الأخيرة لأنه لم يكن لديه ما يفعله أثناء إعدادى الطعام بعد أن امتنع عن الذهاب إلى القهوة بعد رحيل اثنين من أصدقاء عمره فى السنة الأخيرة.

انتهينا من الغذاء أرز وكوسة مسلوقة وربع فرخة لكل منا وبرتقالة. جلس أمام التليفزيون ليتابع مباراة فى كرة القدم وجمعت أنا الغسيل المنشور وأخذت أطويه وأضعه فى الدولاب وحان موعد الفيلم العربى على القناة الأخرى من التليفزيون ولكنه أصر على متابعة المباراة. وأحسست بالغضب وحولت التليفزيون إلى الفيلم فصرخ وتذمر وأعاد المباراة.

فأغلقته كلية ونهضت إلى حجرة النوم ولكنى لم أغلق الباب ، وتوقعت أن يتابع هو المباراة وكنت أمتلئ حنقا وإذا بالفيلم العربى يتناهى إلى سمعى فابتسمت وشعرت بالسرور فى كل كيانى وجاء يقف بالباب ولكنى لم أنظر إليه فدخل وأغلق الباب ورقد بجوارى وعاود ألعابه الصبيانية بوضع ذراعه على صدرى وهو يتظاهر بالنوم ولكنى لم أرفع يده هذه المرة ، وبعد ذلك قمنا ولحقنا بالجزء الأخير من الفيلم العربى .

شَربنا قهوة العصر ؛ نشعر بمتعة بالغة ونحن نتذوقها وتظل رائحتها بالمكان بعد أن ننتهى منها بوقت غير قصير . ونتجه إلى البلكونة لنستمع عن قرب سيمفونية الغروب من العصافير . وشعر كل منا بحاجتنا إلى الصمت . وافتقدنا فى هذا اليوم تمشية بعد الغروب ؛ وبعد أن فرغنا من صلاة العشاء انفتحت شهيته للحديث فحدثنى عن أخبار العالم حصيلة من الجرائد والإذاعات . وذكرته أننا فى أول الشهر يوم كتابة الخطاب الشهرى لابنتنا التى بالخارج وأن علينا أن نتصل بابننا بالتليفون لنسأل عن حفيدنا الذى أصابته الحصبة .

وهفت نفسه إلى عبد الوهاب ؛ اختار أغنية «عندما يأتى المساء» ولكننى أردت أن أستمع إلى «يا جارة الوادى» . أصر على رغبته فنهضت غاضبة إلى حجرة النوم . لكنه لم يتبعنى واستمع إلى أغنيات أخرى ليس من ضمنها «يا جارة الوادى» . لا أدرى من أين جاءته هذه القسوة المفاجئة وعدت إلى حيث يجلس ولكنى لم أنبس ، وفجأة اشتد سعاله فانخلع قلبى ؛ أسرعت إليه بالمياه ولكنه لم يستطع أن يتناول

الكوب بيـده التى كـانت ترتج من شـدة السـعـال. فـأسندت إليـه الكوب فشرب وهدأ ونظر إلىّ بامتنان فنظرت إليه بحب. أحضرت إليه عقاقير الضغط والمعدة والروماتيزم. واتكأ علىّ هذه المرة وذهبنا إلى الفراش ورفع يده ووضعها فوق صدرى متظاهرا بالنوم ولكنه بعد دقيقتين نام فعلا، ونظرت إلى وجه حبيبى ودعوت الله أن يحفظه لى.

النهاية

رحل رفيق العمر؛ نام ثم مات بهدوء. في هذه الليلة بالذات ردد الشهادتين عدة مرات وكأنه ينبهني إلى شيء ولكني لم أفهم. في هذه الليلة بالذات قبلني من جبيني وكانت هذه عادته حين كان يسافر. ثم تحدث عن ابننا ودعا له ثم تحدث عن ابنتنا ودعا لها، وقال إنها صورة طبق الأصل مني وإنني طبعتها على الفضيلة، ثم حمد الله أنه وافق بالزواج مني منذ خمسين سنة، وأنه يحسد نفسه على السعادة والاستقرار والطمأنينة التي عاشها معي، وأنني كنت نعم الزوجة الصالحة. داخلني قلق تحول إلى انزعاج حين طلب مني أن أسامحه على أي خطأ أو إساءة صدرت نحوي وصمت ثم حاول أن يتكلم فأعاقه ضيق مفاجئ في صدره لم يلبث أن زال. وأمسكت بيده النحيلة وقلت له إنني التي أحسد نفسي على زواجي منك. سألني بصوت واهن لا يخفي حب الاستطلاع لمعرفة أشياء يريد أن يطمئن لمعرفتها: وماذا أحببت فيّ؟ قلت بدون تردد: طيبتك وسماحتك وإنسانيتك. فردد بصوت ضعيف جدًا: الحمد لله.

الآن خلا البيت منه، عليّ أن أواجه الحياة وحدي، وأي حياة!! في البداية لم أصدق أنه مات، كنت أسمع صوته يناديني كنت

أتصوره جالسا فعلا بالشرفة فى مرات كثيرة أعددت فنجانين من القهوة لأتناولها معه.

وبعد مرة لم يكن أمامى بُدٌّ من التصديق الحزين، والقبول بقضاء الله. فقدت شهيتى تمامًا للطعام، واقترحت ابنتى أن أنتقل للحياة معها؛ ولكن رفضت كما سبق أن رفضت نفس العرض من ابنى. فضلت أن أعيش لأموت فى نفس المكان الذى عشت معه فيه. ماذا تعنى الحياة بدونه؟ فقدت الرغبة فى كل شىء، وتدهور وزنى بسرعة ولكنى حرصت أن أؤدى نفس الطقوس التى اعتدناها معا. ماذا يعنى البيت بدون رجل؟ واشتدت آلام المعدة واستشرى الروماتيزم فى عضلاتى وتوحش ارتفاع ضغط الدم

شعرت بالاهتزاز الشديد وراودتنى فكرة الخلاص. أن أفعلها بيدى والله غفور رحيم، هو أعلم بهول العذاب الذى أعانيه. لم تعد هناك ذراع أتوكأ عليها، وكان يزورنى طبيب فى كل يوم. لم تعد العقاقير، الأمراض استفحلت؛ غاب عنى صوته. بمن أسترشد وأستشير وأستنير؟!

وأصبت بأزمة قلبية. نفس المرض الذى كان يعانيه، وكأننى أريد أن أعيش نفس آلامه؛ نفس معاناته؛ نفس عقاقيره، وكأننى أريد أن أتوحد معه حتى فى المرض. ولم يعد أمامى إلا الذكريات والأغانى والكتب وأشياؤه. حرصت على أن يكون كل شىء فى موضعه ولكن ماذا تعنى الحياة بدونه. البيت مقبرة، كل شىء أصبح عبئا وصعبا وثقيلا.

وأصبحت أشكو من كل جزء فى جسدى وتعددت تخصصات الأطباء ولكن العقاقير لا تجدى، وقالوا اكتئاب وقدموا لى عقاقير نفسية. ولكنه شيء فوق الاكتئاب؛ آلام لا أستطيع أن أصفها لا أستطيع أن أحدد موضعها . . لا أظنه اكتئابا ولكنه الفقد. آلام الفقد لكل شيء بعد أن فَقَدتُهُ. خمسون سنة مودة ورحمة وحب وأطفال وآمال وأحلام وطموح وشجار وصلح ومشاكل ومتاعب وإحباط وانتصار وصحبة ومرض وشفاء ورفقة ومشاركة وطريق طويل طويل. ماذا تعنى الحياة بدونه؟! البيت مقفر ومظلم؛ صمت القبور رغم صخب الأبناء والأحفاد. ضاعت بهجة الحياة وانطفأت كل المصابيح، ولمن تزقزق العصافير ولماذا يبدأ نهار جديد؟!

ولكن كل قطار لابد له من أن يصل إلى محطته الأخيرة ليفرغ ركابه. لابد من النهاية. لن يخلد أحد ولكن الوحدة صعبة جدًا. لقد تعودت عليه خمسين عاما؛ أصبحنا لا نستطيع الحياة إلا معا ؛ لا يقوى أحدنا على مواجهة الحياة بمفرده. والحياة لا تقبل أحدنا دون الآخر. والطبيعى؛ أنه إذا ذهب أحدنا فليذهب الآخر

والآن أتذكر كل حسناته نحوى، وأتذكر كل إساءتى نحوه. إن ضميرى يفتت عظامى. كان يجب أن أبذل جهدا أكثر لإسعاده. لكم أغضبته كثيرا ولكم قصرت فى حقه ولكم رسمت تعاسة على وجهه فى أوقات كثيرة. لكم قصرت فى حقه وثرت وتمردت وهددت وتوعدت وأسهدته فى ليال كثيرة، ولكم أحزنت صدره وأرجعت

قلبه . إننى أنا التى أستحق الموت وليس هو ، ياليتنى استسمحته قبل موته ، ياليته غفر لى .

* * *

بعد ستة شهور من موته على وجه التحديد نامت ؛ فماتت هى أيضا بهدوء .

الرجـل الأول

الرجل الأول هو ناظر المدرسة ورئيس مجلس إدارة المؤسسة أو الشركة ورئيس القسم بالجامعة ، وأيضا هو رب الأسرة. والرجل الأول بمعنى المسئول الأول والمرجع الأخير.

والمكان يكتسب قيمته ومعناه وأهميته من شخصية الرجل الأول. ومستوى العمل وكفاءة الأداء تتوقف على أفكار ومواهب وإبداعات الرجل الأول. وكذلك القيم الأخلاقية والمبادئ التى تسود المكان والعمل وتتحكم فى المواقف والأحداث وتوجه الأمور؛ تتوقف على قيم وأخلاق ومبادئ الرجل الأول.

والرجل الأول بمعنى آخر هو الروح التى تمنح الحياة، وهو الفكر الذى يدير حركة الحياة؛ وهو الإحساس الذى تنبض به الحياة، وهو الإدراك الكلى الشامل والاستيعاب الأعمق والبصيرة النافذة والرؤية الثاقبة والقوة المحركة.

وبمعان أخرى هو الحماس والطموح والأمل، وهو التخطيط والنظام والمتابعة، وهو المراقبة والحزم والعقاب والثواب.

وهو أيضًا الحسم.

وهو أيضًا المرونة والموضوعية والالتزام بالشورى ورأى الجماعة وصوت العقل والحكمة والحكماء.

وهو أيضًا ضمير المجموعة أو الجماعة التى يقودها، وهو الحلم؛ أى المستقبل، وهو الماضى بتراثه الأصيل.

أىُّ أسرة فاشلة يكون ربها ـ أى الزوج والأب ـ رجلاً فاشلاً.

أىُّ مدرسة أو موسسة أو شركة أو جريدة فاشلة يكون رأسها وقائدها رجلا فاشلا.

ومن لم يكن مؤهلا للقيادة ـ أى احتلال موقع الرجل الأول ـ فليتنح ولا يُقْدم؛ لأن موقع الرجل الأول هو أهم موقع فى حياة البشر، وهو الدور الأهم، وهو المسئولية الأخطر. والحياة دور ومسئولية.

إن شخصية الرجل الأول تنطبع على كل أوجه الحياة وتنعكس بشكل مباشر على الحاضر وتشكل ملامح المستقبل.

فإذا كان شخصية انحرافية؛ فسيعم الفساد. والفساد حسب طبيعة المكان. فإذا كان المكان مدرسة ويبرز أكثر المدرسين انحرافًا ويحتلون الصفوف الأولى وتسود قيم الانتهازية والنفاق والرياء والكذب، ستنهار صورة المعلم وتتحدد مكانته بانتقال هذه القيم السيئة للطلاب، وستكون المدرسة بؤرة فساد لاتقدم لطلابها إلا النماذج الانحرافية.

وإذا كان المكان مؤسسة أو شركة؛ فستعم الرشوة وسيرتبط العمل بكل صنوف الانحراف المعروفة من غش وتدليس وخداع ونفاق.

أما إذا كان رب الأسرة منحرفًا فلابد أن تصيب عدوى الانحراف أسرته من زوجة وأبناء وبنات. فرب الأسرة هو زارع القيم وحارسها وراعيها. وفاقد الشيء لا يعطيه. وإذا كان رب الدار بالدف ضاربا، فشيمة أهل البيت كلهم الرقص. فهو المثل الأعلى، وتسيبه وتساهله القيمى ينتقل إلى رعيته.

ولابد أن يكون الرجل الأول حازمًا، وأن يلجأ للعقاب إذا لزم الأمر، وأن يكون العقاب ملائما ومناسبا للخطأ، وأن يكون فوريا. فهذا هو معنى الحزم. وألا يتساهل فى مبدأ أو قيمة، وألا يتساهل فى إهمال أو عدم إتقان، وألا يتساهل فى خرق قانون أو قاعدة راسخة.

المتساهل والمتسيب والرخو والضعيف واللاهى والغافل، كل هذه هى سمات الرجل الأول الخائب الذى يؤدى إلى تدهور العمل، وتدهور الأسرة وسهولة انهيارها الأخلاقى والإقلال من كفاءتها، وبسببه تنخفض جودة الإنتاج فى الشركة، وينهار تدهور العمل. وينهار مستوى التعليم فى المدرسة، وتكثر الأخطاء اللغوية والمطبعية فى الجريدة. وإن أكبر سبب يؤدى إلى إهمال عامل أو موظف فى عمله هو تساهل وتسيب وغفلة الرجل الأول؛ فغياب الحزم هو السبب الرئيسى لتدهور أى عمل وأيضا تدهور الأسرة. وهذا هو رب الأسرة الضعيف المتساهل المتسيب الغافل الذى لا يواجه الأمور بحزم والذى لا يقف فى وجه أى خطأ والذى ليس له القدرة على العقاب.

ولابد للرجل الأول أن يمتلك من المقومات الشخصية ما يتيح له فرصة السيطرة والقيادة، والسيطرة لابد أن تكون فكرية؛ أى أن تكون

قوته فى عقله وذكائه؛ علمه وثقافته ومعلوماته، فى إحاطته بالأمور، فى قوة منطقه وحكمته وموضوعيته. وإذا كان هناك من يفوقه فى هذه الأمور فسيتغلب عليه؛ سيفلت زمام الأمور من بين يديه؛ سيفقد هيبته؛ سيقفز آخرون إلى موقع اتخاذ القرار وتسيير الأمور. أى سيحدث خلل فى النظام وستعم الفوضى. وإذا حدث مثل هذا الخلل فى الأسرة فستصبح لا أسرة، أى ستفقد مقومات الأسرة. ستصبح أى شيء آخر إلا أن تكون أسرة الأسرة نسق متكامل له شكله ونظامه وأصوله وقواعده وتراثه، وهذا النسق يقتضى أن يكون رجلها الأول -أى الزوج والأب- قويا فكريا لكى يمسك بزمام الأمور ويقود الأسرة. إذا تراجع عن هذا الموقف بفعل ضعفه الفكرى فسيحدث خلل فى ميزان القوى داخل الأسرة؛ وبذلك ينهار النسق السوى للأسرة.

ولابد أن يكون مستقبلى النظرة، موهوبا مبدعا؛ ليأتى بالجديد ليطور ويضيف. وبذلك تتحرك الحياة؛ وتموت الشركات والمؤسسات والمصانع إذا تجمدت. وحين تتجمد؛ فإنها تلفظ أول ما تلفظ رجلها الأول غير الموهوب المحدود الكفاءة؛ العاطل ذهنيا المتجمد إبداعيا. وهذا هو ما يحدث فى الأسرة إذا كان رجلها الأول خاملا محدود الأفق. إذن لابد أن يكون رجل الأسرة الأول صاحب مبادآت ومولدا لأفكار جديدة، وبذلك يظل باعثا للروح والحياة والحركة والنشاط.

ولابد أن يكون الرجل الأول صادق الإحساس، ملهما بعاطفته، كبيرا فى قلبه ليستطيع أن يحتوى بالحب من هم مسئولون منه. القيادة هى أيضا مشاعر دافئة عميقة مشعة، وحين يكون الرجل الأول بارد الإحساس، سطحى العاطفة معطل الوجدان؛ فاقداً لموهبة

الإلهام والحدس والحس الباطنى؛ فإنه يبعث بالبرودة فى جميع أوصال من يعملون معه ويصيبهم تدريجيًّا الخمول والبلادة ثم اللامبالاة فى الشعوب والجماعات والأفراد، والسبب هو البلادة العاطفية للرجل الأول.

وإذا كان رب الأسرة بليدًا عاطفيًّا؛ فإن الكيان الأسرى يتكفكك. إن أحد دواعى الترابط الأسرى هو طاقة الحب التى يبعثها الرجل الأول ـ أى الزوج والأب ـ من وجدانه. الجليد العاطفى هو أحد أهم أسباب انهيار الأسرة، وهذه هى مسئولية الرجل الأول.

والرجل الأول هو رجل الأزمات والكوارث والمواقف الصعبة. وهذا يتطلب نضجا وخبرة، يتطلب جهازا نفسيا وعصبيا سليما. . يتطلب ثباتا انفعاليا؛ وربما أيضا موهبة وقدرة خاصة. الانفعال الحاد والثورة العارمة والغضب الشديد هى من سمات الشخصية للرجل الأول المهزوز، وأيضا التقلب والتذبذب الانفعالى هما من سمات الإنسان الذى لا يستطيع أن يقود المسيرة بثبات وطمأنينة وثقة.

فإذا كان رب الأسرة سريع الغضب حاد الانفعال، وإذا كان انفعاله لا يتناسب مع حجم الموقف؛ فإنه سيفقد دوره الحقيقى كرجل أول، لأنه سيكون باعثا على مشاعر الخوف والقلق وعدم القدرة على التوقع والتنبؤ وعدم الوثوق بالمستقبل وعدم الإحساس بالطمأنينة.

وآخر سمات شخصية الرجل الأول ـ وإن كان من الممكن أن تأتى فى المقدمة ـ هى الصدق، وإلا فَقَدَ مصداقيته تماما.

* * *

الحياة لا يمكن أن تقوم إلا على أكتاف الرجل الأول تلك الحياة الصحيحة الحقيقية المثمرة المنتجة والتى تمنح الإنسان سعادة وأمنًا.

ومن الممكن أن تقفز المرأة لتحتل مكان الرجل الأول فى الأسرة. هذا ممكن وجائز وقابل للحدوث، ولكن حينئذ سنكون بصدد نسق آخر غير الأسرة التى عرفناها تراثيا.

اللا رجــل..

قد تحب المرأة رجلا بسيطا لايثير إعجاب كثير من الناس . . ولكنها هى الوحيدة التى ترى مواطن جماله الحقيقية .

وقد تحب المرأة رجلا يجمع كل الناس على أنه شرير . ولكنها هى الوحيدة التى تستطيع أن ترى إمكانية الخير داخله ، أى أنه مؤهل للخير .

ولكن المرأة لا تحب الرجل الكاذب ، ولا تحب الرجل الأنانى ، ولاتحب الرجل البخيل ، ولا تحب الرجل النرجسى ، ولا تحب الرجل الحسود الحقود ، ولا تحب الرجل العدوانى ، ولا تحب الرجل المغرور المتكبر المتعالى ، وكلها صفات مترابطة إن وجدت بقية الصفات الأخرى فى نفس الرجل .

وتشعر المرأة بمرارة إذا أوقعها حظها العاثر فى رجل يحمل هذه الصفات . وتدرك أنها فقدت حياتها . فإما تفر وإما تتحمل على مضض . وتدريجيا تفقد أحاسيسها نحو الرجل ؛ يصير فى عينيها لا رجل ، ويظن هو فى نفسه أنه الرجل . وهذه هى المشكلة ؛ فهو لأنه لارجل فى نظرها فهى لا تتوقع منه شيئا ولا تستجيب له . ولأنه يتصور أنه الرجل فهو يتوقع منها كامل استجابة الأنثى .

المرأة حلم حياتها أن تلتقى بالرجل الإنسان، تلتقطه من بين ملايين. هذا هو الذى يثير عواطفها وبالتالى يحرك مشاعرها الأنثوية فتنجذب إليه وتستميت فى الارتباط به والحفاظ عليه. هذا هو الحس الداخلى للأنثى. وبلغة العصر هذا هو رادار الأنثى الذكى المتحرك فى كل اتجاه دون أن يبدو عليها. تستوى فى ذلك العالمة المثقفة مع البسيطة الجاهلة. فالأنثى هى الأنثى.

ولكن ما إن تشعر أن حسها الداخلى قد خانها وأن رادارها قد أخطأ حتى يسقط قلبها منها، وذلك حين تصطدم بكذبه وبخله وغروره ونرجسيته. ما إن تكشف صفة واحدة من هذه الصفات حتى تتأكد أن بقية الصفات موجودة فى نفس الشخص. هنا يتراجع بسرعة إحساسها بإنسانيته ومن ثم يتراجع إحساسها برجولته.

وإذا بخضوع المرأة المعروف عنها حينما تحب يتحول إلى رفض وعناد وعدوانية وتحد وقدرة هائلة على الاستفزاز يقشعر بدنها إذا لمسها. تثور معدتها إذا اقترب منها، وتتقلص عضلاتها إذا جاء بجانبها، وتفقد الإحساس تماما.

وتتعقد المشاكل. وقد لا تدرى أنها لا تحبه. وقد لا تدرى لماذا لا تحبه. ولكن تدرى فقط أنها مستفزة منه، وأنها تستريح نسبيا، إذا استفزته، وهو لا يعرف سببا لهذه المشاكل المستمرة والمضنية؛ لأنه لا يعرف أنها لا تحبه. فهو يعتقد أنه مؤهل لأن تحبه أى امرأة. فهذا هو شأن الذى يكذب؛ لأنه يكذب أولا على نفسه، وهذا هو شأن المغرور والنرجسى.

والمرأة معذورة؛ لأن هذه الصفات إن وجدت تتناقض مع الرجولة الحقة. فالكذب ضعيف، والمغرور لديه نقص شديد فى إحساسه بذاته، والنرجسى ليس لديه مساحة حب وعطف الآخرين. وهذه الصفات لابد أن ينجم عنها صفة أخرى وهى العدوانية؛ لتعويض مشاعر الضعف والنقص والجمود الوجدانى

معذورة المرأة؛ لأنها تفقد الإحساس برجولة الرجل حيث يصبح فى عينيها وفى قاع وجدانها بيقين تفكيرها.. لا رجل.

زوج بـلا مواهـب..

قـد يكون الرجل مـحـدودا جـداً فى إمكانيـاته وقـدرته؛ أى بلا مواهب. لا شىء يميزه. لا يلفت الأنظار ولا تستدير ناحيته الرءوس.

لا يتمتع بأى وسامة؛ أى متواضع جداً فى شكله الخارجى وجها وجسدا.

متواضع فى مظهره. فثيابه بسيطة، وربما غير متناسقة بعضها مع البعض.

متواضع فى درجة تعليمه. وبالتالى فى مكانته الوظفية. لا يتمتع بطموح كبير؛ غير براق وغير لامع فى موقعه. ولكنه واحد من ضمن ملايين القوى العاملة.

وهو متواضع أيضا فى درجة ذكائه. من الممكن أن نقول إنه متوسط الذكاء. ومتوسطو الذكاء يمثلون ٦٠ ٪ من مجموع أى شعب. وهذا الذكاء المتوسط لم يتح له فرص الوثوب اجتماعيا ووظيفيا. وهذا الذكاء المتوسط لم يتح له فرص اغتنام الفرص أو خلق الفرص، ولم يتح له أن يتنبه إلى الوسائل العصرية أو مقتضيات العصر الممكنة التى تتيح لمن يتنبه إليها أن يُحسن من نفسه وأن يرقى وأن يرتفع وأن يتطور.

ولكل ما سبق فهو محدود فى إمكانياته المادية؛ لم يرث عن أسرته أى شىء. فهو من أسرة متوسطة الحال جداً، ولم يهتم كثيرا فى أى وقت من الأوقات بجمع المال. لم يبحث عن الطرق والوسائل، لم يكن من أحلامه أن يصير غنيا. لم يجر ريقه على الأشياء الثمينة فى الحياة، ولم يؤرقه أن يمتلك الآخرون مثل هذه الأشياء الثمينة.

ولم يكن يمتلك أى موهبة خارقة أو خبرة وبالتالى لم يستطع أن يكون بطلا رياضيّا أو عالما أو موسيقيّا أو كاتبًا مؤلفًا أو ممثلاً، كان إنسانا عاديا جداً.

وإذا أردنا باختصار أن نعطيه درجة فى السلم الاجتماعى الوظيفى المادى الشكلى فإنه لا يزيد على ٥/ ١٠ أو ٦/ ١٠.

كان انطوائيا؛ ولكن كان له عالمه الداخلى. فلديه شعور عميق بالأشياء من حوله ولكن يتجاوب وجدانيا بالقدر الكافى والملائم من فرح وحزن وألم وشفقة وعطف وأسى وندم. شعر بحزن هائل يوم مات أبوه ويوم مات عمه. فقد شهيته للطعام واضطرب نومه مالا يقل عن أربعين يومًا. وشعر بنفس الحزن يوم مات ابن جاره فى حادث. بل ربما كان أكثر حزنا من جاره صاحب المصيبة ذاتها، واستمر حزنه وقتًا طويلاً. وشعر بفرح طاغ يوم انتصار فريق الكرة المصرى على منافسه فى مباراة دولية. ليلتها لم ينم من شدة الإثارة. وشعر أيضا بفرح هادئ يوم تصالح جاران فى نفس البيت الذى يعيش فيه بعد خصام طويل. وَسُرَّ خاطره حين علم أن شقيقه الأصغر استطاع أن يشترى سيارة بعد عودته من الإعارة.

وكان يتألم بصمت حين كان رئيسه يتجاهله فى المكافآت والحوافز ويقلل من درجته فى التقارير السرية . وكان يتألم أكثر حين يصدر تصرف خبيث من أحد زملائه يقصد به الدس والوقيعة والإساءة . ولم يكن يرد على هذه الإساءات لأنه كان قد وصل إلى اقتناع أنه لا جدوى ولا فائدة ، وأن أحدًا لا يتغير . وكان يدعو لهم أحيانًا بالهداية والمغفرة .

أما أعظم المشاعر فقد كان يحملها لأسرته ؛ وخاصة أمه العجوز المريض والتى كانت تعيش معه بعد وفاة أبيه . كان يسهر على رعايتها لاينام قبل أن يطمئن لنومها ولا يأكل إلا بعد أن يطعمها ولا يشترى لنفسه أى دواء أمر به طبيب إلا بعد أن يشترى كل أدوية أمه التى تحتاجها شهريا بشكل منتظم . وكان لا يشترى لنفسه أى ملابس وخاصة فى الشتاء إلا بعد أن يطمئن أن أمه تنعم بالدفء الكامل . وكان يفعل نفس الأشياء تقريبًا مع شقيقته التى تزوجت من رجل رقيق الحال يصنف مع المعدمين . لذلك كانت أسرة شقيقته معرضة دائما لأزمات اقتصادية طاحنة وخاصة حين يمرض أحد أبنائها . . ولذلك لم يكن يتبقى معه من مرتبه الشهرى إلا مبلغ ضئيل جدًا كان يحرص على توفيره تحسبًا لأى أزمات مفاجئة . وخاصة أنه كان يكره جدًا أن يضطر للاقتراض وكانت فكرة الاقتراض تزعجه جدًا ، كان دائم الدعاء بالستر .

ورغم ميله المعتدل الذى يتناسب مع شبابه ناحية الجنس الآخر إلا أنه كان يغض البصر فى كل موقف وخاصة فيما يتعلق بجيرانه وزميلاته فى العمل . كان يعرف كيف يكبح جماح رغباته وكان يتغلب على مثل هذه الأحاسيس بالإكثار من الصلاة والصوم .

إلا أن فكرة الزواج كانت تشغل باله فى كل وقت . حنين غريب لأن يتزوج وأن يعيش مع امرأة هى زوجته وأن ينجب منها بنات وصبيانا وأن يكون مسئولا عن هذه الأسرة، لم يكن حنينا للمرأة وإنما حنين للزوجة . ولم يكن حنينا للجنس وإنما حنين للسكن إلى زوجه؛ حنين لتبادل الرحمة والمودة مع امرأة صالحة . أدرك أن مشاعره هذه نظرية . شعر أنه خُلق ليعيش مع أسرة؛ زوجة وأطفال . شعر أن هذا هو حلم حياته . لم يطمع فى مركز أو جاه أو سلطان أو مال . لم يعر هذه الأشياء أى اهتمام ولم يكن يرى أنها تساوى أى شىء، بل كان يعتقد اعتقادًا راسخا أنها أشياء لا قيمة لها . أما ما يساوى حقًا، أما الذى له قيمة كبيرة فهو أن يكون للإنسان أسرة .

وكانت شروطه فى الزوجة مقارنة أو مطابقة لأى إنسان . وإذا كان يتمنى أن تشعر بقيمة أهمية الزواج والأسرة، وأن تحبه وأن تقدر مشاعره وأن تكون نعم السكن، وأن تبادله المودة والرحمة وأن يتعاونا معا ويتشاورا فى الحلوة والمرة . وأن تكون طيبة؛ وهذا معنى يشتمل على أشياء كثيرة فى نظره . وأن تكون عارفة بربها مصلية صائمة مزكية؛ وهذا فى تقديره يعنى أن تكون فاضلة ويضمن أن تكون مخلصة . ولكن أهم شروطه فى الحقيقة هو أن تقبل أمه وترعاها وترحمها .

ومقابل ذلك كان يتعهد أمام الله أن يكون هو أيضا نعم الزوج حبًا وعطفًا وحنانًا ومساندة ومشاركة واحتراما وسماحًا وتحملا للمسئولية وإخلاصًا لها مدى الحياة .

لكن العين بصيرة واليد قصيرة .

وتقدم به العمر قليلا حتى استطاع أن يجمع مبلغا متواضعا من المال .

وبدأ فى اتخاذ الخطوات العملية الفعلية . وكانت البداية أن ينشرح صدره لفتاة . ليس لجمالها وإنما انشراح ربانى ونورانى مثلما يدعو الإنسان ربه أن يشرح صدره . إنه إحساس شامل بالرضا والسرور والقبول والإقبال والحماس ، ثم بعد ذلك يطمئن إلى أهلها وخلقها ، ثم يتوكل على الله ويأتى البيوت من أبوابها .

ورفض فى مرتين ، واهتزت ثقته بنفسه ، وأصابه بعض اليأس ، وكف عن البحث ، وطرح حلمه جانبًا ، وظن أنه لن تقبله فتاة فى ظل ظروفه المحدودة شكلا وموضوعا .

والحقيقة لابد أن نوضحها أنه لم يكن النموذج الذى يعجب أى فتاة ، فهو محدود فى كل شىء . ولم يكن أحد يعرف أى شىء عن عالمه الداخلى ، وعن عالمه الخاص ، فقط الناس يعرفونه بصورته الظاهرية . وهى صورة فقيرة متواضعة .

حتى أرسل الله من السماء فتاة جديدة لتعمل فى نفس مكان عمله . وكان بينهما تعامل فيما يقتضيه العمل . وإذا به يجد ـ ولأول مرة فى حياته ـ أن هذه الفتاة تتحرك ناحيته . هكذا أخبره إحساسه الداخلى واندهش ؛ فقد كان يعرف قدر نفسه ، أو عرف قدر نفسه أخيرًا ، وأنه من المستحيل أن يثير انتباه أى فتاة . ولكن هذه الفتاة انجذبت إليه بشدة بالرغم من أنها كانت على مستوى معقول من الجمال والمظهر والذكاء والكفاءة . ومن الممكن أن تشد انتباه أى شاب يفوقه فى أشياء كثيرة .

أى شيء شدها إليه!! أىُّ سر فيه!! أى موهبة خفية!! أى جمال دفين!! أى إمكانيات مخزونة، أى طاقات منه؟!!

وانشرح صدره، وتجرأ، وطرق الباب، وقالت له هذا أسعد يوم فى حياتى..

وبعد سنوات من زواج سعيد تجرأ للمرة الثانية وسألها أى شيء أعجبك فىّ؟

قالت: كل شيء، لقد استطعت أن أرى الإنسان داخلك؛ استطعت أن أصل إلى جوهرك؛ استطعت أن أنفذ إلى روحك. استطعت أن أصل إلى أعمق أعماق ذاتك وأن ألمس جوهر وعيك. وأحسست أنك أيضا استطعت أن تصل وتنفذ إلى جوهرى وأن تلمس ذاتى وأن تحيط بروحى. حدث انكشاف جوهر كل منهما للآخر. فتحولت فى عينى إلى كيان نورانى يفيض بالجمال والخير والبركة. فأحسست بالطمأنينة، وأكدت الأيام صدق أحاسيسى؛ فوثقت بك، أدركت صدقك، وشغفت بك، وتمنيت أن أكون زوجة لك وأن تكون زوجا لى. تمنيت أن تسكن عندى وأن أمنحك حبى ومودتى ورحمتى؛ أن أعطيك؛ أن أرعاك. فأنت تستحق.

ومع الزواج من هذه الإنسانة الصالحة تكشفت قدرات طيبة لهذا الرجل الصالح. فتحمل مسئولية الحياة بجدية وإخلاص. كان راعيا أمينا وشريفا، وكان كريما، وكان مخلصا، وكان أيضا حازما فى توجيه زوجته والحفاظ عليها وحمايتها.

ورغم قسوة الحياة وصعوبتها لم يضعف فقط. لم يمد يده إلى الفراش الحرام. كافح بشرف وعناء، وبارك الله فى القليل، وكانت الزوجة راضية قنوعة.

ومنحها حبا لم تكن تحلم به من أعظم مؤلفى الروايات العاطفية. وكان حبه حنانا مكثفا وعطفا زائدا واحتواء شديدا. هكذا تكون عفويته وشغفه بها وميله الطاغى إليها واحترامها وتقديرها والإحساس بروعتها فى كل شىء.

عاش الحياة بحلوها ومرها، وأنجبا صبيانا وبنات. وواجها صعوبات كثيرة وأزمات طاحنة، ولكن إجمالا سعدا بحياتهما، وتحقق حلم كل منهما؛ حلم الأسرة. وهو حلم كل إنسان نقى، حتى وإن كان بلا مواهب.

رجل ضعيف
وامرأة قوية

يشكو رجل من أن زوجته عنيفة، حادة، عصبية عنيدة، متسلطة. وقد يكون أكثر تحديداً فيقول إنها تريد أن تمارس دور الرجل فى البيت. ولا أحد يعرف هل هو يشكو من قوة زوجته أم من ضعفه هو؟ وهل ضعفه نتيجة لقوة زوجته أم أن قوة زوجته هى نتيجة لضعفه هو؟ هل هو صراع بين قوتين؟ وأين تكمن هذه القوة؟ هل هى قوة الشخصية..؟ وهل هناك ما يسمى بقوة الشخصية..؟ أم هو الفرق فى القدرات الذكائية حيث تتفوق زوجته عليه فى الذكاء؟

الرجل يشكو ويتألم لأن المفروض شيء والواقع شيء آخر. والمفروض أنه هو الذى يجب أن يقود ويحكم ويسيطر، وأن كلمته يجب أن تطاع وأن الزوجة يجب أن تكون خاضعة مطيعة مستسلمة.

وتضطرب الحياة الزوجية اضطراباً شديداً؛ ولكنها تستمر؛ وتزداد الزوجة سيطرة وتسلطاً ويزداد ضعفاً ورضوخاً.

وهذا نموذج أسرى نراه فى الحياة. ربما ليس كثيراً ولكنه موجود.

والصراع يبدأ منذ اللحظة الأولى فى العلاقة. وهو صراع طبيعى ويتم بشكل تلقائى؛ صراع بين شخصيتين وصراع بين عقلين يتمتع

كل منهما بدرجة معينة من الذكاء. يبدأ الصراع فى قمته حيث الخوف والقلق والتوقع والترقب والتحفز والتحسب؛ صراع بين قوتين عليهما أن تذوبا وتتحدا، وفى نفس الوقت يحب كل منهما أن يحتفظ بتفرده واستقلاليته وحريته وإرادته.

والأمور منذ البداية تسير بشكل طبيعى وتلقائى. أى لا يستطيع أحدهما أن يخطط؛ فالإنسان وهو يؤدى دوره الذكرى أو دوره الأنثوى لا يكون مدركا أنه يؤدى هذا الدور. فالطبيعة أو التكوين يملى بعض جوانب هذا الدور. كذلك طبيعة البيئة والمجتمع والثقافة السائدة تملى أيضًا بعض جوانب أخرى لهذا الدور.

وفى كل المخلوقات هناك ذكر وأنثى. والتكوين الشكلى الخارجى وكذلك التكوين الداخلى لكل منهما يختلف عن الآخر، وأيضًا سلوكيًا يختلف كل منهما عن الآخر. لذلك فإن تعدى أحدهما على الآخر يؤدى إلى خلل فى العلاقة. والتعدى بمعنى التعدى على الدور والانتقاص من دور الطرف الآخر. وهذا يزعج الرجل جدًا على وجه الخصوص حيث يشعر أن المرأة القوية تنتقص من دوره الرجولى.

والحقيقة أن المسئولية قد تقع على عاتق الرجل فى البداية؛ فهو الذى يحدد للمرأة حدود دورها. فالمرأة إذا وجدت أمامها مساحات مفتوحة بلا حدود فإنها توغل فيها، فهى لا تعرف حدودًا تقف عندها وذلك لتقاعس الزوج عن تأدية دوره إما لعيوب فى شخصيته وإما لتواضع فى ذكائه بالنسبة لزوجته التى تفوقه ذكاءً، وإما لنقائض معينة

يشعر بها تجعل المرأة أكثر تفوقًا فى الناحية الاجتماعية أو الثقافية أو التعليمية أو الاقتصادية أو كل هذه الأشياء مجتمعة.

إذن هو صراع بين قوتين ـ منذ البداية ـ ليحدد كل منهما الحدود. والرجل يتحمل المسئولية الأولى؛ إذ المرأة فى البداية ترقب وتلاحظ وتختبر. كل ذلك بفطرتها، وأى حق تنازل عنه الرجل تكسبه هى، وأى مساحة يتركها الرجل تقفز إليها. أى يتنامى دور الزوجة على حساب تراجع الزوج. حتى نصل إلى مرحلة الخلل الشديد. والرجل يشكو ويتألم فهى غير سعيدة بقوتها التى نشأت على حساب ضعف زوجها، وهى لا تحب لزوجها أن يكون ضعيفًا ولا تحب لنفسها أن تكون قوية على حساب ضعف زوجها.

والحقيقة أن القضية ليست ضعفًا وقوة وإنما هى أدوار ومسئوليات وحدود ومساحات، والقوة بمعنى التعدى على حدود الدور الآخر، والضعف بمعنى الانسحاب من الحدود الطبيعية للدور والسماح للطرف الآخر بالتجاوز.

إذن الرجل غير سعيد بضعفه.

والمرأة غير سعيدة بقوتها.

وهذه ظروف غير صحية لتنشئة الأولاد والبنات حيث يحدث تشوش فى أذهانهم لدور كل منهم فى الحياة، ويكون الزوج نموذجا فاشلا للتوحد الذكرى وتكون المرأة ـ أى الزوجة ـ نموذجا فاشلا للتوحد الأنثوى.

وكـمـا أن الرجل هـو المسـئـول الأول عن هـذا النمـوذج الأسـرى الفـاشل فـإن المرأة أيضـا قـد تكـون هى المسـئـولـة الأولى فى بعض الأحيان. إن هناك شـخصية تتميز بالصلابة والعند وعدم المرونة وروح التـحدى وحب السلطة والتسلط، وخـاصـة إزاء الرجل. هـذا تكوين خاص، وربما هو تكوين أقرب إلى الطبيعة الذكرية. وهذا أمر يمكن تصـوره من الناحية العلمية حيث يحدث خلل ما غير معروف حتى الآن فتولد فتاة بتكوين أنثوى فسيولوجى هورمونى كامل وتنمو كامرأة كاملة ولكنهـا تحمل طياتـهـا ـ نفسًا وعـقلاً وإحساسًا ـ لتكوين رجل. فهى امرأة من الناحية الشكلية الفسيولوجية وهى رجل من الناحية النفسية العقلية. هذه المرأة تشعر بمرارة شديدة لهذا الانقسام الذى تعيشه، وهى فى قرارتها تتمنى أن تصبح رجلاً؛ ولكنها لا تستطيع. ومطلوب منها أن تؤدى دور الأنثى، ولكنها تكره ذلك. ولذلك فهى تحقد على الرجل، ولكنها مضطرة أن تتزوج، وأن تحيض كل شهر، وأن تحمل ـ لابد من وجود رحم بداخلها ـ وأن تصبح أمًّا، وأن ترضع الوليد أو تكون مسئولة عن إطعامه.. وهكذا. أى أنه مفروض عليها دور الأنثى التقليدى. وهى تكره وترفض هذا الدور، وترنو بعينها إلى دور الرجل. ولذلك تنازعـه فى دوره؛ تبـغى؛ تتـعـدى؛ تزاحم.. وتكون مؤهلة فعلاً من الناحية النفسية لأن تؤدى دور الرجل. وتقتحم كل مـجـالات الرجل، ويكون ذلك على حـسـاب التـقـصـيـر فى أداء دورها الأنثـوى إذ لا يمكن لإنسـان أن يؤدى الـدورين مـعًـا بكفـاءة عالية. وهذه المرأة إذا تزوجت رجلاً حقيقيًّا ينشأ صراع حاد ومرير منذ اللحظة الأولى للزواج. وغالبا هذا الزواج ينتهى إلى طلاق. فالرجل

الحقيقى لا يستطيع أن يتراجع عن أداء دوره، ولا يسمح لزوجته أن تتعدى حدود دورها الأنثوى، بل لا نرضى أن تقصر فى أداء هذا الدور. لذلك يحدث الانفجار ثم الطلاق . .

هذه المرأة لكى تستمر حياتها كزوجة فإنها تحتاج إلى رجل متواضع فى قدراته. رجل يقبل منذ اللحظة الأولى أن يتراجع عن أداء دوره بالكامل بل هو لا يستطيع أداء هذا الدور. لذلك فهو يحتاج إلى امرأة قوية، أو امرأة أكثر ذكاء منه، أو امرأة أكثر قيمة منه، ويلعب هو دور التابع ويتنازل برضا عن دور الرجل الأول. تحت هذه الظروف يستمر هذا الزواج، ولكن رغم ذلك يظل الرجل غير سعيد، وغير راض، ودائم الشكوى، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا؛ بل هو لا يريد أن يفعل شيئا. وتستمر الحياة. وكذلك تكون هذه المرأة غير راضية؛ إنها منقسمة على نفسها؛ فهى ليست امرأة بالكامل، وليست رجلا بالكامل. وكم تتمنى أن تصبح رجلا لتمارس دورها الحقيقى. أو كم تتمنى أن تصبح أنثى بالكامل وتمارس الدور الأنثوى الحقيقى. ولذلك فهى تحسد الرجال، وهى أيضًا تحسد النساء الحقيقيات وخاصة المتزوجات من رجال حقيقيين.

ومن الصعب أن ترجع القضية كلها وبرمتها إلى خلل فى التكوين الفسيولوجى. فتقول ببساطة إن هناك رجلا غير كامل وبالتالى غير مؤهل لأداء دوره الذكرى بالكامل وأن هناك امرأة غير كاملة وبالتالى غير مؤهلة لأداء دورها الأنثوى بالكامل. من الصعب أن نبسط الأمور إلى هذه الدرجة، وخاصة أنه لا توجد دلائل على المستوى المعملى البحثى تثبت هذا الرأى، ولكنه مثبوت على المستوى الأكلينيكى.

ولكن هناك عوامل بيئية ثقافية أخرى تشكل حدود الأدوار وتشكل طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وتحدد النظام الأسرى والتفاعلات داخله. ويمكن القول بأن هناك مجتمعات ذكرية بمعنى أنها تُعْلى الدور الذكرى وتعطى للرجل المسئولية الأولى وحق القيادة والقوامة والرعاية. وهناك مجتمعات أنثوية وهى التى استطاعت فيها المرأة أن تثور وتصرخ على أولوية الدور الذكرى وأحقيته السلطوية، واستطاعت أن تنازعه هذه المكانة بدعوى المساواة إن لم يكن التفوق عليه إذا كانت تملك من الوسائل والإمكانيات والمواهب ما يجعلها تتفوق؛ حتى وإن كان ذلك على حساب الشكل الأسرى التقليدى التراثى. حتى وإن دفعها ذلك إلى التضحية بحياة الأسرة وتفضيل حياة الوحدة والحرية بدلا من أن تخضع لرجل.

وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح، ولكن ما هو هذا الصحيح؟

الصحيح هو مجرد افتراضات نظرية على الورق ومن وحى الخيال والتصور الشخصى البحت.

ولكن الصحيح الواقعى العملى الحياتى هو أن كل علاقة بين زوجين هى علاقة خاصة جدًا. كل علاقة لها ظروفها الخاصة وطبيعتها الخاصة التى تمليها الصفات الشخصية لكل من الزوجين، حيث اختلافات الشخصية، حيث اختلاف درجة الذكاء وحيث الموروثات البيئية الثقافية. كل إنسان متفرد بذاته، وكل علاقة زوجية متفردة بذاتها، وكل زوجين يتوافقان معًا حسب درجة الذكورة

ودرجة الأنوثة فى كل منهما . التكوين الذكرى الكامل سيسمح للأنثى أن تعرف حدود دورها وتؤديه برضا وتسعد بهذا الدور وتسعد برجولة زوجها المتكاملة والتكوين الأنثوى الكامل السوى سيسمح للرجل بأن يؤدى دوره بالكامل ويسعد به ، وبذلك يتحقق انسجام وتكامل وتوافق لا يمكن أن يتحقق إلا للأسوياء .

ونعود إلى صديقنا الرجل الذى يشكو من قوة زوجته وعنفها وتسلطها فنقول له :

«الشكوى بعد هذه السنوات الطويلة من الزواج تعنى أنك لا تستطيع الانفصال عنها . لقد استمرت حياتك لأنك أردت الاستمرار ، ولو كانت لك اعتراضات حقيقية لكنت قد أنهيت العلاقة منذ البداية . بل لعل زوجتك بتسلطها وعنفها واستبدادها تلبى احتياجات نفسية معينة عندك . أنت راض ولكنك تعترض ، واعتراضك باللسان فقط . فاستمر لأنك لا تستطيع أن تغير حياتك بل أنت لا تريد حقيقة أن تغير حياتك . وربما لو أتينا لك بزوجة مطيعة مسالمة خاضعة لما استطعت أن تؤدى معها الدور الذكرى الكامل ولما استطعت أن تلغى دور الرجل الأول . فهكذا أنت ، وهكذا زوجتك ؛ ولذلك استمرت بكما الحياة» .

إن طبيعة العلاقة الزوجية تتحدد منذ اليوم الأول ؛ أى منذ البداية . وطبيعة بكل أشكالها هى طبيعة سوية . والشذوذ هو الاستثناء . فى الصباح تشرق الشمس وفى المساء تغرب ، ويظهر لنا القمر ، ويتعاقب الليل والنهار ، وتهطل الأمطار ، وتنمو الزهور ، وتهب النسائم الرقيقة . أما العواصف والزلازل والبراكين فهى استثناءات شاذة .

وفى كل لحظة يلتقى ذكر وأنثى؛ ينجذبان؛ يتزوجان؛ وتسعد الأنثى بأنوثتها؛ تعشق دورها؛ تنتشى وتتلذذ بأداء هذا الدور. هكذا بفطرتها السوية، وكذلك يزدهى الرجل ويتحمس ويقوى لأداء دوره الذكرى. يظلهما سقف. ويغلق من دونهما باب، ويضجعان معًا؛ فينجبان، ويسعدان بقدرتهما على أن يهبا الحياة حياة. ويعطف الرجل على زوجته، وتحنو هى على زوجها، وتسود بينهما المودة والرحمة. شىء أسمى من الحب؛ شىء فوق الحب.

أما الاستثناء، والاستثناء النادر جدًّا هو زوجة سليطة اللسان غليظة القلب جافة العقل، ورجل مكسور الجناح ضعيف الحيلة محدود فى إرادته؛ وربما محدود فى رجولته. ويستمران؛ لأنهما هكذا ينسجمان، ولكنه انسجام الشواذ.

نقص الرجل
وتفوق المرأة

تفوق المرأة على الرجل اقتصاديا أو علميا أو مهنيا أو اجتماعيا من الموضوعات الحساسة التى تحتاج إلى تناول دقيق ورقيق وبحساسية خاصة، حيث إن هناك زيجات ناضجة (بمعنى أن الطرفين سعيدان) رغم تفوق المرأة هناك زيجات فاشلة (بمعنى تعاسة الطرفين) برغم تفوق الرجل. إذن نجاح أو فشل الزواج لايتوقف بالدرجة الأولى على تفوق المرأة أو تواضع إمكانيتها أمام إمكانيات زوجها؛ وخاصة أننا نتحدث هنا عن الإمكانيات المادية أساسا. ولهذا فإذا قصرنا الدراسة على الإمكانيات المادية فسنجد أنها لا تؤثر كثيرا على التوافق الزوجى، وأن الزيجات التى تفشل بسبب التفوق المادى للزوجة يرجع الفشل فى النهاية إلى أسباب نفسية متعلقة بالتكوين النفسى للزوج ويكون التفوق المادى هو القشة التى قصمت ظهر البعير أو هو السبب فى تفجير الصراعات النفسية التى يعانى منها الرجل وخروجها إلى السطح وإطاحتها بسعادة الزوجين.

أما إذا تطرقنا إلى مجالات التفوق فى الذكاء والشخصية والثقافة؛ فإننا سنجد حالات خلل حقيقية وخاصة إذا كان التفوق والتميز فى

صالح الزوجة . إذن التفوق المادى يحتمل مرتبة ثانوية فى الأهمية ، وتأثيره على الزواج محدود ، وهذا التأثير راجع لمشكلة عند الزوج . فأحاسيس النقص ليس بالضرورة أن تكون حقيقية ، ويمكن أن يكون مبالغا فيها . وقد لا يكون هناك أى نقص ، بل الزوج هو المتميز والمتفوق فى كل المجالات ولكنه بالرغم من ذلك يشعر بالنقص . وهذا الشعور بالنقص هو الذى يتحكم فى سلوكه تجاه زوجته وموقفه منها . يحدد أفعاله وردود أفعاله ويجعله حساسا إلى درجة تجعل التعامل التلقائى معه صعبا . والحساسية بمعنى التأثر بدرجة عالية لا تتناسب مع حجم أو موضوع المؤثر أو المثير ، وكذلك رد الفعل الحاد المبالغ فيه ؛ والذى لا يتناسب مع الموقف .

والسؤال الذى يقفز إلى الأذهان منذ البداية هو : لماذا يقدم الرجل على الزواج من امرأة أكثر تفوقا وتميزا منه . . . ؟

ولكن قبل هذا السؤال ، أتصور أنه يجب أن يكون هناك سؤال آخر وهو : من أين جاء الافتراض أو التصور أن الوضع الصحيح هو أن يكون التفوق والتميز لحساب وصالح الرجل؟ أى أن الوضع الطبيعى هو أن يكون الزوج متميزا على زوجته فى كل أو معظم المجالات . أى يأتى هو فى المرتبة الأولى وتأتى هى فى المرتبة الثانية . . ولماذا الافتراض؟ . . إنه إذا حدث العكس ، أى تفوقت المرأة فإن المتوقع لهذا الزواج أن يفشل أو أن تواجهه صعوبات شديدة .

وإجابة على السؤال الثانى قبل السؤال الأول نقول إن هذا تراث ؛ تراث من الصعب أن نرجع إلى أصله وبداياته . ولا نستطيع أن نرجع

إلى أسبابه؛ تراث يملى ويفرض أن يكون الرجل متفوقا أو على الأقل مساويا لإمكانيات زوجته. ولا ندرى هل هذا التراث بسبب أن الرجل كان متفوقا منذ البداية؛ أى أن هذا هو أصل الحكاية أصل الخلق. وذلك لأن للرجل دورا معينا يجب أن يؤديه فى الحياة وأن يؤديه تجاه أسرته وتجاه زوجته، وأنه لا يتاح له أن يؤدى هذا الدور بكفاءة وفاعلية إلا إذا كان متفوقا ومتميزا فى مجالات معينة وأن خللا شديدا يحدث فى الحياة، ويحدث فى العلاقة الزوجية إذا كان التفوق فى هذه المجالات كان لصالح المرأة!!

ليس أمامنا إلا أن نقبل هذا الافتراض الذى يتعلق فى معظم المخلوقات وأن الدور الأنثوى متشابه أيضا فى معظم المخلوقات.

نعود إلى السؤال الأول: إذا كان هذا هو التراث المورث فلماذا يقدم الرجل وبإرادته على الزواج من امرأة تفوقه مالا أو جاها أو علما أو ثقافة..؟

فى البداية قلنا إنه يجب أن نفرق بين الإمكانات المادية المحضة وبين الإمكانات الذكائية العلمية الثقافية..؟

قبول الرجل أو إقباله على الزواج من امرأة تفوقه ماديا يرجع أحيانا إلى أسباب تتعلق بالظروف الاقتصادية التى نعيشها. فالمرأة بإمكانيتها الاقتصادية الأفضل تستطيع أن تتيح لهذا الزواج أن يتم وتستطيع أن توفر حياة أفضل وأمتع على المستوى المادى الحسى. وبعض الرجال لا يمانعون فى هذا، وبعض الرجال لا يستطيعون إلا هذا.

والتفوق المادى للمرأة قد لا يسبب عقبة فى توازن العلاقة بين الزوجين وخاصة إذا كان الزوج واثقا بنفسه وإذا كان يملك إمكانيات أخرى تجعله أكثر تفوقا، وبالتالى أكثر سيطرة على مجريات الحياة، كأن يكون متفوقا فى علمه وذكائه وثقافته ووظيفته. والنقص المادى فى هذه الحالة لا يجعله يشعر بأى عجز. إذن الأمر يعتمد على ثقة الرجل بنفسه. وبالتالى قدرته على أداء دوره الرجولى بالكامل. ويعتمد أيضا على مدى إدراك هذه الزوجة لزوجها وإحساسها بأنوثتها الحقيقية أمام رجولته الحقيقية. وبالتالى فهى لا تشعر بتفوقها المادى؛ فالتفوق أو الإحساس بالعجز أحاسيس ليست مرتبطة بصورة مباشرة بالواقع.

ولكن الخلل فى العلاقة يحدث إذا شعر الرجل بعجزه وإذا شعرت المرأة بتفوقها. هذه الأحاسيس السلبية ستؤثر على إدراك كل منهما للآخر وستخلق درجة معينة من الحساسية تؤثر على موقف كل منهما على الآخر.

وفى الأحوال غير الطبيعية قد يتزوج الرجل من امرأة غنية طمعًا وشرهًا وحبًا فى المال. وبالتالى يحقق طموحه المادى عن طريق امرأة. وقد يستغل عيوبا معينة فى هذه المرأة فيشعرها أنه رضى بالزواج منها بالرغم من هذه العيوب وعليها أن تسدد الفرق من مالها. كأن تكون أكبر منه سنا بدرجة كبيرة، أو تكون متواضعة الجمال ويتاجر هو بشبابه وقوته ووسامته معها. إذن هو زواج مقايضة، وزواج طمع. زواج يعتقد فيه أحد الأطراف أنه هو الأقوى وأن الطرف الآخر هو الأضعف أو هو المحتاج المضطر. إنه زواج

المنفعة وزواج الاضطرار وزواج الحاجة. وهو محكوم عليه بالفشل منذ البداية. زواج يسبب جرحا فى كل يوم. زواج يزداد فيه الألم والمرارة كل يوم.

أما حين يتزوج الرجل امرأة تفوقه علما وثقافة وذكاء أو تفوقه فى مكانته الاجتماعية؛ فهو يحتاج إلى هذه المرأة المتفوقة؛ يحتاج إلى أفضل منه؛ يحتاج إلى امرأة أقوى منه؛ يحتاج إلى احتواء هذه المرأة له. إنه رجل يحب أن يكون فى الوضع الأدنى؛ الأضعف، يحتاج أن يكون فى الظل، يحتاج إلى أن يشير الناس إلى زوجته، يحتاج إلى أن ينتسب هو إلى زوجته لا أن ينسب زوجته إليه. وهو نفس الرجل الذى يتزوج من امرأة مشهورة. فهو يحب أن يقال عنه إنه زوج فلانة؛ أى يُعْرَفُ بزوجته. هذه احتياجات نفسية وفنية فى الرجل تتعلق بطفولته وتنشئته وتتعلق بعلاقته بأمه.. ويلعب مثل هذا الرجل دورا ثانويا وهامشيا فى حياة الأسرة.. فزوجته تتقدم عليه فى كل شىء. تسبقه فى التفكير وفى الرأى وفى التنفيذ. وهو لا يشكو، بل هو سعيد ومتوافق وهو الذى اختار منذ البداية.

وقد تكون الفروق بسيطة فى البداية بين الرجل والمرأة لحساب المرأة فى تفوقها وتميزها فى بعض المجالات. ولكن الظروف تشاء أن تتقدم المرأة بسرعة وتتفوق لذكائها وقدراتها الشخصية أو لموهبتها فى مجال معين. فتبرز علميا واجتماعيا وبالتالى اقتصاديا. بينما يظل الرجل فى موقعه أو يتقدم ببطء حسب قانون التطور الزمنى بينهما. فيشعر هو بضعفه، وتشعر هى بقوتها. وتشعر أيضا بضعف زوجها. وهنا يحدث خلل شديد فى العلاقة. يحدث اضطراب فى إحساس

الرجل بذاته؛ إحساسه كرجل؛ إحساسه كزوج. يفقد تدريجيا قدرته على السيطرة وقدرته على التحكم فى الأمور وتسييرها. تختل فى يده عجلة القيادة؛ يعقب ذلك خلل فى مشاعره تجاه زوجته؛ تختل صورتها الأنثوية، وبالتالى يتباعدان نفسيا، ويتباعدان عاطفيا. فالفراش الحقيقى لايكون إلا لرجل حقيقى وامرأة حقيقية. وقد يفقد هذا الرجل قدرته الجنسية تماما تجاه هذه المرأة بالذات. وقد تعمق وتدعم وتعزز الزوجة هذه الأحاسيس السلبية نتيجة لحالة الزهو والقوة والسلطة والتفوق والشهرة التى تعيشها فى الخارج؛ أى خارج البيت. وقد يبدو زوجها فى عينيها ضئيلا باهتا محدودا؛ فتتأثر مشاعرها هى نحوه. تفقد مشاعرها الأنثوية إزاءه، وتسىء معاملته؛ فيمتلئ البيت بالهواء السام؛ فينفصلان؛ أو يستمران تظلهما التعاسة والرفض والغضب والعداء الخفى أو الظاهر. . ويحاول الرجل أن ينتقم من زوجته ويعذبها بشتى الوسائل. وعدوانيته تكون بسبب إحباطاته، وتتعذب هى، ويتعذب هو أكثر، ويتشتت الأبناء لهذه الصورة الزوجية الأسرية الاجتماعية المهزوزة؛ ليتشتت ولاؤهم وليتشتت توجههم ويتشتت إعجابهم. إنها حالة من الفوضى النفسية. الرجل رافض ولا يستطيع أن يقبل أو يتقبل وأيضا لا يستطيع أن ينهض بنفسه ولا يستطيع أن يفعل شيئا. والمرأة لا تستطيع أن تطلب منها أن تتراجع وتتنازل وتتخلى عن إنجازاتها التى حققتها بذكائها وعلمها وثقافتها وموهبتها.

إنه وضع صعب وشائك ولا حل له؛ إنه خلل فى النظام؛ والنظام جاءنا من التراث؛ والتراث له أصل من الحقيقة. وربما هو تعبير عن

كل الحقيقة؛ حقيقة الرجل والمرأة ودور كل منهما فى الحياة وطبيعة العلاقة التى يجب أن تكون بينهما. والتوازن لا يأتى من تفوق أحدهما بالكامل وفى كل المجالات على الآخر. وإنما بأن يفضل الرجل المرأة فى مجالات متعلقة بأداء دوره وتفضل المرأة الرجل فى مجالات تتعلق بأداء دورها.

فضل الله المرأة فى أشياء وفضل الرجل فى أشياء أخرى. وبذلك لا يتعارضان وإنهما يتكاملان. وبذلك لا يشعر أحدهما بالنقص إزاء الآخر. وبذلك لا يتولى أحدهما الزهو إزاء الآخر. وإنما يشعر كل منهما بالاحتياج الصحى والطبيعى للآخر. هكذا فضل الله بعضهم على بعض. إنه التفضيل الذى يجعل أحدهما يحتاج إلى الآخر ليتكامل معه وليكتمل به. إن كل واحد منهما وحده منفرد غير متكامل منقوص مهما ملك ومهما اكتسب؛ ضعيف وحده؛ محدود وحده؛ ولا معنى لحياته وحده. فقط يكتمل ويشعر بالرضا والسعادة إذا التقى بالآخر وتزوج منه وعاش معه. وهذه حكمة الخالق عز وجل فى التفضيل، وهذا هو معنى الزواج. وهذا هو الهدف من الزواج؛ الزواج هو أن نعيش معًا حياة مستقرة ثابتة مستمرة خالدة. كل منا يكمل الآخر، كل منا يحتاج لوجود الآخر، كل منا لا يستطيع أن يعيش بدون الآخر. كل منا يحترم دور الآخر فى حياته. ولابد أن يقر فى ضمير كل منهما ووجدانه أنه لا سعادة ولا إشباع ولا رضا ولا طمأنينة ولا استقرار إلا فى وجود الآخر. ولا أن يشعر أحدهما أنه متميز على الآخر ولا يشعر أحدهما بالنقص عن الآخر. وينطبق هذا على الرجل وعلى المرأة. اكتمالاً وتكاملاً لا مساواة.

رجـــل وامـــرأة

الزوج يرفض المبـارزة؛ مع أنه من العـار أن يهـرب الرجل أو الفارس من النزال. المرأة تشهر سيفها والرجل يدسه فى غمده.. المرأة تكيل الاتهامات للرجل وتستفزه والرجل يبتسم بهدوء ويهز رأسه موافقا ولكنه لا يريد أن يجادل.

المرأة تصرخ وتقول. أريد حريتى. والرجل يقول لها: حريتك معك؛ افعلى ما يمليه عليك ضميرك ودينك وقيمك وأخلاقك وتربيتك وتنشئتك.

وتصرخ المرأة ثانية وتقول: ولكن هذه قيم موروثة وأنا أريد حرية الثورة على الموروثات. وبنفس الابتسامة الهادئة يقول الرجل: إذن قضيتك ليست معى ولكنها مع الموروثات ومع بقية النساء مع كل النساء؛ منذ بدء الخليقة وحتى الآن. لابد أن يكون الحوار بينكن لتصلن إلى أصل الحقيقة.

وتعود المرأة للصراخ وتقول : أنا ضد الرجل. أنا ضد أن تكون المرأة متاعا جنسيا للرجل. فيتساءل الرجل فى دهشة: ومن قال ذلك..؟ الجنس علاقة تبادلية؛ تحتاج إلى شريكين يعبر كل منهما عن رغبته للآخر. لا يوجد قانون سماوى أو أرضى يجبر المرأة على

أن تمارس الجنس مع زوجها بدون رغبة منها ؛ هذه بديهية ، ولا أتصور أنه توجد الآن ـ أو حتى من ألف سنة ـ امرأة واحدة تشكو من القهر الجنسى . هذه قضية نضالية زائفة عفا عليها الزمن . نريد ولو امرأة واحدة ترفع شكوى فعلية أنها تتعرض للقهر الجنسى من زوجها ، إن المتعة الجنسية عند الرجل ـ على المستوى الحسى البحت ـ ليست فى تحقق لذته ، وإنما فى أن يرى تحقق اللذة فى عينى زوجته . أما على المستوى الوجدانى الإنسانى فإن متعة الرجل تصل إلى أقصاها بإقبال زوجته عليه بفيض من مشاعرها .

إن الجنس فى الزواج غير الجنس الذى تتحدثين عنه .

وتعود المرأة للصراخ ، ولكن هذه المرة بصوت عال جداً : وأعترض أيضا أن تكون وظيفتى فى الحياة أن أكون أمّا ، أن أحمل وأن ألد . وجود الرحم داخل أحشائى لا يعنى أنه من الضرورى أن أستخدمه ليمتلئ بطفل .

أجابها الرجل ، لكن بيأس : ومن قال إنه لزاما على كل امرأة أن تحمل وأن تلد . هناك وسائل لمنع الحمل قد تصل إلى حد ربط الأنابيب أو إزالة الرحم كلية . وهناك وسيلة أخرى وهى الامتناع عن ممارسة الجنس مع الزوج . وهناك وسيلة ثالثة وهى أكثر فاعلية وأكثر جدوى للنساء اللاتى يعترضن على دور الأمومة وهى ألا تتزوج على الإطلاق . لا أحد يمنع المرأة من ألا تتزوج . عدم الزواج يعطى المرأة الفرصة لتمارس تحقيق ذاتها . هذه الذات التى تتشوش حدودها ومعالمها إذا قصرنا دور المرأة فى الحياة على أن تكون أمّا . لا أحد يجبر

المرأة على أن تكون أما، ولكنها إذا ارتضت أن تتزوج رجلاً يعيش فى هذا العصر فلابد أن تصل معه إلى اتفاق مكتوب أو غير مكتوب بشأن موضوع الأمومة وخاصة قبل عقد القَران.

ولكن وجود الرحم بين أحشاء المرأة هو فى الأصل من أجل الإنجاب. ووجوده مبرر كاف للإنجاب، ولقد أوجده الله فى المرأة بالذات ولم يوجده فى الرجل. وحين خلقه فى المرأة جعل لها نظاما هورمونيا خاصا يتحقق من خلاله الإنجاب. والدليل على ذلك هذا النزف الشهرى. وإذا اعترضت المرأة على هذا النزف الشهرى الذى قد يعطلها عن ممارسة نشاطها على الوجه الأكمل فإنها تستطيع أن توقفه عن طريق تعاطى الهورمونات أو الأفضل عن طريق إزالة الرحم. ووجود الرحم فى أحشاء المرأة وعلى جانبيه المبيضان مثل وجود الخصيتين عند الرجل كمصنع للحيوانات المنوية ولهورمونات الذكورة.

وإذا رأى الرجل أن دوره فى الحياة ليس فقط أن يكون أبًا فعليه فورا المطالبة بجراحة الإخصاء، ولكن حتما وبدون شك فإن وجود الخصيتين مكمل لدور الرجل فى الحياة وهو أن يصبح أبًا فى يوم من الأيام.

إن مبررات وجود الرحم هى نفس مبررات وجود العين. العين خلقت لنرى بها، ولا نستطيع أن نقول إن وجود العين ليس مبررا لأن نرى أو إنه لزاما علينا أن نرى ومن لا يريد أن يرى فليفقئ عينيه ويريحنا. والحمل ليس رغبة شخصية بدليل أن كل النساء يتمنين

الحمل. وفى أحوال نادرة جدًا تصل إلى حد الشذوذ ترى المرأة حفاظا على رشاقتها ألا تحمل لأن ذلك يتعارض مع طبيعة وظيفتها كراقصة أو لأن الحمل سيعوقها عن تحقيق طموحاتها ومشاريعها. وهذه هى حريتها الشخصية. حريتها الشخصية هى بالذات. وليس من الحرية أن نفرض هذا الرأى على كل النساء. ليس من الحرية أن نرسخ مفهوم أنه لا علاقة بين الرحم والحمل، أو وجود الرحم ليس مبررا لأن تحمل المرأة.

وتعود المرأة للصراخ بصوت لا تفهم كلماته من شدة ارتفاعه: وليس وظيفة المرأة أن تقوم على خدمة الزوج أو حتى خدمة أولادها، لا يجب أن ننظر إلى المرأة فى إطار أسرتها. المرأة يجب أن ننظر إلى ذاتيتها المتفردة خارج نطاق الأسرة. والمرأة هى المرأة، المرأة هى الإنسان، لا أن ننسبها إلى زوج وأطفال وأسرة. وبالتالى فهى ليس لها أى مسئوليات خاصة تجاه الأسرة، مسئوليتها تجاه نفسها فقط. وهذا هو المعنى الحقيقى للحرية، أى الذات المستقلة.

فيعود الرجل ويقول وقد زال أساه وحل محله لامبالاة: ومن قال إن كل امرأة يجب أن يكون لها أسرة؟ إن الحرية تبدأ وتتحقق عند نقطة الاختيار. هذا أحد جوانب الحرية، حرية الاختيار، اختيار من تحب، اختيار من تتزوج، اختيار الزوج كأسلوب حياة أو كشكل للحياة، اختيار الأمومة، اختيار الأسرة. ولكن حين تختار المرأة فليس من حقها أن تقول أنا شىء والأسرة شىء. فالأسرة نظام اجتماعى إنسانى تتم فيه علاقات وتفاعلات معينة. والمرأة تصبح جزءا من هذه العلاقات والتفاعلات، جزءا من نسيج لابد أن تتداخل

خيوطه وتتقاطع، ولكن بلا شك فإن استقلالية ذاتها تتحقق بصورتها الأكمل إذا قررت عدم وجود الأسرة.

ولا شك أن أي إنسان يعيش وحده في جزيرة مهجورة يتحقق له فيها الشعور بالذاتية المطلقة، بل من الصعب أن تكون مطلقة حتى في هذه الجزيرة المهجورة، وإذا كان فيها حيوانات وطيور وحشرات فعليه حينئذ أن يتعامل مع هذه الكائنات الحية مما يقلل من حدود إحساسه بذاتيته واستقلاليته، بل عليه أن يتفاعل مع النباتات الموحودة أيضا ومع الطبيعة من حوله من ليل ونهار وأمطار وعواصف. إن الإحساس بالاستقلالية والإحساس بالذاتية إحساس نسبي، وأي إنسان ولد في أسرة فهو جزء من النسيج الاجتماعي وحتى إن ولد في أسرة ورموه بعد ذلك في الشارع فإنه سَيُلتقط ويؤخذ في أسرة أو سيدفع به إلى ملجأ لليتامى لكي يعيش رغما عنه في السياق الاجتماعي؛ ليصبح جزءا من النسيج الاجتماعي.

ويحتاج الإنسان في داخل السياق الاجتماعي إلى نوعين من تحقيق الذات: ذاته المتفردة وذاته الذائبة في الجماعة. الإحساس فقط بذاته المتفردة معناه الشعور بالنبذ والرفض من الجماعة. والإحساس بذاته الجماعية معناه ضياع الهوية الشخصية. وهكذا في نطاق الأسرة لابد أن يشعر بذاته المتفردة القادرة على التفاعل الإداري الاختياري التلقائي الحر مع بقية أفراد الأسرة. وفي نفس الوقت ما دام ـ اختيارا ـ عاش مع الأسرة فإنه يحتاج إلى أن يذوب داخل هذه الأسرة في كيان واحد فيشعر أنه هو الأسرة.. أي أنهم هم جميعا الأسرة؛ شيء واحد لا أشخاص منفصلين. وليست هذه موروثات اجتماعية أملاها التاريخ

والتـراث ولكنهـا فطرة الإنسـان. أمـا الإنسـان المريض البـارنويد الاضطهادى الأنانى النرجسى المغرور المتعالى المتنفخ بجنون العظمة فإنه يرفض الذوبان فى المجموعة الصغيرة «الأسرة» ويرفض الذوبان فى المجموعة الكبيرة «المجتمع» ويظل يؤكد على ذاته المستقلة المنفصلة.

وإنسان مريض آخر - مرضا عقليا - يذوب تماما مع الجماعة غير مدرك لحدود ذاته فى حالة شديدة من تفسخ «الأنا» وضياع حدودها وملامحها، كلاهما مريض. أما التوازن الصحى الطبيعى الفطرى التلقائى فهو أن يعيش الإنسان ذاته المتفردة ويعيش ذاته المتوحدة مع الأسرة ومع المجتمع بغض النظر عن جنسه سواء كان رجلا أو امرأة.

ويبدو أن الحوار كان من طرفين حينما كانت المرأة تصرخ وتعترض فيستجيب لها الرجل. ويصبح من طرف واحد حين يستجيب الرجل ولكن تنتقل المرأة إلى نقطة أخرى.

لم تستجب المرأة لاستجابة الرجل وعادت تصرخ: المرأة لا يمكن أن تخضع لرجل. المرأة لا يمكن أن تقبل المعاملة الأدنى والدونية. هذا ضد إنسانية المرأة، المرأة لا يمكن أن تسلم قيادها لرجل، الرجل ليس هو الراعى والمسئول الأول. المرأة ليست هى التابع وليست هى الرعية.

وقال الرجل بدون اهتمام كبير: الأمر ليس خضوعا وتبعية وقيادة، إنها مسئولية مشتركة يتم فيها توزيع الأدوار. قد تلعب الموروثات دورا فى توزيع هذه الأدوار. ولكن من أين جاءت هذه الموروثات؟ وأى قدر من الصحة تتمتع به؟ وهل فى هذه الموروثات ظلم أو امتهان للمرأة؟ إذا شعرت المرأة بالظلم أو الامتهان فمن حقها

أن ترفض. من حقها أن ترفض المسئوليات التى يدعى الرجل أنها من اختصاصاتها. من حقها أن تنازعه هذه الاختصاصات، ومن حقها أن ترفض بعض مسئولياتها. وهذه هى النقطة الثانية فى مفهوم الحرية. كانت النقطة الأولى حق الاختيار. ثم تأتى النقطة الثانية وهى حق القبول والرفض. إن عقد الزواج المكتوب ليس هو كل شيء، وإنما هناك عقد آخر غير مكتوب يحمل شروطا غير مكتوبة ولكن يتم الاتفاق عليها ويتم تحريره ضميريا كل يوم وعند كل موقف وفى كل تعامل. إن الأمر يتوقف على شخصية كل منهما وإمكانياته وذكائه ومواهبه وقدراته وخبراته وتراثه البيئى الاجتماعى والثقافى. الأمر لا يتوقف على القدرة البدنية العضلية أو القدرة المادية، وإنما يتوقف على الشخصية والذكاء والعلم والثقافة والخبرة والجذور البيئية.. إنه «أنا» إزاء «أنت».

فى الحقيقة هناك أدوار تراثية موروثة ولكن حدود هذه الأدوار تتعدل حسب الإمكانيات الشخصية لكل منها. ولكن لا نستطيع أن نفلت أبدا من أن هناك جنسين؛ رجلا وامرأة. وأن الأدوار لها علاقة بالجنس؛ رجل وامرأة، وأنه لا يمكن تبادل بعض الأدوار وبعض المسئوليات، وأنه لا يمكن التنازل عن بعض الاختصاصات. الأمر ليس حربا وليس صراعا وليس نزاعا، القضية ليست تابعا ومتبوعا. المعاملة المهينة أصبحت غير مقبولة إنسانيا حتى من السيد للخادم، فالزواج أساسه الاحترام؛ احترام إنسانية كل طرف، وهو احترام ناشئ من التقدير والحب. الاحترام والتقدير يدخلان فى نسيج الحب، والإنسان السوى يحترم من يحبه، ولا يحب إلا من كان

جديرا بالاحترام. وإذا تعمقنا فى مفهوم المودة والرحمة نجد أنهما لا يتحققان إلا من خلال علاقة يسودها الاحترام.

ومن حق كل إنسان أن يخرج من علاقة الزواج إذا لم يكن هذا الزواج يحقق له الاحترام الكافى الذى هو حق لكل إنسان، حق يجب أن يتمتع به فى كل علاقة إنسانية مع صديق أو زميل أو جار. والاحترام لا يتعلق بالتعليم ولا يتعلق بالبيئة الاجتماعية وغير مرتبط بمفاهيم استقر عليها الإنسان. إنه أمر يتعلق بالوجدان، أى العاطفة والمشاعر، العاطفة النبيلة والمشاعر الطيبة والوجدان السامى الراقى. إنها الفطرة السوية؛ احترام الإنسان للإنسان. إنها رقة المشاعر والذوق والسماحة والصفاء والشفافية والتواضع والبساطة، أو بكلمة واحدة جامعة فاصلة وفى غاية التحديد: إنها المودة «ارجع إلى القرآن الكريم».

ولذلك فإن شكل العلاقة الزوجية يتحدد بعد وقت قليل من الزواج حين يصبح كل إنسان على طبيعته؛ أى يصبح ذاته الحقيقية. يصبح هو كما هو، وتصبح هى كما هى، وأن تكون مقبولا كما أنت، وأن أكون مقبولا كما أنا. وهذه هى النقطة الثالثة فى مفهوم الحرية. كانت النقطة الأولى هى حق الاختيار والنقطة الثانية هى حق القبول والرفض أما النقطة الثالثة فهى أن تكون أنا؛ ذاتى الحقيقية.. قبول الآخرين تعنى أولا وأساسا قبول الإنسان لنفسه. وهى تعنى رضا الإنسان عن نفسه، رضاه عن دوره ومسئولياته وبالتالى رضاه عن حدود دوره واختصاصات ومسئوليات الآخرين.

أما الإنسان الذى لديه مشكلة مع نفسه وسيعبر عن هذه الصراعات بالثورة والغضب والرفض سيحاول أن يبدو فى صورة غير ذاته الحقيقية. فهو نفسه رافض لهذه الذات أو رافض لبعض جوانبها وغير راض عنها. لن يكون هو «ذاته الحقيقية» فى تفاعله وتعامله مع الآخرين بل سيكون الذات المزيفة. وسيحول صراعاته الداخلية إلى صراعات مع الآخرين.

هذا الإنسان يطالب وبصوت عال ومؤلم بالحرية. ويتصور واهما أن الآخرين يحاولون أن يقصوا ويختزلوا من حريته. وفى الحقيقة إنه هو الذى سجن نفسه داخل الذات المزيفة، لأنه لم يستطع أن يكون ذاته الحقيقية. لأنه غير راض عن هذه الذات. وهذا هو ما يحدث مع قلة قليلة جدًّا من النساء. ولهذا يثرن من أجل قضايا وهمية غير حقيقية، يثرن ضد سيطرة الرجل وضد خضوع المرأة، يثرن ضد عدم احترام الرجل للمرأة، وضد المعاملة الدونية التى تتلقاها المرأة من الرجل، وضد اضطرارها لأن تهتم بنظافة البيت وإعداد الطعام، وضد اضطرارها لأن تحمل وتلد.. وضد خضوعها الجنسى للرجل . وضد... وضد.. إلى آخره.

سلسلة طويلة من التوهمات، بل قد تتوهم أيضا أنها مضطرة إلى مسح حذاء الزوج. مشكلة هذه المرأة مع نفسها وليست مع الرجل. وليست هى مشكلة المرأة مع المرأة، بل هى مشكلة امرأة ذات طبيعة خاصة أو امرأة ذات ظروف خاصة جعلتها غير راضية عن نفسها؛ جعلتها غير واثقة بنفسها؛ جعلتها فى صراع مع نفسها؛ جعلتها عاجزة عن أن تكون ذاتها الحقيقية؛ جعلتها تشعر أن الآخرين لا يقبلونها كما

هى فاضطرت إلى اصطناع ذات مزيفة، وهذا أجج من حدة الصراعات داخلها. ونقلت هذا الصراع خارجها؛ نقلته إلى الرجل، وأسقطت عليه كل إحباطاتها مع نفسها. اتهمته بأنه هو الذى أهانها واحتقرها وحقرها وجعل لها أحط الأعمال (حملا وولادة واهتماما بالبيت) وأنه استخدمها جنسيا. وبالطبع لم يفهم الرجل ماذا تعنى هذه المرأة؛ والأهم والأخطر أن بقية النساء لم يفهمن ماذا تعنى هذه المرأة. مما زاد من حدة عزلتها وزاد من حدة ثورتها إذا شعرت بأنها تصرخ ولا أحد يسمع أو لا أحد يريد أن يسمع أو الأصح لا أحد يفهم.

وعادت تصرخ وطرحت اعتراضا ساذجا: من قال إن من اختصاصات المرأة ودورها أن تتحمل مسئوليات البيت من تنظيف وإطعام للأسرة.. إنما يثيرنى هو أن تقترن المرأة بهذه المسئوليات التافهة وترتبط بها.. قال الرجل برثاء: تضطر المرأة للعمل خارج البيت. ويوافق الزوج ويساعدها على ذلك. وفى هذه الحالة يشترك معها بقدر ما يسمح الوقت المتاح لكل منهما بالعمل فى البيت. بل يساعدها فى كل شىء. قد يتولى كل مسئوليات المطبخ مثلا، وأحيانا ترفض الزوجة مساعدة الزوج لها. تكره وقوفه فى المطبخ؛ تعتبر ذلك اعتداء على مسئولياتها. ربما يكون ذلك بحكم موروثات تجعلها تصر على تحمل كل هذه الأعباء والمسئوليات.

الحياة الزوجية ـ لمن أراد الزواج وفهم معناه ـ تعاون ومشاركة وتحمل لمسئولية أسرية وليس تحملا لمسئولية أفراد أو فرد معين.

الأسرة كيان متكامل وله متطلبات. وعلى أفراد الأسرة التعاون من أجل توفير احتياجات ومتطلبات الأسرة سواء بالعمل داخل البيت أو العمل خارجه. ليست مسئولية الزوج أو الزوجة فقط؛ بل مسئولية الأبناء أيضا.

عادت تقول دون أن تتخلى عن صراخها: المهم هو العدل؛ العدل فى توزيع المسئوليات داخل البيت وخارجه، مع الإقرار بشىء هام هو أن أعمال البيت ليست مرتبطة بالمرأة، والمرأة مكانها هو العمل خارج البيت.

قال الرجل وقد فقد حماسه تماما: من يعمل لابد أن ينتج؛ لابد أن يكون لديه علم وخبرة، لابد أن يكون لديه ما يقدمه ليستحق الأجر الذى يتقاضاه. العمل ليس رفاهية. وخلق كل إنسان ليعمل، ولا معنى للحياة بدون عمل. والعمل أساسا من أجل الرزق، وكل إنسان يستفيد من عمل الآخر. المحامى يحتاج للطبيب والطبيب يحتاج للنجار وهكذا. ورزق كل إنسان يتوقف على احتياج الآخرين لما يقدمه من عمل. وتتوزع الأعمال حسب درجة الذكاء والعلم والكفاءة والخبرة، ولكن كل عمل مهم، وكل عمل ضرورى. هناك أعمال تحتاج إلى مهارات أقل ولكنها أعمال ضرورية. وكل إنسان ميسر لما خلق له. والنبوغ والموهبة والعبقرية استعدادات خاصة. وكل إنسان يجب أن يأخذ حقه وأن يحتل المكانة التى يستحقها. والبيت ليس التنظيف وإعداد الطعام، هذه أشياء بسيطة لا تحتاج إلى

مهارات خاصة وأى إنسان بسيط يستطيع أن يؤديها. ولم يقل أحد إن هذه الواجبات ارتبطت بجنس النساء. ولكن البيت شيء آخر، البيت إعداد نفسى، البيت مؤسسة روحية، البيت قيمة معنوية، البيت إدارة إنسانية أخلاقية. البيت يحتاج إلى مايستروا، قائد معنوى مثل قائد الفرقة الموسيقية التى تعزف لحنا أوركستراليا لا ينفذ بدقة إلا بهارمونى أو انسجام علمى، البيت إدارة علاقات وجدانية وفكرية.

وارتبط البيت بتربية الأبناء وتنشئتهم. وهى ليست تربية أجساد ولكن تربية عقول ونفوس وسلوك ومتابعة نمو وقدرات وإمكانيات ومواهب وتعليم وتثقيف. عملية معقدة وصعبة ولا يمكن أن تتم على الوجه السليم بشكل تلقائى، وإنما تحتاج لعلم وثقافة وخبرة ووعى ودراية واهتمام وبحث. وتراثيا وتاريخيا ومن خلال موروثات قامت المرأة بهذا الدور وأحسنت وأتقنت أداءه، وفشل الرجل تماما فى هذا الدور. ولذلك أصبحت المرأة هى القائد والمايستروا داخل البيت. وأصبح الرجل هو القائد والمايستروا خارج البيت. وبعد ألف عام قد يثبت عدم صحة الموروثات التى نتبعها حاليا وينجح الرجل داخل البيت وتنجح المرأة خارج البيت ويعاد توزيع المسئوليات ونتخلص من موروثاتنا القديمة.

ورغم محاولته لترضيتها بجملته الأخيرة والتى كان يعنيها حقا وبتفكير علمى ومنطقى إلا إنها استمرت فى صراخها وقالت: لابد من زعيمات يقدن حركة تحرر المرأة. إن قضية المرأة هى الحرية، هذه هى القضية الأساسية.

قال لها وقد اكتست نبرته بسخرية اليائس: هذا معناه أنك لم تستخلصي شيئا من حواري معك. إن جوهر ردودي عليك كان تشخيصا لمعنى الحرية. الحرية هي حق الاختبار، وحق القبول والرفض وصدق الإنسان مع نفسه ليكون ذاته الحقيقية.

وبهذا المعنى لا يمكن لإنسان أن يحرم إنسانا من حريته. الحرية إحساس داخلي. الحرية لا تمنح، لا تعطى من الخارج. الحرية تنبع من الداخل، ويشترط فيمن تريد أن تنادي بالحرية للآخرين أن تشعر هي بحريتها أولا.

وتمادى في سخريته قائلا: وثمة شروط أخرى لمن تريد أن تتصدى لقضية حرية المرأة وهي كالآتي:

أولا: ألا ترتدي حذاء ذا كعب عال؛ إذ ليس من المعقول أن تنادي بالحرية وهي تهتز في مشيتها وقد تتعثر فتقع.

ثانيا: ألا ترتدي ملابس مزركشة ذات ألوان فاقعة وشراشيب وترتر أو لولي أو أي حلي أخرى، وألا تكون الملابس ضيقة أو قصيرة إلى الحد الذي يكشف عن معظم ساقيها. فليس من المعقول أن تنادي بالحرية وهي تستعبد الجسد وتجعله مثيرا لعيون الآخرين وخاصة عيون الرجل. وتجعله كذلك مثيرا لحسد وحقد وغيرة السيدات الأخريات.

ثالثًا: ألا تتعطر بأي بارفانات لأن للبرفانات مدلولا جنسيا، إذ ليس من المعقول أن تنادي بحرية المرأة بينما هي من باب خلفي تسعى لإثارة مشاعر الرجال الجنسية وألا تتذوق بأي مساحيق

لنفس السبب، وأيضا ألا تطيل أظافرها وتضيع وقت النضال في طلائها.

رابعًا: ألا تتزين بأى مجوهرات وخاصة ما يسمى بالألماظ والماس لأنها لابد أن تكون مثلا أعلى صالحا للتوحد للفقيرات المطحونات.

خامسًا: أن تكون ولدت وعاشت وتربت مع أبويها المنفصلين؛ أى لا تكون قد تربت فى ظل زوج الأم أو زوجة الأب، لأن من عاشت بعيدا عن أحد الأبوين الفعليين لا تدرك المعنى المتكامل للأسرة. وذلك حتى لا تتخذ موقفا معاديا لمفهوم الأسرة ومعناها الصحيح بسبب عوامل لا شعورية دفينة ترجع إلى سوء معاملة زوج الأم أو زوجة الأب.

سادسًا: أن تكون سيدة منجبة وأن يكون لها فعلا طفل أو أكثر حتى لا تتخذ موقفا معاديا لعضو الرحم.

سابعًا: ألا تكون على علاقة بشخص آخر غير زوجها.

ثامنا: ألا يكون لها تاريخ غير أخلاقى سيئ فى مراهقتها وشبابها؛ أى تكون حسنة السير والسلوك.

تاسعًا: ألا تكون قد تزوجت أكثر من مرتين، وفى حالة تعدد الأزواج عليها أن تحضر ما يثبت أن طلاقها دائما كان بسبب سوء طباع أو أخلاق الزوج.

عاشراً: ألا يكون لها طموحات إعلامية أو شهوات زعامية حتى لا يختلط علينا الأمر؛ فنعتقد أنها تتصدى لقضايا المرأة من أجل مصالح شخصية.

حادى عشر: أن تثبت من خلال شهادة موقعة من الزوج أنها لا تقوم بمسح حذاء الزوج.

وانصرف عنها وقد خلت مشاعره من أى شيء لا مرارة ولا استخفاف ولا حتى رثاء.

الزوجة النكدية

يشكو الرجل من أن زوجته نكدية، وأن بيته قطعة من الجحيم. يعود إلى بيته فتداهمه الكآبة، إذ يطالعه وجه زوجته الغاضب الحاد النافر المتجاهل الصامت. بيت خال من الضحك والسرور ويغيب عنه التفاؤل مثلما تغيب الشمس عن بيته فتلتهمه الأمراض. يقول فى بيتى مرض اسمه النكد. ويرجع السبب كله إلى زوجته ويدعى أنه لا يفهم لماذا هى نكدية ولماذا تختفى الابتسامة من وجهها معظم الوقت ويحل محلها الغضب والوعيد؟

ولماذا هى لا تتكلم؟! لماذا لا ترد؟! والحقيقة أن هذا الزوج لا يعرف أن زوجته بصمتها الغاضب إنما هى تدعوه للكلام. إنها تصدر إليه رسالة. فى الحقيقة إنها رسالة سلبية ولكن هذه هى طريقتها لأنهما لم يتعودا معا ـ الزوج والزوجة ـ على طريقة أكثر إيجابية فى التفاهم. ويقلق الزوج؛ يكتئب هو أيضا، ثم يغلى فى داخله، ثم ينفجر، وتشتعل النيران. بذلك تكون الزوجة قد نجحت؛ أى استفزته إلى حد الخروج عن توازنه؛ لأنها ضغطت على أهم شىء يوجع رجولته وهو التجاهل. أى عدم الاعتراف بوجوده؛ أى اللامبالاة. ولكن هذه ليست حقيقة مشاعرها؛ فهى تغلى أيضا لأنها غاضبة؛

غاضبة من شيء ما، ولكنها لا تستطيع أن تتكلم. فهذا هو طبعها. ربما يمنعها كبرياؤها؛ فهذا الزوج يخطئ فى حقها، وهو لايدرى أنه يخطئ وأن أخطاءه ربما تكون غير إنسانية. ربما هو يتجاهلها عاطفيا، ربما هو يتجاهلها فراشيا. . ربما بخله يزداد. ربما بقاؤه خارج البيت يزداد بدون داع حقيقى. ربما أصبح سلوكه مريبا. . ربما وربما. . وربما. وهناك عشرات الاحتمالات، ولكنه هو لا يدرى، أو هو غافل، أو هو يعرف ويتجاهل. وهو لا يدرى أنها تتألم؛ أى أنه فقد حساسيته، ولكنها لا تتكلم.

لاتفصح عن مشاعرها الغاضبة، وربما لأنها أمور حساسة ودقيقة. ربما لأن ذلك يوجع كرامتها. ربما لأنهما لم يعتادا أن يتكلما. ولهذا فهى لا تملك إلا هذه الوسيلة السلبية للتعبير. وهى فى الوقت نفسه وسيلة للعقاب والتجاهل. وإذا بادل الزوج زوجته صمتا بصمت وتجاهلا بتجاهل فإن ذلك يزيد من حدة غضبها وربما تصل هى إلى مرحلة الثورة والانفجار فتنتهز فرصة أى موقف ـ وإن كان بعيدا من القضية الأساسية ـ لتثير زوبعة. لقد استمر فى الضغط عليها حتى دفعها للانفجار.

ضغط عليها بصمته وتجاهله ردا على صمتها وتجاهلها وتلك أسوأ النهايات أو أسوأ السيناريوهات فهى ـ أى الزوجة ـ تصمت وتتجاهل لتثير وتحرق أعصابه وتهز كيانه وتزلزل إحساسه بذاته ليسقط ثائرا هائجا وربما محطما. وهنا تهدأ الزوجة داخليا ويسعدها سقوطه الثائر حتى وإن ازدادت الأمور اشتعالا وشجارا؛ تتطاير فيه الأطباق

وترتفع فيه الأصوات. وهذا هو شأن التخزين الانفعالى للغضب. وتتراكم تدريجيا مشاعر الغضب حتى يفيض الكيل وتتشقق الأرض قاذفة بالحمم واللهب فتعم الحرائق.

قد يستمر هذا الأسلوب فى التعامل والتفاعل سنوات وسنوات، وهذا يؤدى إلى تآكل الأحاسيس الطيبة، ويقلل من رصيد الذكريات الزوجية الحلوة، ويزيد من الرصيد السلبى المر. ويعتادان على حياة خالية من التفاهم وخالية من السرور ويصبح البيت فعلا قطعة من جحيم. فتنطوى الزوجة على نفسها واهتماماتها الخاصة، ويهرب الزوج من البيت، وتتسع هوة كان من الممكن ألا توجد لو كان هناك أسلوب إيجابى للتفاهم.

وتشخيصا للموقف نستطيع أن نقول:

- إننا أمام زوج لا يعرف ما يضير ويضايق ويؤلم زوجته.
- وهذا الزوج يتمادى فى غيه مع الوقت.
- وهو أيضا قد فقد حساسيته تجاه زوجته.
- وإننا أمام زوجة تكتم انفعالاتها وتخزن أشجانها، وتحترق بالغضب.
- وهذه الزوجة تلجأ إلى أسلوب سلبى فى الرد على زوجها؛ وذلك بإشاعة جو النكد فى البيت لتحرم الزوج من نعمة الهدوء والاستقرار والسلام ونعمة الإحساس بذاته.
- وتظل الزوجة تستفز زوجها بهذا الأسلوب حتى يثور.

ـ ولكنهما لا يتعلمان أبدا؛ بل يستمران فى نفس أسلوب الحياة الذى يهدد بعد ذلك سنوات أمن واستقرار البيت.

واستمرار حالة الاستفزاز معناه تراجع المودة والرحمة، وهناك ألف وسيلة تستطيع الزوجة عن طريقها استفزاز زوجها. وكذلك هناك أكثر من ألف طريقة يستطيع بها الزوج استفزاز زوجته؛ أهمها كما قلنا الصمت والتجاهل والوجه الغاضب والكلمات اللاذعة الساخرة والناقدة والجارحة أو يتعمد أى منهما سلوكا يعرف أنه يضايق الطرف الآخر. أو قد يلجأ كل منهما إلى أسوأ أنواع الاستفزاز وهى إثارة الغيرة والشك.

والعناد هو شكل من أشكال الاستفزاز.

والعناد هو نوع من أنواع البغى والتمادى والتحدى. والتحدى هو أسوأ سلوك زوجى. والتحدى يخلق عداوة والعداوة تؤدى إلى العدوانية. وبذلك يحدث تصلب وتخشب وتحجر، وتفتقد المرونة وتضيع روح التسامح والتواضع والتساهل والتنازل.

واستمرار الزوجين فى العناد معناه عدم النضج أو معناه أن أحدهما يعانى ألمًا نفسيا حقيقيا وأن الطرف الآخر يتجاهل عن عمد أو عن غير عمد هذا الألم.

وهذا معناه أننا أمام مشكلة زواجية تحتاج إلى رعاية.. فكلاهما يعانى، وكلاهمها غاضب، وكلاهما خائف، وكل منهما يتهم الآخر ويحمله النصيب الأكبر من المسئولية ويرى نفسه ضحية؛ أى لا يوجد استبصار، ولا توجد أيضًا بصيرة.

الخطأ الأكبر الذى يقع فيه الزوجان أن يجعلا المشاكل تتراكم بدون مواجهة؛ بدون توضيح؛ بدون حوار بصوت عال هادئ؛ بدون أن يواجه كل منهما الآخر بأخطائه أولا بأول؛ بدون أن يعبر كل منهما عن قلقه ومخاوفه وتوقعاته وآلامه وهمومه. . يجب أن يرفع كل منهما شكواه إلى الآخر بكلمات واضحة وصوت مسموع ونبرة ودودة، ويجب الاستمرار والمثابرة و الإلحاح فى عرض الشكوى حتى تصل إلى ضمير الطرف الآخر. قد يكون تجاهل الزوج لمتاعب الزوجة ليس عن قصد أو سوء نية أو خبث، ولكن لأنه لا يعرف، لا يعلم؛ لأنها لم تتحدث إليه؛ لأنها لم تعبر بشكل مباشر. ربما لأنها تعتقد أنه يجب أن يراعى مشاعرها دون أن تحتاج هى أن تشير له إلى ذلك. ربما تود هى أن يكون هو حساسا بالدرجة الكافية ربما تتمنى هى أن يترفع هو عن أفعال وسلوكيات تضايقها وتحرجها. وهذا جميل وحقيقى؛ جميل أن يكون لديها هذه التصورات وهذه الأمنيات المثالية. ولكن الأمر يحتاج أيضا إلى تنبيه رقيق. . إشارة مهذبة. . تلميح راق؛ كلمات تشع ذوقا وحياء دون مباشرة. ولا مانع وخاصة فى الأمور الهامة والحساسة والدقيقة من المواجهة المباشرة والحوار الموضوعى. فهذا حق كل منهما على الآخر، وهذا هو واجب كل منهما تجاه الآخر، وهذا هو أصل المعنى فى المودة والرحمة لأن الزوجين اللذين وصلا إلى هذه المرحلة من الاستفزاز المتبادل يكون قد غاب عنهما تماما المعنى الحقيقى للمودة والرحمة.

والحقيقة أن أى إنسان مقدم على الزواج ـ رجلا أو امرأة ـ يجب أن يكون متفهما بعمق وبقلبه وعقله وروحه المعانى الحقيقية لأعظم كلمتين: المودة والرحمة.

المودة.. والرحمة

يقولون إن الزواج سترة للبنت. ولكنه فى الحقيقة سترة للرجل أكثر. والرجل بدون زواج ضائع، والرجل بدون زوجة ناقص. وحين يموت الزوج يستمر البيت قائما؛ تظل الزوجة ويظل الأولاد من حولها ثم يتفرقون ولكنهم يروحون ويجيئون، ولكن إذا ماتت الزوجة فإن البيت ينهار، والزوج وحده لا يستطيع أن يدير بيتا ولا يستطيع أن يعمر سكنا. ينطفئ البيت ويتفرق الأبناء. وهذا هو ما جاء ذكره بالقرآن الكريم تحديدا ونصا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]. إذن الزوجة هى السكن، والزوج يسكن لدى الزوجة. إذن الزوج هو ساكن وليس صاحب السكن حتى وإن كان يمتلكه. فى الحقيقة هو اشتراه أو استأجره بماله ومسجل باسمه ولكنه مجرد جدران وسقف. السكن شىء أبعد وأعمق من هذا؛ السكن معنى؛ السكن هو سكينة النفس وطمأنينتها واستقرارها؛ السكن هو الحماية والأمن والسلام والراحة والظل والارتواء والشبع والسرور؛ السكن قيمة معنوية وليس قيمة مادية. وإذا ذهبت الزوجة ذهب السكن حتى وإن كان الزوج يعيش فى قصر. وهو سكن ليس مجانيا؛ يجب أن يدفع الزوج؛ ولأن السكن قيمة معنوية فإن الزوج

يجب أن يدفع فيه أشياء معنوية، وهو أن يتبادل المودة والرحمة مع الزوجة. فهذا السكن يقام على المودة والرحمة؛ فالمودة والرحمة هما الأساس والهيكل والمحتوى والهواء، وبغياب المودة والرحمة ينهار السكن؛ فلماذا جعلت الزوجة هي السكن؟

الإجابة تأتي من نفس الآية الكريمة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ الآية [الروم: ٢١] تقول: ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ انتبه إلى كلمة أزواجا ولم يقل نساء؛ أي لا يتحقق إلا من علاقة زواج. لا تحقق إلا إذا تحولت المرأة إلى زوجة. إذن الأصل في الحياة أن يكون هناك زواج. رجل مؤهل لأن يكون زوجا وامرأة مؤهلة لأن تكون زوجة. يذهب الرجل إلى المرأة لتصبح زوجته ليسكن إليها. فإذا لم تكن زوجته فإنه من المستحيل أن تصبح سكنا حقيقيا له. ولذلك لا تصح العلاقة بين الرجل والمرأة إلا بالزواج، ولا يمكن للرجل أن ينعم بالسكن إلا من خلال الزواج.

ونكمل الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾. جاء السكن سابقا على المودة والرحمة. إذ لابد للإنسان أن يسكن أولا، أن يختار المرأة الصالحة ويتقدم إليها ويتزوجها ليتحقق السكن. فإذا قام السكن جعلت المودة والرحمة. إذن لا يمكن أن تقوم المودة والرحمة إلا من خلال وفي إطار سكن، أي من خلال وفي وإطار زواج. والكلمات الربانية البليغة تقول: ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم ﴾ أي أن الله هو الذي جعل؛ أي لابد أن يكون. فطالما أنه زواج فلابد أن يستمر على المودة والرحمة. هذا ضمان من الله لكل من أراد الزواج. فإذا أردت أن تسكن فلابد أن

تتزوج . وإذا تزوجت فلابد أن تنعم بالمودة والرحمة . وبالتالى تصبح الزوجة هى أصل المودة وهى أصل الرحمة ؛ لأنها التى وفرت السكن . فلا دعامة لهذا السكن إلا بالمودة والرحمة .

وتأمل الكلمة الربانية الدقيقة ﴿ بَيْنَكُم ﴾ لم يقل عز وجل : جعل لكم وإنما بينكم . وهى تعنى أنها مسألة تبادلية ، أى يتبادلها الزوج والزوجة أى أن المودة والرحمة لا تتحققان إلا من الطرفين . أى لا يمكن أن تكون من طرف واحد . لم يجعل الله الرجل ودودا رحيما وحده ، ولم يجعل المرأة ودودا رحيمة وحدها هذا لا يكفى ، إنما لابد من الاثنين معا . ويتجه الرجل نحو المرأة طمعا فى السكن . ومن الذى يسكن ؟ ليس الجسد ، وإنما الروح ، فروح الرجل تسكن إلى روح المرأة ، ثم يطمع فى المودة والرحمة ؛ مودة المرأة ورحمتها ، فتهبها له ؛ أى أن المرأة تسبق الرجل فى مودتها ورحمتها أى هى الأساس وهى الأصل . فإذا تلقى مودتها ورحمتها بادلها المودة والرحمة .

ومن أسماء الله الحسنى أنه الودود وهو الرحمن وهو الرحيم . إذن المودة والرحمة هما من بعض صفاته سبحانه وتعالى . ولذلك لا حدود لمعانى المودة والرحمة وهو شىء يفوق الحب . شىء فوق الحب بمراحل كثيرة . كالمسافة بين الأرض والسماء . كالفرق بين الثرى والثريا .

والمودة مطلوبة فى السراء والرحمة مطلوبة فى الضراء . وهذه هى حكمة اجتماع الكلمتين فى أمر الزواج . وهذا إشارة إلى أن الزوجين سيواجهان صعوبات الحياة معا . هناك أيام سهلة وأيام صعبة وأيام سارة وأيام محزنة . أيام يسيرة وأيام عسيرة . المودة مطلوبة فى الأيام السهلة السارة اليسيرة ، والرحمة مطلوبة فى الأيام الصعبة والمحزنة والعسيرة .

والمودة هى اللين والبشاشة والمؤانسة والبساطة والتواضع والصفاء والرقة والألفة والتآلف، وإظهار الميل والرغبة والانجذاب، والتعبير عن الاشتياق؛ وفى ذلك اكتمال السرور والانشراح والبهجة والنشوى.

أما الرحمة فهى التسامح والمغفرة وسعة الصدر والتفهم والتنازل والعطف والشفقة والاحتواء والحماية والصبر وكظم الغيظ والسيطرة على الغضب والابتعاد كلية عن القسوة والعنف والعطاء بلا حدود والعطاء بدون مقابل والتحمل والسمو والرفعة والتجرد تماما من الأنانية والتعالى والغرور والنرجسية. وهى معان تعلو على المودة وتؤكد قمة التحام الروح وقمة الترابط الأبدى الخالد.

المرأة مؤهلة بحكم تكوينها لتجسيد كل هذه المعانى الأصلية. وبذلك فهى السكن الحقيقى، ولا تصلح للسكن إلا من كانت مؤهلة لذلك. فإذا كانت هى السكن فهى المودة والرحمة. وهى قادرة على تحريك قدرة الرجل على المودة والرحمة. فالبداية من عندها. الاستجابة من عند الرجل ليبادلها مودة بمودة ورحمة برحمة.

ويظل الزواج باقيا ومستمرا ما استمرت المودة والرحمة. ولحظة الطلاق هى لحظة الجفاف الكامل للمودة والرحمة وانتزاعها من القلوب.

وهناك قلوب كالحجر أو أشد قسوة، وهى قلوب لا تصلح أن تكون مستقرا لأى مودة ورحمة، وبالتالى فهى لا تصلح أن تكون مستقرا لأى مودة ورحمة، وبالتالى فهى لا تصلح للزواج. وإذا تزوجت فهو زواج تعس ولا بد أن ينتهى إلى الطلاق.

الزواج يحتاج إلى قلوب تفيض بالمودة والرحمة.

لعبة الغيرة والشك

من هموم الرجل لعبة الغيرة والشك التى قد تلعبها امرأته؟ . وهى لعبة لأنه ليس لها أساس جدى؛ أى ليست حقيقية. ولكنها لعبة خطرة ومدمرة ولابد أن تنفجر فى النهاية فى وجه الزوجة وحدها لتقضى على الأمان والطمأنينة فى علاقتها بزوجها، أى تقضى على الحب.

تتحرك المرأة بوعى وبفهم وبقصد أو بحس غريزى تلقائى. إذا تحركت بوعى وفهم وقصد فهى سيئة النية، وإذا تحركت بتلقائيتها فهذه هى فطرة المرأة. والمرأة تجيد هذه اللعبة سواء قصدت أم لم تقصد. والأمر لا يحتاج منها إلى مهارة كبيرة.

أى امرأة ستصيب الهدف وتجرح الرجل لينزف قلبه ويفرغ من الحب. فهذه هى أسهل طريقة لإصابة رجل؛ لأن الإصابة تتجه إلى مركز رجولته ومحور ذكورته وكينونة ذاته. إذن لابد أن تحدث هزا عنيفا فى كيانه وكأنها زلزلة الساعة.

والأمر هنا يختلف عن الغيرة الطبيعية التى يستشعرها الرجل فى المواقف العادية التى تعبر بحياته مع امرأته. فالغيرة شعور صحى وجميل بالرغم من أنه مؤلم بعض الشىء. وغيرة الرجل هى غيرة الراعى والمسئول. وهى أمر داخل فى نسيج الحب. حب الزوجة

وحمايتها. والغيرة الطبيعية تحمل في طياتها احتراما وتقديرا لهذه الزوجة. فهى تستحق أن يُغار عليها. فهى شىء ثمين وقيم، وهى شىء جدير بالحفاظ عليه وحمايته. إذن الغيرة إعلاء من شأن المرأة وتعبير عن سمو مكانتها وقدسيتها. والرجل الحقيقى هو الذى يغير؛ والزوج الحقيقى هو الذى يغير؛ والمحب الحقيقى هو الذى يغير.

والغيرة تنطلق من مركز إحساس الرجل برجولته ودوره ومسئوليته. تنطلق من مركز قيمه وأخلاقه واعتزازه بهذه القيم؛ تنطلق من حرصه على حياته الأسرية ورغبته المخلصة فى استقرارها وثباتها واستمرارها.

الرجل غير الحقيقى لا يغير. ومعنى الرجولة غير الحقيقية أنها اضطراب فى إحساس الرجل بذكورته تجاه الأنثى، واضطراب إحساسه بدوره كرجل؛ واضطراب إحساسه بالمسئولية.

وأيضا إذا فقد الرجل احترامه للمرأة فإنه لا يغير عليها، وإذا تقطعت كل الصلات الإنسانية والروحية بينهما فإنه يفقد تماما مشاعر الغيرة لأنها حينئذ لا تعنيه هذه المرأة ولا يهمه أمرها ويفقد إحساسه بالمسئولية تجاهها فهى امرأة غير محترمة، امرأة رخيصة.

والغيرة الطبيعية الصحية هى خليط من مشاعر القوة والحزم والشجاعة والإقدام والتحدى، هى الطاقة التى تنبعث فى الجسم والروح فيشعر الإنسان بذاته الرجولية الذكرية الحقيقية وتدفعه إلى أن يكون متأهبا مستعدا. وتفوح منه رائحة الرجولة فتشمها امرأته ومن حوله فتنتشى بها امرأته وتفر الذئاب من أمامه. وتبدو فى عينيه

أمارات التصميم والصرامة فيبدو فى عينى امرأته فى أجمل صورة بينما يفزع من شكله من كان يحوم حول حماه.

المرأة الصالحة لا تتعمد إثارة غيرة زوجها.

ولكن هناك امرأة تتعمد إثارة غيرة زوجها؛ بل قد تدفعها عُقَدُها إلى إثارة شكوكه، والشكوك معناها أنها تزرع فى يقينه بذورا خبيثة سامة تثير قلقه وخوفه وغضبه وتقوى لديه الاحتمال بأن الخطر المحدق ليس خارجيا فقط وإنما نابع من ذات امرأته أيضا.

هذه هى الغيرة السيئة الضارة والتى تكون المرأة مسئولة عنها بسلوكها غير السوى أو سلوكها المستهتر أو سلوكها المتعمد منه إثارة غيرة الرجل.

الغيرة فى هذه الأحوال هى مزيج من القلق والخوف والغضب والألم. وسرعان ما تتدخل معها مشاعر الحقد والكراهية والعدوان والرغبة فى الإيذاء والانتقام. إنها مزيج من أسوأ المشاعر المدمرة.

وحينما تنتاب الرجل مثل هذه المشاعر يبدأ العد التنازلى فى مشاعره الإيجابية تجاه زوجته. تنهار الطوبة الأولى فى صرح العلاقة، تبدأ السوسة الأولى فى نخر العمود الفقرى للعلاقة الزوجية، وهو وباء لا يمكن إيقافه. تنهار الطوبة الأولى وتعقبها الطوبة الثانية.. وهكذا حتى ينهار الصرح كله.

إذا تم زرع الشك فى قلب وضمير الزوج فلا يمكن لأى قوة أن تمحوه ولابد أن يؤدى حتما إلى موت كل المشاعر الطيبة من جانبه تجاه

امرأته ، ولابد أن ينقلب الأمر فى النهاية إلى حقد ومرارة حتى وإن عاش معها حتى نهاية عمره .

والمرأة هى المسئولة عن زرع بذور الشك الخبيثة السامة .

لماذا؟ ما الذى يدفع المرأة إلى هذا السلوك الخطر . . ؟

إنه أولا الإحساس بالنقص ؛ النقص الأنثوى . وهى مشكلة تعانى منها منذ طفولتها حيث النبذ والإهمال وتفضيل الشقيقة الأجمل . وتظل تلازمها مشاعر الخوف من رفض الرجل لها وعدم إقباله عليها . مشاعر دفينة لا تدرى عنها شيئا . وتخاف أن يمل الزوج ويضجر ويهرب إلى أخرى . إذن لابد أن تثبت له أنها مرغوبة ، وأنه إذا لم يهتم بها فإن هناك رجالاً آخرين يسعدهم أن يقوموا بالمهمة تدفعها عقدة النقص الأنثوى أن تبدى اهتماما زائدا بالرجل وأن تستدرجهم إلى الاهتمام الخاص بها ، ولابد أن يكون ذلك على مرأى ومسمع من الزوج حتى يحدث تأثيره المدوى ويزلزله ويحركه ويذكى داخله الحب والاهتمام . وتتعمد هذه المرأة المسكينة مواقف بعينها وتؤكدها وكأنها تروى بذور الشر التى زرعتها لتظل دائما حية ويقظة .

ويقلق الزوج؛ يخاف ؛ يضطرب ، وهو قلق لا يزول أبدا ؛ ويبدى اهتمامه بزوجته . وكلما أقبل واهتم أمعنت الزوجة فى سلوكها المثير لشكه وغيرته ؛ فلقد نجحت . إن قلق الزوج ثم إقباله الزائد واهتمامه المبالغ فيه عزز لديها هذا السلوك ودعمه ، وتحترق أعصاب الزوج . وكلما ازدادت أعصابه احتراقا ازداد قلقا وأمعنت هى فى سلوكها ، وتظن الزوجة أنها ملكت زوجها وأنها سيطرت عليه . ولكن الحقيقة

عكس ذلك. إن اهتمامه بها فى البداية هو اهتمام القلق والخوف. الخوف من الفقد، الرغبة المقلقة فى أن يثبت لنفسه أنه الرجل الأول والأوحد فى حياة امرأته، وأنه المسيطر على عقلها وقلبها. وتعطيه المرأة هذا الإحساس فيسعد ويزول عنه بعض قلقه. ولكن تعاود اللعبة مرة أخرى، فيقلق، حتى يفقد الثقة بها تماما؛ حتى يراها امرأة لا تستحق حبه واحترامه؛ حتى يراها معذبته ومقلقته. وحينئذ يكون قد اكتشف اللعبة؛ فيلعب هو لعبة مضادة؛ لعبة مفروضة عليه؛ لعبة ليس له دخل أو إرادة فى توجيهها. إنه يظهر حبه واهتمامه ولكنه فى نفس الوقت وبالوسائل الذاتية يعالج جروحه وآلامه وذلك بأن يميت مشاعره تجاهها؛ يكوى خلايا الحب لتموت، ويمشى وفق خطة يرسمها له الكمبيوتر الداخلى؛ خطوة خطوة؛ قطرة قطرة؛ حتى يصل إلى آخر مرحلة وهى أن يفقد تماما مشاعر الغيرة. تصبح المرأة لا شىء بالنسبة له، تصبح مدام صفر. حينئذ يكون قد كسب الجولة الأخيرة تماما والتى تنهى اللعبة أو بمعنى آخر تنهى العلاقة.

والحقيقة أن المرأة ضحية، والرجل ضحية. المرأة ضحية عدم الثقة بالنفس، والرجل ضحية امرأة معدومة الثقة بنفسها؛ بالرغم من أنها تحبه وأنه يحبها، بالرغم من أنها مخلصة له وهو مخلص لها، بالرغم من أنه يمنحها الثقة من خلال حبه وأنه يراها فعلا جميلة ومشبعة، بالرغم من أنه يسعد بالحياة معها، ولكنها أبدا لا تطمئن ولا تستريح وتريد المزيد.

إنه الجوع للثقة؛ الجوع للاهتمام؛ الجوع للإحساس بأنوثتها المذبوحة المنقوصة. والرجل معذور. إنها تذبح رجولته؛ تهد كيانه

الأساسى؛ تمحق ذاته. إنها أيضا تهز ثقته بنفسه من خلال آخر. ويظل شبح الرجل الآخر يهدده فى كل وقت؛ فى منامه وفى يقظته. ويظل يقارن بين نفسه والآخرين؛ من أنا فى وسط الرجال؟ فى أى شىء يتفوق هذا الرجل علىّ؟ أى شىء أعجبها فى هذا الرجل؟ كل هذه التساؤلات والأفكار مدمرة محطمة. وحين يقارن نفسه برجال الآخرين يكون قد وصل إلى درجة كبيرة من افتقاد الثقة بنفسه.

ومع هذا الشعور المضنى بفقد الثقة تبدأ أولى درجات الكراهية لامرأته.. لا يكره رجل امرأته إلا لهذا السبب. هناك أشياء كثيرة تفسد العلاقة بين الزوج والزوجة، وقد يؤدى فى النهاية إلى الانفصال ولكنه لا يكرهها. الرجل يكره المرأة فى حالة واحدة فقط، وذلك إذا هزت ثقته بنفسه عن طريق رجل آخر لأنها تكون قد ذبحت رجولته. ولا شىء يذبح رجولة الرجل إلا رجل آخر يُستخدم عن طريق امرأة مريضة أو امرأة سيئة.

ومازلنا نبحث عن الأسباب التى تدفع عمدا إلى أن تثير شكوك زوجها. السبب الثانى هو أنها امرأة سيئة بالفعل؛ سيئة الطباع، وسيئة المشاع، وسيئة التفكير. إنها امرأة خبيثة. وزرع الشك فى نفس الزوج هو نوع من العدوان السلبى؛ عدوان الضعيف؛ عدوان المقهور. وقد يكون الرجل هو المسئول؛ فهو الذى قهرها، أو هو الذى أهانها واعتدى عليها. وهى تشعر بالعجز أمامه، لا حول لها ولا قوة ولا حيلة لها، ولا تدرى كيف ترد عدوانه. وبفطرتها تعرف أن أخطر ما يجرح كبرياء الرجل ويهدده التلويح برجل آخر. وقد

يكون السبب أن الرجل قد اهتم بامرأة أخرى؛ فتستخدم امرأته لعبة الشك لعقابه وتهذيبه وتعليمه واسترجاعه. وتظن بذلك أنها سترجعة فعلا. ولكن الحقيقة عكس ذلك؛ لأن بداية النهاية هى نزع الطمأنينة. وإذا فقد الرجل ثقته بالمرأة فإنه لا يستطيع أن يسترجعها أبدا مهما فعلت هذه المرأة.

الرجل لا يغفر للمرأة دخول رجل آخر فى حياتها، أو حتى التلويح برجل آخر. والأمران يستويان عند الرجل سواء كان هناك رجل فعلى فى حياة امرأته أو أنها لوحت بهذا الرجل، أى أنها تعمدت إثارة شكوكه دون أن يكون هناك ظل حقيقى. إذ إن الرجل الذى يعرف أن امرأته تستخدم سلاح الشك يتيقن من شىء آخر وهو أنها خبيثة وسيئة؛ رديئة المعدن، وأنها عدوانية لأنها اختارت أسوأ وأفظع الطرق لعقابه. إن الرجل يقبل من المرأة أى شىء، ويغفر لها أى شىء إلا أن تخونه أو تهدد بخيانته أو تلعب لعبة الشك. ولعبة الشك معناها أنها امرأة لم تخطئ ولكنها توحى لزوجها بذلك. وفى الحالة الأولى هى آثمة وفى الحالة الثانية هى خبيثة. والرجل ينفض قلبه من كلتا المرأتين.

أما إذا بحثنا عن سبب ثالث يدفع المرأة إلى لعبة الغيرة والشك فإنه لا يكون إلا سطحية المرأة وضحالتها وتفاهتها. فالمرأة الذكية الواعية العاقلة المتزنة الجادة العميقة فى وجدانها وفكرها لا تقدم على مثل هذه اللعبة الخطرة لأنها تكون أكبر وأسمى من ذلك ولأنها تعرف مدى خطورة هذه اللعبة.

السبب الرابع هو المرأة المستهترة المتسيبة إلى حد ما والتى لها ماض غير نظيف تماما ؛ أى أن صفحتها لم تكن بيضاء ناصعة ولهذا يسهلّ على المرأة أن تندفع إلى هذا السلوك الطائش الأحمق. ولقد علمتها تجاربها السابقة أن أسهل طريقة لحرق قلب رجل هو الاستعانة برجل آخر. إنها امرأة مدربة وهناك فرق بين اللعب والإثم الحقيقى. فالمرأة الآثمة تخفى إثمها أما المرأة التى تلعب لعبة الشك والغيرة فإنها تتعمد سلوكا معينا يوحى بأن هناك علاقة أو احتمال علاقة أو مشروع علاقة مع رجل آخر وأن رجلا آخر يهتم بها اهتماما خاصا.

السبب الخامس وهو سبب عام: انتقام المرأة لأى سبب من الأسباب من الرجل. لعبة الشك والغيرة هى إحدى وسائل انتقام المرأة من الرجل، وهو سبب قد ينسحب على كل الأسباب السابقة ؛ أى متداخل معها، وبشكل عام أيضا ؛ فإن لعبة الغيرة والشك لا تلعبها إلا امرأة مريضة أى معقدة نفسيا ؛ فاقدة الثقة بقدراتها الأنثوية أو غير واثقة بحب واهتمام زوجها لها أو امرأة ضعيفة أو امرأة خبيثة ؛ أى لابد أن يكون هناك قدر من السوء فى الشخصية. هذه المرأة - وهى بالقطع أيضا - قصيرة النظر ولا تدرى أنها بهذه اللعبة تكون قد فقدت رجلها تماما ؛ حتى وإن استمر فى الحياة معها فإنها تكون قد فقدت روحه.

هذه هى أخطر هموم الرجل. والأمر يختلف هنا عن الغيرة التى يكون سببها اضطراب شخصية الرجل، وأيضا الأمر يختلف عن الشك الذى يكون له رصيد وظل من الواقع والحقيقة ؛ أى حين تكون المرأة آثمة فعلا أو إذا كانت تلعب لعبة الشك.

ولعل هناك سببا آخر لابد من أن نذكره وإن كان بعيداً عن أن يقبل بسهولة لأنه مرتبط بأعمق أعماق اللاشعور. وهو أن المرأة تلعب هذه اللعبة كنوع مرتبط بأعماق أعماق اللاشعور. وهو أن المرأة تلعب هذه اللعبة كنوع من الانتحار أى أنها تنتحر. وانتحارها يكون عن طريق تدمير الحب بينها وبين زوجها لكى تفقد فى النهاية زوجها. إنه نوع من عقاب الذات. بل إن الأمر قد يصل إلى أن تعترف المرأة اعترافات تفصيلية عن خيانات صدرت عنها ولكنها تعترف. تعترف بأشياء لم تقترفها. وهذا عرض من أعراض المرض العقلى. قد يكون اكتئابا، وقد يكون بداية الفصام وقد يكون أحد أعراض اضطراب الشخصية. إنها قوة تدميرية هائلة تستولى على المرأة لتحطيم كل شىء وهى تحطم ذاتها قبل أن تحطم أى شىء آخر. أو هى تستخدم ذاتها لتحطيم كل شىء. وأى شىء أهم لدى المرأة أكثر من حبها وزوجها واستقرارها؟ وأى عقاب أقسى من تدمير وتحطيم وخراب البيت..؟

ولجوء المرأة المريضة بعقلها الباطن إلى هذه الوسيلة يدلنا على أن أخطر ما يهدد العلاقة بين اثنين هو الشك وخاصة شك الرجل فى المرأة.

إنها من أخطر هموم الرجل وعذاباته؛ وخاصة إذا كان رجلا حقيقيا.

رجل خانته زوجته

تختلف ردود أفعال الرجال الذين يتيقنون من خيانة زوجاتهم. الأمر يختلف من رجل إلى رجل حسب ظروف تنشئته وتربيته وثقافته وتعليمه، والبيئة التى تربى وعاش فيها، والمجتمع الذى نما فى أحضانه، والحقبة الزمنية التى عاش فيها، والثقافة والمفاهيم السائدة وقتها. يختلف الأمر حسب موقف المجتمع من علاقة الرجل بالمرأة وموقفه من الزواج وموقفه أيضا من القيم والأخلاق ومدى التزامه الدينى. أشياء كثيرة جدًا تحدد رد فعل الرجل حين يتيقن من خيانة زوجته.

قد يرفض عقله التصديق رغم أن الأدلة دامغة، وقد يتقبل الأمر وهو رابط الجأش. قد يندفع ويرتكب جريمة وقد يعالج الأمر بهدوء وحكمة. قد ينهى حياته الزوجية فورا وقد يعجز عن ذلك ويستمر، وقد يستمر بوحى من إرادته وتفهمه. قد يرضى أن يعيش معها رغم انعدام ثقته بها وتوقعه لاستمرار خيانتها له، وقد يعالج أسباب خيانتها ويحدد مسئوليته ليبدأ معا صفحة جديدة وليتحاشا تكرار ما حدث.

قد تكون خيانة زوجته غير مفاجئة له وقد تقع على رأسه وقع الصاعقة؛ لأنه لم يكن يتوقعها.

الأمر يختلف من رجل إلى رجل . والنظرة إلى الخيانة ومعالجتها تختلف حسب البيئة والمجتمع والثقافة السائدة؛ تختلف حسب درجة التمسك الدينى .

والتزاما بالنص القرآنى الكريم؛ فإننا نجد أن الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وأن الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة . وأن الخبيثين للخبيثات ، والخبيثات للخبيثين . إلا أنها جريمة خطيرة من الصعب إثباتها أو أن الإسلام الحنيف أوجد صعوبات لإثباتها؛ القصد منها التدقيق حتى نصل إلى اليقين الكامل حتى لا يكون قذف المحصنات أمرا سهلا ومشاعا؛ نظراً للعواقب الوخيمة والسيئة جدّاً التى تنتج عن الاقتناع وقوع هذه الجريمة ، وكذلك سهولة الانزلاق فى توجيه الاتهامات والتى قد تكون باطلة عن سوء قصد ونية بغية الإضرار بالأبرياء . ولهذا يجىء نص قرآنى آخر كريم يقول ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . وهو ما يؤكده أيضا حديث الإفك .

ولكننا نحن بصدد إثم حقيقى قد وقع وتيقن منه الزوج؛ سواء إذا كان يقينا شرعيا إسلاميا أو يقينا اعتمد فيه على أدلة غير دقيقة . المهم عندنا أنه وصل إلى مرحلة اليقين الكامل بوقوع الخيانة الزوجية .

الرجل السوى يتحطم تماما وخاصة إذا كان من بيئة سوية تلتزم دينيا ولها قيمها الأخلاقية الرفيعة . وذلك لأن مثل هذه البيئة ترى الزواج علاقة مقدسة وترى الوفاء والإخلاص كأساس لهذه العلاقة .

وتشكل الخيانة تهديدا خطيرا لاستقرار المجتمع واستمراره ، كما تقوض بقية القيم الأخلاقية الأخرى كالصدق والأمانة والشرف

وأيضا القيم الإنسانية التى تربط بين الناس كالرحمة والإيثار والتعاون. وهذا الرجل الذى جاء من هذه البيئة يعيش الزواج بكل أحاسيسه ويهب حياته للأسرة ويخلص تماما لزوجته. ويرى أن السعادة الحقيقية لا تكون إلا من خلال حياة الأسرة. وهو يرى الحب فى معناه الاسمى الحقيقى وهو المودة والرحمة. ولهذا فهو يبذل قصارى جهده مودة ورحمة لأسرته. ويتحقق مثل هذا الرجل من كيانه الرجولى من خلال علاقته بامرأته. أى أن الزواج يؤكد له قمة اكتمال ذاتيته الرجولية، وتلك الأحاسيس الرائعة التى يستشعرها الرجل من قوة وزهو وطمأنينة وثقة بالنفس.

إن أسرته وزوجته تتيح له أن يقول أنا رجل. هذا إحساس محورى ومركزى تدور حوله بقية أحاسيسه ومشاعره الإيجابية وإقباله على العمل وإقباله على الحياة وحماسه ونشاطه وتدفق طاقته وحيويته، ويتولد عن هذا إحساسه الطبيعى بالميل الغريزى ناحية زوجته فيقبل عليها بشهية وحب ويكتمل لديه هذا الإحساس باستجابة زوجته له وإقبالها عليه، واستمتاعها بنفس القدر معه. ولا يكون فقط إحساسا جسديا شهوانيا ولكن ثمة أحاسيس متكاملة ينبض بها الجسد والروح معا فيشعران معا بالسعادة. والسعادة هى لذة روحية شاملة تختلف عن لذة الجسد.

مع خيانة الزوجة لهذا الرجل بالذات من هذه البيئة بالذات ينهار كل شىء، أو تنهار هذه المعانى. أو ينهار إحساسه بذاته الرجولية وينهار إحساسه بتكامل الإحساس فى العلاقة الزوجية. ينهار إحساسه بمعنى الأسرة وبالحب الأسرى أى بالمودة والرحمة. فلا مودة

ولا رحمة فى الخيانة ، بل الخيانة هى المقابل العكسى تماما للمودة والرحمة . ولم تعد الزوجة هى السكن الخاص له وحده بل هى سكن مشاع مباح . ولم تعد الزوجة هى حرثه الذى يأتيه متفردا متميزا وإنما تصبح حرثا عموميا تطؤه كل قدم .

إنه انهيار للمعنى ؛ المعنى فى كل شىء طيب فى الحياة . ولذلك ينهار من هول الصدمة وعدم التصديق . ليس مُهمّا أن نعرف بعد ذلك موقفه وسلوكه المستقبلى والخطوات التى سيتخَذها للتعامل مع هذا الموقف . إنما يهمنا فقط التعرف على رد الفعل الذى يكشف عن التكوين النفسى للرجل والذى تشكل من خلال بيئة معينة . لأن هذا يكشف عن الموقف الدينى الأخلاقى الفلسفى الإنسانى من موضوع الزواج ومن موضوع علاقة الرجل بالمرأة .

لا يهمنا أيضا لماذا خانت هذه المرأة . إنما المهم أنها خانت . وقد لا تعكس خيانتها خللاً بيئيا . ولكن موقف الرجل أو رد فعله من خيانة المرأة هو الذى يعطينا صورة حقيقية عن الظروف البيئية . تلك الظروف التى قد ترتعب من الخيانة أو قد تقبلها ببساطة وسهولة حيث إن هناك رجلا آخر من بيئة أخرى يتقبل خيانة زوجته بهدوء وببساطة وبصدر رحب . ربما يتألم بعض الشىء ؛ ربما يغضب قليلا . ربما لا يؤثر هذا كثيرا على علاقته المستقبلية بها إذ ربما يستمران معا داخل مؤسسة الزواج كزوج وكزوجة وتستمر هى مع عشيقها وأيضا يستمر هو مع عشيقته إذا كان له عشيقة فهذه فلسفة ووجهة نظر ، موقف ثقافى حضارى . هذه بيئة ذات طبيعة خاصة وقيم خاصة ومبادئ

خاصة تتعلق بالزواج وعلاقة الرجل والمرأة. هذه بيئة لها موقف معين من الحرية؛ وخاصة حرية المرأة؛ وحرية الجسد.

أنا هنا لا أتعرض للبواعث النفسية لخيانة الزوجة ولكننى أتعرض فقط للموقف البيئى وكيف أن هذا يشكل مفهوم الناس عن الزواج والعلاقة بين المرأة والرجل فى إطار الزواج. وبهذا نجد أن الإسلام العظيم قد تعرض للمجتمعات التى تشيع فيها الفاحشة، وتحدث أيضا عن هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (١٩) ﴾ [سورة النور: آية ١٩].

والموقف البيئى أيضا يحدد نظرة المجتمع إلى المرأة الخائنة إما كامرأة تمارس حريتها الشخصية أو كرد فعل لظروف نفسية خاصة أو كإنسانة آثمة مخطئة باغية معتدية جانية تستحق العقاب. أو قد تكون النظرة متوازنة مقدرة تجمع بين الدين والعلم من حيث تأثيم الخيانة وفى نفس الوقت بحث الأسباب النفسية والدوافع وراء هذا السلوك الخاطئ. فهو خاطئ وإن كان مرضيا.

إلا أن الرجل السوى وفى الأحوال العادية أى فى البيئة المتوازنة والتى لها رواسخها الدينية الأخلاقية يعانى ألما فظيعا يستمر معه إلى أن يودع الدنيا. ألم خيانة الزوجة لا يزول عند الرجل، ويظل وقتا طويلا يعانى الآثار التدميرية للحدث حتى يستطيع أن يلملم نفسه وإن كان لن يستطيع أبدًا إعادة بناء ذاته المنهارة وكيانه المتهاوى ورجولته المبعثرة وخاصة إذا كان الحدث مفاجئا له وغير متوقع. وإذا استمر فى

زواجه لأى سبب فإنه لن يكون زواجا طبيعيًا حتى وإن انصلح حال زوجته وأصبحت قديسة وظلت طوال حياتها تكفر عن ذنبها .

والغريب فى الأمر أن المرأة تغفر وتتسامح وتنسى خيانة الزوج . ولكن الزوج لا ينسى أبدًا . ولعل لهذا دلالته التاريخية أو الأصح والأصدق دلالته الربانية . وذلك لأنه لا يمكن أن ينصلح أمر الكون وتستمر الحياة وتستقر إلا من خلال فضيلة المرأة . فضيلة المرأة هى الأساس . فإذا حدث تساهل فى فضيلة المرأة انهار الكون وفسدت الحياة . ولهذا لا يمكن أن تقاس فضيلة الرجل بفضيلة المرأة . وأهمية وجسامة وخطورة وعظمة فضيلة المرأة تفوق كثيرا فضيلة الرجل ولذلك فإن البيئة السوية تنظر بهلع إلى خيانة المرأة . وكذلك ينهار الرجل ؛ لخيانة المرأة . ولعل هذا يرتبط بالدور الهام للمرأة فى الحياة كأم . هذا الدور الذى لا يمكن إنكاره أو الإقلال من شأنه وخاصة من قبَل الذين ينادون بالمساواة إذ ينكرون قصر دور المرأة فى الحياة على أن تكون رحما وأن تكون وعاء لاحتواء جنين . إن الدور الحقيقى للمرأة يبدأ بعد الميلاد حيث التربية والتنشئة . حيث التخليق النفسى الفكرى الوجدانى الأخلاقى الإنسانى الاجتماعى السياسى . هذا هو دور المرأة الأم . ولذلك كان يجب أن تكون فاضلة . امرأة غير فاضلة لاتصلح أما . . ولكن نعود فنقول إن دور المرأة الفاضلة لا يكتمل ولا يؤدى على النحو الأكمل إلا من خلال رجل فاضل وبذلك يتحقق قول العزيز العليم ﴿ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة النور : آية ٢٦] .

خريف الرجل

بعض الناس يفضلون الخريف. . ينتظرونه؛ يترقبونه. يبهجهم الخريف أكثر من الربيع. يجدون فى تساقط الأوراق جمالاً؛ ربما أكثر جمالا من تفتح الورود. يجدون فى الشجرة الجرداء وقارا يوحى بجمال راق. ينتشون باللون الرمادى الذى تكتسى به الدنيا سماء وأرضا، ويهزهم هواء ينبئ ببرودة قادمة. ويؤكدون أن للخريف رائحة ليس كمثلها شيء توحى بجلال وقدم وتاريخ. يجدون فى كل ذلك معنى وقيمة وعمقا، ويشملهم حزن رقيق هو أقرب إلى السرور الهادئ يدفعهم للتأمل والتفكير والتدبر والإدراك الباطنى وتراودهم الأفكار النبيلة على خالق الكون ومبدعة ويصحو لديهم حنين دفين للفن.

ولذلك لا ينزعج رجال كثيرون وهم يتخطون الخمسين. لا يشعرون بالانطفاء ولكن بالتوهج. ولا يقلقهم تجاعيد زاحفة أو شعيرات بيضاء متناثرة ربما بكثافة ولا ينشغلون بمقاومة الزمن والبحث عن وسائل للعودة إلى الوراء. بل يرتشفون الحاضر بتلذذ غير معهود ويستمتعون بخواطر وإلهامات ونبضات وجدان غبر مسبوقة. وتشملهم همة وحماس ونشاط هادف واع، وتصبح قيمة الزمن أعلى وإذا بالساعة الواحدة إيجازا وإمتاعا تساوى يوما من الزمن غير

البعيد. وفى هذه الرحلة يستطيعون بالعين المجردة أن يروا الكرة الأرضية وهى معلقة فى فضاء الكون، ويدركوا علاقتها بالكواكب والمجرات الأخرى، وَينفذوا بأبصارهم وأفكارهم ووجدانهم إلى أعمق أعماق الكون فى محاولة لإدراك سر الوجود.

وتتراجع القوى الجسدية؛ رويدا رويدا تراجعا غير محسوس وغير مدرك. وتتزايد قوى أخرى؛ القوى المعبرة حقا عن معنى الإنسان؛ وأهمها قوة الروح. فتزداد شفافية وإحاطة وإلماما ونفاذا وإدراكا ونقاء وكشفا. وإذا بقوة الروح تمنح الجسد المتراجع قوة من نوع جديد تزيد من روعة الأحاسيس وتجاوبها ويكتسى الوجه وقارا يوحى بجمال أخاذ ناضج من عقل ناضج.

وقليل من الرجال ينزعجون يصيبهم قلق وغم؛ يتحسرون؛ ينظرون بأسف إلى الشباب اليانع من حولهم بل ويحسدون، يهرعون إلى الأصباغ والألوان والمقويات لعلهم يسرقون الزمن ولكن هيهات. ينشغلون بالكامل بأجسادهم؛ فتنطفىء أرواحهم. ويدخلون فى سباق هم الخاسرون فيه حتما. ويزداد القلق وتزداد الكآبة؛ فيزداد التهور والاندفاع والانغماس واللهث وراء لذات فورية مؤقتة تفشل فى إرواء الجسد المتراجع.

والعلم يطلق على هذه المرحلة سن اليأس عند الرجال. وتبدأ حول الخمسين فى مقابل سن اليأس عند المرأة والتى تبدأ حوالى الخامسة والأربعين.

وهى مرحلة تراجع هورمونى وتساقط فى الخلايا؛ فيخفت وهج الرغبة، تتواضع رعونة النشاط والهمة، وتبطؤ الاستجابة ويصحب ذلك تغيرات واضحة فى الملامح والشكل والقوة والحركة، ويصاحب ذلك تغيرات فى النفس فتغشاها كآبة وزهو وفتور وانطفاء وتراجع وانهزام وحسرة وأسى، وهى نفس المعانى التى يمكن أن نستوحيها بالنظر إلى أشجار الخريف وخاصة إذا كنا من هذا النوع من الناس الذى يزعجهم الخريف. أما الذين يحبون الخريف؛ فإنهم لا يزالون يرون الشجرة واقفة منتصبة قوية، جذورها ممتدة فى الأرض وساقها مرتفعة إلى السماء، ومازالت تجرى فى شراايينها المياه حاملة عناصر الحياة من الأرض إلى خلاياها. ولا يزالون يرون فيها جمالا من نوع خاص بعد ذبول أوراقها.

إذن الأمر يتوقف على كيف ننظر إلى الأشياء؟ كيف نفهم الحياة؟ كيف ندرك المعنى؟ كيف نرى بانوراما الحياة منذ لحظة الميلاد إلى لحظة الرحيل؟ وما حكمة المراحل التى يمر بها كل مخلوق حى من ضعف إلى قوة إلى ضعف إلى زوال؟

بعض الناس يزعجهم التراجع الجسدى فيشغلهم عن تعاظم فى قوى أخرى داخلهم ويلهيهم عن متع أخرى لا يمكن إدراكها إلا فى هذه المرحلة من العمر.

بعض الرجال فى هذه المرحلة من العمر يتصورون أن بإمكانهم خداع الزمن فيتشبهون بشباب العصر فى ملبسهم وسلوكهم، ثم يتصورون أنه

بإمكانهم البدء من جديد، أى أنى وكأنهم يبدءون حياتهم فيتزوجون بمن تصغرهم فى السن كثيرا ويدخلون فى سباق ومنافسة مرهقة مضنية ويعيشون الوهم. وبذلك تضيع منهم متعة الطمأنينة مع شريك العمر ورفيق رحلة الحياة حيث كبرا معا وحصدا معا، وحزنا معا، وادخرا رصيداً هائلا فى بنك الذكريات ينفقان منه وهما يتدثران ملتصقين حول مدفأة الشتاء. وبدلك تفوت عليهم فرص الاستمتاع بالأبناء وقد كبروا وبفرض قفز الإحصاء من حولهم فبذلك يفقدون فرص التمتع بالشجرة الكبيرة التى بدأها معا وأثمرت من الأولاد والبنات والأحفاد ما أثمرت.

والاكتئاب يداهم هؤلاء الذين يتحسرون بشدة على الشباب الفائق، ويسمى اكتئاب سن اليأس. وهو اكتئاب مرضى يحتاج إلى علاج طبى نفسى حيث يشعر الرجل بالحزن واليأس والقنوط وعدم الرغبة فى الحياة والأرق وضعف الشهية مع زيادة فى الوهن الجسدى أو قد تكثر الشكاوى الجسدية دون أن يكون لها أساس عضوى. حالة من توهم المرض دون أن يكون هناك مرض.

وتزداد نسبة حدوث الاكتئاب بعد المعاش، ولعلها من أكثر فترات العمر حرجا عند الرجل. والمعاش عند بعض الناس معناه فراغ وضياع السلطة والهيبة وكأن الرجل كان يستمد كل كيانه وذاته من عمله الرسمى فقط. وكأن كل قيمته كانت محصورة فى وظيفته، فإذا فقدها أصبح هو لا شىء بعد أن كان كل شىء. وهذه خطورة أن يصل الإنسان إلى سلطة أو منصب براق أو هام دون أن يكون هناك أساس علمى أو تفوق مهنى حقيقى. فإذا ترك وظيفته عاد إلى نقطة

الصفر لأنه لم يكن لديه رصيد حقيقى من علم وخبرة وتميز . هذا يحدث فى نوعية معينة من الوظائف والتى تجعل صاحبها ينشغل بالسلطة ويزهو بالقوة وينصرف عن الاهتمام الواعى الذكى لمستقبله فيما بعد زوال السلطة .

تقل حدة أعراض مرض المعاش عند هؤلاء الذين يستمرون فى عمل جاد ومفيد ومثمر مستفيدين من رصيدهم العلمى الثقافى ذى الخبرة الطويلة ؛ لأنهم أتقنوا صنعة معينة ، وأجادوا حرفة خاصة ، ووصلوا إلى درجة من النضج والاحتراف بحيث يتلهف الناس على بضاعتهم لشدة إتقانهم وبراعتهم ودقتهم وإبداعهم . وهذه البضاعة من الممكن أن تكون رأيا أو مشورة أو حلا لمشكلة . . ولا شىء يوقف مرض المعاش إلا العمل بعد المعاش . ويجب أن يستمر العمل حتى آخر لحظة من العمر . يجب ألا يتوقف الرجل أبداً عن العمل . والعمل بعد المعاش له متعة خاصة ، متعة الهواية متعة العشق ، متعة الإرادة الحرة الكاملة ، متعة الإبداع والتفنين . هذه متع لم يكن يشعر بها الرجل وهو يمارس عمله فى شبابه ؛ هذا بجانب من المتع التى لا تتاح للإنسان إلا فى هذه المرحلة من العمر .

مع التطور الحضارى العلمى وخاصة فى المجالات المتعلقة بالبيئة والصحة أصبح من الممكن للإنسان أن يستمتع بالنشاط والقوة والحيوية والذاكرة الحادة بعد الستين . وأيضا بعد السبعين وربما بعد الثمانين . بعض الناس تقل حركتهم بعد المعاش تحت تأثير وهم تقدم العمر . وبالتالى تقل حركتهم النفسية ؛ فيزداد الإحساس بالنهاية

وهذا خطأ كبير. إذن يجب أن يستمر النشاط الحركى العضلى والنفسى. النشاط الكامل، يجب أن تظل الشرايين مفتوحة تدفع بدم الحياة إلى كل خلايا الجسم من قلب ملىء بالحماس وحب الحياة ومن عقل منتبه واع أصبح يدرك بعمق أكثر.

ثم يجب على الإنسان أن يعود إلى هواياته التى لم يكن لديه متسع من الوقت لممارستها، يجب أن يقرأ الكتب التى فاتته، وأن يعطى وقتا للاستماع إلى التراث الموسيقى بتمرغ وخاصة أن الموسيقى فى وقت انشغالنا تكون دائما فى الخلفية؛ أى لم نكن نعطيها اهتماما وتركيزا خاصا.

يجب ألا يتوقف الإنسان عن ممارسة كل ما كان يستمتع به فى بداية حياته. ألا يتوقف عن الترفيه والترويح عن النفس. بل إن هناك متعا جديدة تضاف وأصبحت متاحة له في هذه السن أو أنه أصبح قادرا عليها.

ويستطيع الرجل مهما بلغ عمره أن يستمر فى ممارسة الحب بكل أشكاله مع شريكة حياته. ربما بكفاءة يحسده عليها أبناء العشرين. فلديهما رصيد من خبرة وألفة. كل منهما يستطيع أن يرى تعبيرات وجه الآخر فى الظلام، كل منهما يستطيع أن ينصت بفهم إلى أنفاس الآخر. كل جزء من جسمه يستطيع أن يقيم حوارا مع كل جزء من جسم شريك حياته، بل إن هناك حوارا روحيا عذبًا يدور بصفة مستمرة وهما صامتان.

وإذا هما يمارسان الحب يستعينان بكل الذكريات الحلوة فى ممارسات سابقة تعد بعشرات المئات . إنه مذاق مستمر ونكهة دائمة وإحساس متجدد ونبض قلب لا يتوقف وحركة روح لا تهدأ ونشاط فكر عاشق . .

وَهْمٌ كبير أن الجنس غير متاح للمتقدمين فى العمر ، بل هو متاح بصورة أروع وأمتع لأنه بهما فى أعلى سماء ؛ فتصبح نشوة الروح فى أقصاها حتى وإن كانت هزات الجسد فى أدناها .

عندما يصاب الرجل بالضعف الجنسى!!

قد تضطرب الوظيفة الجنسية عند الرجل مثلما تضطرب أى وظيفة فسيولوجية أخرى فى الجسم مثل الاضطرابات التى تصيب الهضم أو التنفس أو الحركة العضلية وهكذا.. وهذا الاضطراب الجنسى قد يكون خللاً وظيفيا مؤقتا يستمر ساعات أو أياما أو أسابيع أو حتى شهور قليلة سرعان ما يشفى منه الإنسان بصورة تلقائية أو بفعل علاج بسيط. وقد يكون الاضطراب الجنسى بسبب مرض محدد نتيجة لأسباب معينة وهذا يستلزم التدخل العلاجى والذى قد يؤدى إلى شفاء كامل وعودة الحالة إلى طبيعتها قبل المرضية أو قد يؤدى إلى تحسن نسبى.

المهم أن الوظيفة الجنسية عند الرجل يعتريها ما يعترى أى وظيفة بدنية أخرى من اضطرابات تؤدى إلى عدم القدرة على أداء هذه الوظيفة كما ينبغى أو عدم القدرة على أدائها بالمرة.

إلا أن هناك أمورا يجب توضيحها منذ البداية حتى لا يرسخ فى أذهاننا اعتقاد بأن الوظيفة الجنسية تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها أى وظيفة فسيولوجية أخرى بالجسم. إنها حقا وظيفة لها جانبها

النفسى إلا إن هناك عوامل أخرى هامة تتداخل مع فسيولوجيا الجنس لتحدد مدى القوى وشكل الأداء وهذه العوامل المرتبطة بالوظيفة الجنسية هى:

١ ـ عوامل نفسية مباشرة كالحالة المزاجية الموجود عليها الإنسان مثل السرور والطمأنينة أو القلق والاكتئاب.

٢ ـ عوامل نفسية غير مباشرة أو لا شعورية مثل التاريخ الجنسى للإنسان والآثار التى تركتها الأحداث والمفاهيم الجنسية على هذا الإنسان وترسبت فى عقله الباطن وأصبحت تتحكم فى هذه الوظيفة الجنسية.

٣ ـ الظروف البيئية والثقافية التى تشكل موقف المجتمع من الجنس والعلاقات الجنسية.

٤ ـ العلاقة مع الطرف الآخر؛ أى الشريك فى العلاقة الجنسية، علاقة زواج، علاقة محرمة، مودة، نفور. . وهكذا.

٥ ـ الموقف الدينى للإنسان.

٦ ـ السن، أى عمر الإنسان، فهذه الوظيفة بالذات تتأثر بمراحل العمر المختلفة.

كل هذه العوامل مجتمعة وليس بعضها تؤثر فى النهاية على الوظيفة الجنسية. هذا بالإضافة إلى العوامل الفسيولوجية المباشرة وغير المباشرة كالصحة العامة والجهاز العصبى والغدد الهورمونية الجنسية.

ونحن لسنا بصدد مناقشة الأسباب، بل سنهتم بتأثير الاضطراب الجنسي عند الرجل على العلاقة الزوجية. هذا التأثير الذي يعوق في حد ذاته نجاح العلاج وقد يصبح سببا لاستمرار الحالة وقد يؤدي إلى فشل الزواج.

من الناحية الإكلينيكية؛ فإن الاضطراب الجنسي قد يكون مؤقتا وقد يطول زمنيا. قد يأتي في صورة متكررة من وقت لآخر وقد لا يعاود الرجل أبدًا بعد إصابته ثم شفائه أول مرة.

وقد يكون اضطرابا كاملا وقد يكون اضطرابا محدودا.

وقد يأتي تدريجا ويتزايد مع الوقت على مدى شهور وقد يداهم الإنسان فجأة.

وهذا الاضطراب قد يصيب الرجل مع امرأة بعينها ولكنه من الممكن أن يكون سليما وطبيعيا مع أي امرأة أخرى.

وفي النهاية؛ فإن هذا الاضطراب قد لا يظهر إلا إذا حاول الرجل ممارسة الجنس. أما بعيدا عن المرأة؛ فإنه يكون سليما تماما كما تؤكد وتثبت الفحوص الطبية التي أصبحت الآن قادرة على تحديد أسباب ودرجة الاضطراب الجنسي ووجوده من عدمه.

هذه كانت الصور الإكلينيكية المختلفة للاضطراب الجنسي عند الرجل وهو ما يطلق عليه المعجز IMPOTENNCE.

وكما قلت لا يهمنا دراسة الأسباب ولكن يهمنا دراسة التأثير الذي يكون في بعض الأحيان مزلزلا في حياة الزوجين.

١ ـ الأمر فى البداية وفى الأساس يتوقف على طبيعة العلاقة الزوجية وبمعنى أدق إلى أى مدى تتواجد وتتوافر المودة والرحمة بينهما. إلى أى درجة هما متقاربان. هل يعيشان كالغرباء، بحيث يكون العطاء مساويا تماما للأخذ وإذا حدث أى خلل فى الميزان يكون الشعور بالغبن والظلم وعدم العدالة والتفكير الجدى فى الانفصال والنجاة؛ أم هما قريبان إلى الدرجة التى يشعر كل منهما أنه أم أو أب للطرف الآخر، يعطيه دون أن ينتظر المقابل ويتفانى فى إسعاده ورضائه ويكون لدى كل منهما يقين بأن علاقتهما أبدية ولا يمكن أن تنفصم لأى أسباب.

وهناك عقود زواج مشروطة بمدى قدرة كل منهما على الاستمرار فى العطاء. ومن ضمنها العطاء الجنسى. فإذا تعطلت هذه القدرة كانت مبررا كافيا للانفصال. وهناك عقود أبدية خالية من أى شروط. والنقطة الجوهرية هنا تصبح: مدى اليقين الراسخ داخل كل منهما عن أبدية العلاقة الزوجية مهما كانت الصعوبات والتحديات.

هذه النقطة بالذات تؤثر على مدى استجابة الرجل للاضطراب الجنسى الذى أصابه وتؤثر أيضا على مدى استجابة المرأة للاضطراب الجنسى الذى أصاب زوجها. فإذا كان كل منهما يشعر بأن استمرارية العلاقة بينهما مشروطة بالكفاءة والقدرة والعطاء الذى ينتظر المقابل الموازى المتكافئ فإن اضطرابا شديدا سيصيب الطرفين إزاء الاضطراب الجنسى الذى يصيب الرجل؛ وسيكون اضطراب الرجل أشد.

وذلك سيخلق عنده حالة من القلق تضاعف من اضطرابه الجنسى مما يجعل التشخيص الطبى معروف الأسباب صعبا ومختلطًا، ومما يعوق بكل تأكيد نجاح خطة العلاج. ولكن فؤاد الرجل يصبح ثابتا ومطمئنا إذا كانت العلاقة خالدة، وكذلك سيكون رد فعل المرأة مما يتيح المواجهة الهادئة الموضوعية العلمية للمشكلة واحتواءها مثل أى مشكلة صحية أخرى.

٢ ـ العامل الثانى والهام والذى يحدد مدى تأثر كل منهما وكذلك التأثير على كفاءة العلاج ثم التأثير على مستقبل حياتهما معا هو:

موقع وأهمية ودور الجنس فى حياتهما. قد يشكل الجنس موقفا أساسيا ومحوريا تقوم عليه العلاقة الزوجية بأكملها؛ وقد لا يحتل المركز عند بعض الأزواج ولكن يكون قريبا من المراكز. وقد يكون هامشيا فى حياة البعض الآخر. والحياة الزوجية التى تقوم على الجنس لابد أن تنهار فى حالة إصابة أحدهما باضطراب الجنس سواء إذا كان مؤقتا أو دائما فإنه سيؤدى إلى نفس النتيجة. أى زلزلة العلاقة، وكذلك التحسن الجزئى سيكون له نفس النتيجة السيئة. فالرجل قد لا يعود إلى حالته الطبيعية تماما وإنما يصادف درجة معقولة من التحسن تتيح للعلاقة الجنسية أن تستمر. ولكن هذا لا يكون مرضيا مع هؤلاء الذين اعتبروا الجنس محورا أساسيا لحياتهم الزوجية.

ولكن ثمة تأثيرات لا نستطيع التقليل من شأنها تحدث حتى لدى هؤلاء الذين يعيشون والجنس على هامش حياتهم. فالجنس سواء كان محوريا أو هامشيا فإنه يشكل قيمة معنوية ما فى حياته الزوجية.

فالجنس فى إطار الزواج لا يحقق إرضاء جسديا فقط، ولكنه يحقق ربما بالدرجة الأولى فى بعض الأحيان إرضاء عاطفيا نفسيا، وخاصة لدى هؤلاء الذين لا يحتل الجنس لديهم موقفا محوريا. أما هؤلاء الذين يعتبرون الجنس مركزا لحياتهم الزوجية فإن الوظيفة الحسية الجسدية للجنس تكون هى الأقوى، ولذلك يفتقدونه بشدة مثل الذى يفتقد الطعام وهؤلاء هم الذين يتأثرون إلى حد الزلزلة فى حالة إصابة الرجل بالاضطراب الجنسى.

٣ـ ثم تأتى إلى النقطة الثالثة وهى موقف المرأة بالتحديد من زوجها. مدى الثراء فى شخصية هذا الإنسان، مدى إعجابها بجوانب أخرى فى شخصيته؛ مدى الامتلاء الذى تشعر به مع هذا الرجل حتى فى ظل ضعفه الجنسى الذى طرأ على حياتهما، ومدى قدرة الجوانب الأخرى الثرية فى شخصيته على تعويضها الفقد الجنسى.

٤ ـ ثم الثراء فى حياتهما معا، اهتماماتهما المتعددة، قدرة هذه الاهتمامات المشتركة على إمتاع الروح والنفس والعقل والوجدان إلى الدرجة التى يشعران أنهما لا يفتقدان الجنس افتقادا كبيرا مزعزعا لا مفزعا. والثراء يعتمد أيضا على عمر الزواج ورصيد الذكريات. فإن آثار الضعف الجنسى الذى يصيب الرجل بعد عام أو عامين من الزواج تختلف عن الآثار التى يخلفها ضعف لم يصب الرجل إلا بعد مضى عشرين عاما من الزواج.

٥ ـ وهناك رصيد آخر مهم يكون محفوظا لدى الزوجة ويحدد رد فعلها هى بالذات تجاه الاضطراب الجنسى الذى أصاب زوجها.

فهناك رصيد بالامتنان. الامتنان للزوج الذى وقف بجوارها وقت مرضها أو ضعفها أو اضطرابها سواء فى الجنس أو الصحة العامة أو أى ظروف أخرى، لم يتذمر، ولم يتنكر لها، ولم يشك. وإنما كان ودودا رحيما مقدرا راضيا وكان كل ما يعنيه مساعدتها على اجتياز أزمتها. .

وهناك رصيد من نوع آخر، رصيد من العداوة، رصيد رغبة دفينة للانتقام وذلك لأن هذا الزوج لم يرحمها وقت ضعفها أو مرضها أو أزمتها. بل أظهر تذمره وتهديده وربما سخريته وحنجرته وملهمته. هنا تنطوى المرأة على مشاعر الألم والتى تتحول إلى حقد وعداوة. وتنتهز فرص ضعفه لترد إليه ما فعله بها وتنكل به خاصة فى هذا الموضوع الحساس جداً بالنسبة للرجل؛ هنا تصطاده فى مقتل. وهذا لا يعنى إلا أن هذه العلاقة الزوجية مضطربة من الأساس.

٦ ـ العامل السادس قريب إلى حد كبير من العامل الخامس ويتعلق بشكل عام بالصراعات الحادة والمزمنة الموجودة بين الزوجين وهى صراعات تتسم باللارحمة واللاإنسانية وتؤدى إلى أن ينتهز كل منهما لحظات ضعف الآخر ليضغط عليه ويزيد من ضعفه وربما إذلاله. وهذا يعنى أيضا هذه العلاقة الزوجية مضطربة من الأساس؛ خاصة مع الزوج الأنانى النرجسى والزوج الذى كان يعامل زوجته بقسوة والزوج الذى أهمل زوجته عاطفيا وجنسيا والزوج الذى تعددت خياناته الزوجية مما ترك جرحا غائراً لدى زوجته.

٧ ـ العامل السابع هو المستوى الأخلاقى للزوجة ومستوى قيمها التى تتمسك بها ودرجة تدينها وتقديسها للحياة الزوجية. فإذا تدنى المستوى الأخلاقى للزوجة فإن رد فعلها يكون قاسيا إزاء الاضطراب الجنسى الذى أصاب زوجها مما ينبئ أو يهدد فعليا استمرار هذا الزواج. ويخبرنا بهذا تاريخها الأخلاقى أى سيرها وسلكوها وخاصة قبل الزواج. وأيضا المستوى البيئى الاجتماعى الأسرى الذى تربت ونشأت وعاشت فيه أو ما يطلق عليه «الأصل» فهناك أصل طيب وهناك أصل سيئ والأصل يشكل معدن النفس، معدن ثمين نفيس وهناك معدن رخيص ردىء.

٨ ـ يتحدد التأثير أيضا بطبيعة كل منهما فى مواجهة الأزمات والمشكلات والصعوبات ومدى قدرتهما معا على مواجهة ما يطرأ على حياتهما معا من أزمات معنوية أو مادية. الانزعاج الشديد يؤدى إلى مضاعفة المشكلة. أما المواجهة الهادئة الموضوعية فقد تكون كافية فى حد ذاتها لعلاج الحالات البسيطة والطارئة.

٩ ـ وثمة عوامل أخرى مؤثرة قد نتعامل معها مجتمعة، كالنضج والثقافة والتعليم والعمر ودرجة الحياء. وفيما يتعلق بنقطة الحياء فإن الأمور الجنسية قد تطرح بشكل سافر فى حوارات كثير من الناس؛ الأزواج والأصدقاء وحتى الزملاء أما عند قليل من الناس فإن الأمور الجنسية خاصة العلاقة الجنسية بين الزوجين تحاط بقدسية خاصة ولا يمكن أن تكون محورا لحديث أو تندر أو مزح أو فكاهة. وإذا كان من الضرورى تناولها فإن ذلك يتم بحياء وحذر. إلا أن هذا الحياء قد يصل إلى أقصى درجاته خجلا

ويصاب الإنسان بالقلق الشديد والتوتر إذا اضطر لمناقشة أحوال حياته الجنسية خاصة مع شريك حياته، بل يحجم إحجاما كاملا عن ذلك مهما كانت ضرورة وأهمية تناولها؛ وهذا معناه أن الإنسان قد تعرض لكبت شديد فى مراحل تنشئته متعلقا بالأمور الجنسية بحيث إن الحديث عنها بأى صورة كانت يعتبر خطأ كبيرا وجريمة لا تغتفر تستحق العقاب الدنيوى والسماوى.

كانت هذه هى العوامل المؤثرة فى مدى استجابة الزوجين للاضطراب الجنسى الذى يصيب الرجل.

والآن نتطرق إلى تأثير الضعف الجنسى للرجل على الحياة الزوجية.. هناك عدة احتمالات:

١ ـ إما أن تدمر الحياة الزوجية تدميرا كاملا خاصة إذا كان الضعف كاملا ومستمرا.

٢ ـ أو تصاب الحياة الزوجية باضطراب تكيفى يأخذ وقتا طويلا لإعادة الاتزان والتكيف. وفى خلال ذلك قد تنفجر صراعات قديمة وتتسم الحياة بالخلافات الشديدة والمشاحنات وتخيم التعاسة.

٣ ـ وإما يتعرض الموضوع إلى إنكار كامل من الطرفين فى محاولة لإسقاطه بالكامل من الوعى ويكملان مسيرة الحياة وكأن شيئا لم يكن.

٤ ـ أو قد تحدث تأثيرات سلبية على الزوجين. فتصبح الزوجة قلقة عصبية مكتئبة حادة. ولكن دون أن تدرك أن هناك علاقة مباشرة بين حالتها وضعف زوجها. وكذلك يصبح الزوج عدوانيا خاصة

مع زوجته، وذلك عكس ما قد يتوقع البعض. المتوقع أن يعوض الزوج نقصه الجنسى برقة المعاملة. ولكن الحقيقة أن الزوج يصبح شديد العدوانية مع زوجته؛ سهل الاستثارة عصبيا مع الاستخدام المفرط للإسقاط وقد يحملها بشكل مباشر أسباب ما أصابه.

٥ ـ وقد يمرض الزوج مرضا نفسيا فعليا وتسيطر عليه مشاعر الاضطهاد ثم الشك. وقد تسيطر عليه ضلالات فعلية بأن زوجته تخونه رغم أنها بريئة تماما. إلا أن ذلك نادر الحدوث، وإذا حدث فالفترة مؤقتة. ولا يكون الضعف الجنسى هو السبب المباشر لمرض الزوج ولكنه يكون هو الذى فجر الاستعداد الكامن للمرض لدى الزوج.

٦ ـ والزوجة لا تخون زوجها لضعفه الجنسى؛ ولكن الزوجة التى لديها الاستعداد للانحراف قد تتخذ ضعف زوجها الجنسى ذريعة لاستكمال مسيرة الانحراف. الانحراف استعداد وتكوين وبيئة وتربية وتركيبة اجتماعية أسرية نفسية وتاريخ سابق للانحراف يبدأ فى مرحلة مبكرة من العمر ويستمر بصورة دائمة أو متقطعة ولكنه لا يختفى بشكل مطلق إلا فى أحوال نادرة وبهداية من الله.

ولا علاقة إطلاقا بين الضعف الجنسى للزوج وانحراف الزوجة. بل إن معظم الزوجات المنحرفات لديهن أزواجا أصحاء جنسيا وربما بصورة مبالغ فيها.

٧ ـ الاحتمال السابع هو المواجهة الموضوعية الهادئة العلمية للموضوع إما الانتظار بعض الوقت حتى يزول الحالة إذا كانت طارئة ومؤقتة. وإما استشارة المتخصص.

زوج مهاجر

لم يتابع الفيلم الذى تعرضه الطائرة بالرغم من أنه كان يحلق فى شاشة العرض ويضع سماعة الصوت على أذنيه. بل استعرض جزءا من فيلم حياته وبالتحديد منذ زواجه من جيهان وحتى هذه اللحظات. استغرق الأمر منه ساعتين ونصف الساعة، وهو الزمن الذى قطعت فيه الطائرة المسافة من أرض الوطن إلى الدولة ـ الوطن ـ التى يعمل بها منذ أربع سنوات، وها هو ذا يبدأ السنة الخامسة بعد أن طلب مد الإعارة بضغط من زوجته وأولاده..

مع قرب انتهاء السنة الرابعة، كان قد قرر أن يعود نهائيا إلى وطنه ليستقر مع أسرته بعد غياب أربع سنوات انفصلت فيها كل سنة من الأخرى بشهر إجازة يقضيه بينهم.. ومنذ بداية الإعارة قررت الأسرة أن تبقى فى القاهرة على أن يذهب هو وحده، وذلك توفيرا للمصروفات، ولزيادة المدخرات، تحقيقا للخطة الاقتصادية التى اتفقوا عليها بعد أن أعلنوا بنبأ الإعارة. وحين أخبرهم بنية العودة النهائية استشعر وجوما فى أصواتهم جميعا. أعقب ذلك خطاب عاجل وصله من زوجته فى صورة بيان للميزانية يوكد استفادتها من دراستها بكلية التجارة. أوضحت فى خطابها أن الخطة الاقتصادية الطموح لم يتحقق

منها إلا نصفها نظرا للزيادة المطردة فى الأسعار وحالة التضخم التى تدهورت بسببها القيمة الشرائية للجنيه المصرى، وأن رجوعه الآن يشكل كارثة تتحطم بسببها آمال الأسرة جميعها، وأنهم بالرغم من تشوقهم لعودته النهائية بينهم إلا أنهم يرجونه أن يبذل الجهود والمساعى للبقاء سنة أخرى خامسة على الأقل حتى يعيدوا النظر فى خطتهم.

كان الخطاب منطقيا ومقنعا إلى حد كبير لأنه اعتمد على لغة الأرقام واشتمل على آمال وأحلام، ولم يخل من النبرة العاطفية التى تؤكد حزنهم على فراقه وتلهفهم لعودته، ولكن ما باليد حيلة. ولم تنس جيهان أن ترسل الخطاب بمجموعة من الطلبات الجديدة التى تتسع المكالمة التليفونية لها. وآخر سطر كان توقيعها بزوجتك الحبيبة المخلصة جيهان وأبنائك البررة ليليان وسوسن وأحمد وطارق.

تأثر بالخطاب وقرر أن يستجيب لطلب الأسرة وتم له ما أراد من امتداد إعارته.

واستقبلته الأسرة بقلق وفرحة وسألوه عن النتيجة فأراد أن يمزح معهم وقال لهم إن طلب الإعارة قد رفض. وكأن قد مستهم جميعا صاعقة فاصفرت وجوههم وانعقدت ألسنتهم وماتت فرحة اللقاء. ثم استفاقوا وعلا صوت باقتراح أن يستقيل بالقاهرة ويتعاقد مباشرة. يعنى النتيجة أنه لابد أن يسافر مرة أخرى. وأخبرهم بمزحته فاطمأنت قلوبهم وعادت الفرحة وقفزوا إلى الحقائب، ورغم أنه أحضر لهم ما لا يقل عن ٨٠٪ من طلباتهم إلا أنهم أظهروا بعض التذمر وعدم الرضا مع انخفاض مفاجئ فى درجة حماسهم. وظل التراجع

التدريجي فى الحماس يتزايد حتى وصل إلى أقصى منتهاه بعد أسبوع واحد من عودته.

وفى نفس ليلة وصوله أراد زوجته بعد فراق سنة فأخبرته بعذرها وفهم أنها الدورة الشهرية. فاكتفى بتقبيلها وضمها إلى صدره فاعتذرت بالتعب والإجهاد. وبالكاد بعد عشرة أيام استطاع أن يلتقى بها بلهفة عارمة منه وفتور غير متوقع منها بررته بضغط المسئولية والإرهاق.

وانقضى أسبوعان من الإجازة، وبقى أسبوعان، ووضع خطة متكاملة ليتمتعوا معا ويعيشوا حياة الأسرة على الشاطئ. ولكنها خطة ووجهت باعتراضات نظرا لتعدد انشغالهم. كل فرد من أفراد الأسرة كان له ترتيباته الخاصة فى هذه الأيام. وتشابكت وتعقدت الاهتمامات والمشاغل؛ وانتهوا إلى رفض خطته. فأراد أن يشاركهم فى اهتماماتهم وخططهم ولكنهم اعتذروا بأدب. شعر بالوحدة، وبالغربة، وببعض الضياع، والفراغ، وأراد أن يثير حماسهم ويحرك اهتمامهم بمزحة أخرى فأخبرهم أنه قدم موعد عودته. تهللوا شاكرين له حرصه على العودة المبكرة إلى عمله وذلك من أجلهم. وحين تراجع عن مزحته أصابهم فتور؛ فأدرك على الفور أنه لا مكان له بينهم. وفعلا قرر السفر قبل انتهاء إجازته. طالبوه بمزيد من المصاريف، وحملوه قائمة جديدة من الطلبات، قبلوه، وتمنوا له رحلة سعيدة وركب الطائرة. وعاد بذاكرته إلى ما قبل الإعارة الميمونة. قبل أربع سنوات؛ كان يكد ويعمل هو وجيهان. المرتبات محدودة والمتطلبات ضخمة، ولكن جيهان كانت عظيمة؛ عاشقة لزوجها وأولادها وبيتها؛ متفانية من أجل راحتهم؛ مدبرة كأستاذة

اقتصاد. ولكن الحياة صعبة، والأحلام كثيرة؛ كلها تدور حول أشياء صغيرة مثل سيارة وجهاز تكييف وفيديو واستطاعة قضاء أسبوعين فى المصيف كل صيف. وكانت أحلام الأولاد والبنات أكبر من ذلك، ولكنهم كانوا يسعدون بالقليل المتاح من والديهم. لم يفترقوا يوما واحدا، وكانوا يقلقون إذا تأخر فى عمله، وكانوا يعترضون لتغيبه يوما كاملا، مثلا كل شهر لزيارة أمه. كانوا يفتقدونه بشدة، وكان يفتقدهم بعنف. ما إن يغادر المنزل حتى يشعر باللهفة للعودة، وكان أكثر ما يمتعه اضطجاعه بجانب جيهان كل ليلة فى حوار ممتع تتخلله مداعبات، ولم تكن المداعبات تتطور إلا مرتين كل أسبوع. ولكنهما كانا حريصين على المواقيت دون تخلف.

واجهوا مشاكل خاصة حينما كان يمرض أحد الأبناء، وحين التحقت ليليان بالكلية، ولكنها كانت مستورة، وكان يستطيع بجهد خارق أن يغطى كل الاحتياجات على المستوى الأدنى.

ولكن كان هناك حلم أكبر يداعبهم جميعا وهو حلم الإعارة. وكانوا كثيرا ما يضعون خططا مستقبلية فى حالة قبول الدعوات وتحقق السفر. بعض هذه الخطط كانت معقولة وبعضها الآخر كان خرافيا مغرقًا فى الخيال اللامحدود مثل شراء قطعة أرض بالمدن الجديدة واقتناء شقة مطلة على البحر وهكذا..

إلا أنه لابد من القول أنه بالرغم من الصعوبات الاقتصادية الجمة التى كانت تواجهها هذه الأسرة فإنها كانت أسرة سعيدة. وأكبر مظاهر سعادتهم تماسكهم وترابطهم الشديد وعدم استطاعة أحدهم

أن يتغيب عن الآخرين. حقيقة إن خلافات كثيرة كانت تنشب بينهم وأحيانا كان الخصام. كانوا يجسدون المعنى الحقيقى للأسرة والافتراض الصحيح لمعنى الأسرة وهو أن يعيش أفرادها مع بعضهم البعض؛ وأن يكونوا متماسكين مترابطين باستمرار ويضمهم مكان واحد ويعيشون عيشة واحدة ويواجهون الحياة معا، وألا يتغيب أحد أفرادها مدة طويلة لأن هذا يحدث خللاً نفسيا واهتزازا بنائيا، وأن يتمتع جميع أفراد الأسرة باهتمام ورعاية بعضهم البعض، وأن يفيض الوالدان على الأبناء بالحب وأن يفيض الأبناء على الوالدين بالحب، وأن تسود المودة والرحمة بين الأم والأب، وأن يؤدى كل منهما دوره، وأن يتحمل مسئولياته؛ أمّا وزوجة؛ وأبًا وزوجًا. وإن تخلى أى منهما عن مسئولياته يحدث نقصا شديدا لا يمكن أن يستطيع الطرف الآخر تعويضه فلا الأم تستطيع أن تقوم بدور الأب، ولا الأب يستطيع أن يقوم بدور الأم.

وهبطت عليهم الإعارة، وظنوا أنها هبطت من السماء حاملة الخير من أجل تحقيق الخطة الطموح، والحقيقة لا أحد يعرف من أين هبطت بالضبط. وهذه هى أول فكرة طرأت على رأسه المجهد حين وطئت قدمه الطائرة بداية للسنة الخامسة. هل كانت الإعارة خيرا أم نقمة..؟ وإن كانت نقمة فهى بالقطع لم تهبط من السماء، ولكنها جاءت من عند الشيطان.

وسافر فى العام الأول؛ وواجهت الأسرة صعوبات نفسية وحياتية لعدم وجوده. افتقددت جيهان الزوج، وافتقد الأبناء الأب، وافتقد البيت الرجل. ولكنهم تحملوا من أجل الخطة ومن أجل الأحلام

الصغيرة. ولكن هذا لا يمنع الخواء الذى كانت تشعر به جيهان كل ليلة وهى تمضى إلى الفراش بمفردها. وفى ليالى الشتاء كانت تحتاج بشدة إلى أنفاس زوجها الدافئة. ولم يكن بد من إحكام الغطاء حولها؛ إلا أن ملمس الغطاء كان يشوكها مؤكدا افتقادها لغطاء زوجها الحانى.

وعناء النهار كان مع الأولاد الذكور والذين زاد تحديهم لها وإصرارهم على مزيد من الحريات وإهمالهم لدروسهم.

والطامة الكبرى حين طالبت البنتان بحقوق أكثر لم يكن فى إمكانها تحقيقها. وتفاقمت الصراعات، وعلت الأصوات، وأجهدوا، وهددت بأن تخبر أباهم. فتراجعوا، واشتم أبوهم بعض مشاكلهم، فقرر العودة؛ فاستقاموا تماما. ولكن الحقيقة أنهم لم يتراجعوا ولم يستقيموا ولكنهم عثروا جميعا ـ جيهان وأولادها ـ على الصيغة المناسبة التى تقلل الصراعات إلى الحد الأدنى وبالقدر الذى لا يزعج أباهم لكى يستمر فى إعارته ويستمروا هم فى حياتهم.

واعتادوا أن يكونوا بلا أب، مثلما اعتادت جيهان أن تكون بلا زوج. واعتاد البيت أن يكون بلا رجل. أصبح الغطاء يكفى جيهان فى الشتاء، وأصبحت تستغرق فى النوم سريعا بمجرد دخولها الفراش. لم تتنبه أنها تدريجيا تفقد أحاسيس معينة. وكان ضروريا أن تفقد هذه الأحاسيس؛ بل هى رحمة من ربنا أن تفقدها. استمرار هذه الأحاسيس كان سيدفع بها إلى الجنون؛ بل يجب أن تموت هذه الأحاسيس. إن قوانين العواطف وقوانين الفسيولوجيا تفرض أن ينام الرجل على فراش زوجته كل ليلة؛ مجرد وجوده بجوارها. وأن تظل

جدران الحجرة مشبعة بأنفاسه؛ وأن يتبادلا الكلمات، وأن يتبادلا اللمسات، وأن يتشاجرا ويتصالحا، وأن يضحكا وأن يبكيا، وأن يناما وأن يصحوا، وأن يسمعها كلمات الحب وأن تسمعه، وبين الحين والحين يعاشرها. هذا هو القانون الطبيعى؛ هذه هى فسيولوجيا الزواج؛ أى فسيولوجيا العواطف وفسيولوجيا الجسد.

وتعانى كل زوجة بشدة من فراق زوجها إلا إذا كانت لا تحبه؛ وإلا إذا كانت امرأة مسترجلة؛ أى تفتقد للمشاعر الأنثوية الصحيحة المتكاملة.

ولذلك عانت جيهان، ولكنها تحملت وصبرت من أجل الأحلام الصغيرة، ثم تناست، ثم ماتت الأحاسيس؛ أى اعتادت على عدم وجودها لأنه غير موجود؛ أى فى النهاية اعتادت على عدم وجوده، وأصبح الفراش لا يتسع إلا لها. ولهذا ضاق عليها الفراش حين عاد فى إجازته الأولى؛ ضايقتها أنفاسه. ولأول مرة تنتبه لشخيره. ولأول مرة لا تستجيب أحاسيسها. كارثة أن تستيقظ هذه الأحاسيس مرة ثانية؛ فإذا استيقظت فماذا ستفعل ومازال أمامها ثلاث سنوات أخرى؟

وحين عاد فى إجازته الأولى لم يصدقوا أنفسهم من روعة الأشياء التى جلبها لهم وتمنوها. وكلها انحصرت فى الملابس والأجهزة الحديثة، وكانت هذه هى البداية. وكان الوعد بأشياء أكثر. ولكن لم تتسع حياة الأبناء أيضا لوجود أبيهم. كانوا قد رتبوا حياتهم بدونه، وأصبح دور الأب يضايقهم. فهو يضع حدودا ونظاما ويرعى قانونا، وهم اعتادوا أن يعيشوا بلا حدود وبلا راع، وتحملوا على مضض.

كلهـا أيام ويغـادر، وغـادر، ثم عـاد بعـد سنة أخـرى، ثم غـادر، وأصبحت إجازته تمثل عبئا عليهم. وصلوا إلى السنة الرابعة وقد تحقق لهم الاستغناء الكامل عن الأب مثلما تحقق لجيهان الاستغناء الكامل عن الزوج. أصبحوا ليسوا فى حاجة إليه كإنسان وإنما حاجتهم إليه كانت تدور فقط حول تحقيقهم لطموحاتهم التى نمت واتسعت وتعدت حدود الأحلام البدائية الصغيرة.

ليليان وسوسن كبرتا وكان لابد من التفكير فى زواجهما. وأحمد وطارق كبرا وكان لابد من التفكير فى إيواء كل منهما فى شقة لتستقر حياته. إذن الأحلام اتسعت بشدة؛ أحلام فوق إمكانية الأربع سنوات على تحقيقها. لابد أن يزيد إلى خمس، ثم إلى عشر. ولا مانع من أن يزيد الإعارة إلى أربعين سنة أخرى حتى يمكن استيعاب كل الأحلام الجديدة. وسيجد فى كل يوم حلم جديد؛ ستتولد أمنيات جديدة؛ والأب قلبه كبير. ولا يريد أن يكسر قلب أحد؛ يعيش وحيدا؛ فى عزلة؛ عزلة نفسية؛ عزلة اجتماعية. لا أحد يكلمه ولا يكلم أحد، لا أصدقاء. فكل إنسان منصرف إلى حال سبيله، يحسبها ليل نهار: ماذا كسب، ماذا أنفق، ماذا يشترى، أسعار العملة، أسعار السوق الحرة، أسعار الشقق، إعلانات الصحف، تحجرت حياته تماما. فقط ذهنه لا يعمل إلا فى الفلوس. فقد اهتمامه بأشياء كثيرة، فقد اهتمامه بالفن؛ بالقراءة، فقد اهتمامه بتجويد عمله والإبداع فيه، فقد إحساسه بالجمال، فقد شاعريته ورومانسيته، فقد الاهتمام بكل شىء إلا شيئا واحدا فقط هو الفلوس.

وتغيرت ملامحه، وتغيرت طريقته فى الملابس، بل تغيرت نبرات صوته ولهجته وتغيرت حواراته مع أسرته فى التليفون، وتغيرت طبيعة خطاباته، وتغيرت أسرته أيضا. سيطرت عليهم لغة المال وكأنهم يعيشون فى بورصة. كل شىء أصبح يُقَيّمُ بالمال؛ حتى وجود الزوج الأب بعيدا عنهم أصبح يقيم بالمال.

وحين هبطت الطائرة أرض المطار فى رحلة العودة لبدء سنة خامسة تنبه إلى صوت مضيفة الطائرة بالإعلان عن الوصول. ففاضت عيناه بالدموع وأحس بأن سقف الطائرة يجثم فوق صدره وغادرها بأقدام مثقلة. . ودخل الشقة الصغيرة التى كانت تشع بحرارة جهنم. ولكنه لم يسارع إلى تشغيل أجهزة التكييف فقد كانت جهنم بداخله أقوى وأشد. ونام على فراش ساخن يغطيه تراب وأشواك وتمنى الموت. ورأى نفسه فى حلم الموت وكأنه يغرق، بينما جيهان وليليان وسوسن وطارق وأحمد يقفون على الشاطئ ينظرون إليه بلا مبالاة.

رجل سعيد

إذا أردت أن ترى هذا الرجل فأنا لا أعرف عنوانه، ولكنى أستطيع أن أصف الطريق إليه. وأنت قادم من الدراسة فى طريقك إلى الأزهر، وقبل أن تصل إلى الميدان الكبير الذى يقع فيه ضريح الحسين ومن خلفه حى الجمالية، انظر إلى شمالك فسترى جامعة الأزهر، هدئ السرعة قليلا حتى ترى الباب الرئيسى للجامعة، فى مواجهة هذا الباب انظر إلى اليمين واقفز بعينيك فوق الرصيف؛ ستطالعك مجموعة من الدكاكين أسفل البيوت توشك على الانهيار، ربما عمرها ألف عام، من عمر الأزهر. يتوسط هذه الدكاكين دكان متشح بالسواد (هباب)، ادخل بعينيك هذا الدكان؛ ستجد الرجل، ستتعرف عليه من الوهلة الأولى، إذ إنه أكبر رجل رأيته فى حياتك. عمره حوالى تسعين عامًا، هكذا يبدو من ملامح وجهه، ولكن بعد أن تتابعه لثوان قد ترجع عمره إلى الثمانين وربما أقل، ولكن ليس أقل من السبعين بأى حال من الأحوال، وإن كان يتمتع بحماس وقوة وتدفق وانتصاب هامة رجل فى الأربعين.

أنا أعرف هذا الرجل منذ خمسة وعشرين عاما، أراه يوميا، ولكن لم أتبادل معه كلمة واحدة حتى هذه اللحظة، وكان من الممكن أن

أقتحمه؛ ولكن خشيت أن يصدنى، فهو يعمل كل الوقت، ولا ينظر إلا إلى حيث الأوانى النحاسية وهو يقلبها فى النار. إنه «مبيض نحاس» وأنا أتشاءم إذا مررت فى وقتى المعتاد كل يوم ووجدت الدكان مغلقا، و أتشاءم إذا مرت العربة بسرعة ولم أتمكن من رؤيته، وأتشاءم أكثر إذا وجدت مساعده (ربما ابنه أو حفيده) يقف أمام النار بدلا من الرجل. أصبح جزء من طمأنينتى النفسية أن أرى هذا الرجل كل يوم تقريبا لمدة ثانية أو ثانيتين ودون أن تلتقى عينانا. وأنا لا أعرف اسمه إذ لا توجد أى لافتة تعلو الدكان. ولنطلق عليه اسم «محمد» ليسهل السرد، دعنا نقل «عم محمد» إكراما لسنه.

وأنا أستطيع أن أقول إن «عم محمد» رجل سعيد. بل لا أكون متجاوزا إذا قلت إنه أسعد رجل فى العالم.

ولما لا يكون سعيدا وهو يصر على العمل حتى هذه السن المتأخرة. كل يوم وبصفة منتظمة من العاشرة صباحا تقريبا وحتى السادسة أو السابعة فى المساء حوالى عشر ساعات. وإذا مررت فى أى وقت فستجده واقفا منتصب القامة بأكملها؛ محنى الظهر قليلا (أمر لا مفر منه) وهو قريب جدّا من النار صيفا وشتاء. فى أحوال قليلة جدّا ستجده جالسا فوق كرسى صغير قريب من الأرض ربما بلا ظهر وأمامه ترابيزة صغيرة أكثر انخفاضا من الكرسى وفى يده كوب من الشاى. واجزم أنه لولا أنه فرغ من عمله لما جلس.

ولماذا لا يكون سعيدا وهو يعمل بجدية. ومن يأخذ عمله بجدية فهو سعيد. ولا شك أن وراء استمراره فى العمل قصة، ربما هو

محتاج لهذا العمل، أى أنه هو العائل الوحيد لأسرته وليس له دخل مادى آخر، ولكن الأجمل ـ وهذا ما أعتقده يقينا ـ أنه غير محتاج، ولكنه يصر على العمل.. فلا شك أن له أولادا وأحفادًا كثيرين يكفونه ولكنه لا يريد أن يحتاج لأحد. ولاتتصور كمية التعب التى يواجهها ويشعر بها «عم محمد»، وأتحدى أن يستطيع شاب أن يقف وقفته، إذن هو يعمل إيمانا منه بأن أى إنسان يجب أن يعمل، وأن يكون جادا فى عمله، منتجا، وأن يكسب من عرق جبينه، وأن يلجأ الناس إليه محتاجين لعمله، وأن يتقاضى أجرا على هذا العمل ينفق منه على أسرته. ولاشك أنه يجد معنى لهذا العمل، قيمة، لذّة؛ متعة. لايمكن أن يقف هكذا أمام النار لمدة عشر ساعات دون أن يكون هناك دافع قوى جدًا، وأيضا متعة فائقة. يالها من سعادة، ياله من رجل محظوظ. إنه رجل حقيقى، جاد؛ مسئول، ملتزم.

وهو رجل سعيد لأنه رجل شريف، إنه يكسب من عرق جبينه، رزقه حلال، وهذا فى حد ذاته كفيل بأن يجعله رجلا سعيدا، بالرغم أنه رجل فقير، ربما فقير جدًا، هكذا تدل كل المظاهر المرتبطة به. ولكنه سعيد؛ لأنه شريف. راقبوا أى مليونير أو بليونير يرتزق من الحرام سرقة أو رشوة أو نصبًا أو استغلال نفوذ؛ ستجدونه مضطربا، قلقا، زائغ العينين، مهدود الوجه، تعيسًا، باهت الضحكة، لا تستشف أى نبرة صدق من صوته، زيف، بل فى زيف يالها من تعاسة.

وهو رجل سعيد؛ لأنه رجل أمين، أمانة أداء العمل وإتقانه. ولا شك عندى أنه يجد لذة وهو يؤدى عمله بإتقان شديد ويزهو به وقد

عادت الأوانى لامعة ناصعة نظيفة. ولشرفه وأمانته فكل أهل المنطقة يلجئون إليه، ولابد لأنهم يثقون به، ثانيا لأنه رجل جاد وحازم ويعرف أنه يقدم خدمة ممتازة؛ ولذلك يرفض النقاش فى مثل هذه الأمور، إلا أن أسعاره تتفاوت ليس حسب حجم ونوع العمل ولكن حسب الزبون. فهو من أهل الحى منذ سبعين عاما أو أكثر. وهو يعرفهم فردا فردًا، ويعرف ظروف كل أسرة؛ ولذلك ينزل بأسعاره إلى أدنى حد لهؤلاء الذين يجدون صعوبة فى الحياة. كل رجل شريف سعيد، وكل رجل أمين سعيد.

و«عم محمد» رجل سعيد؛ لأنه رجل محبوب. وبالرغم من أننى لم أر فى خلال ربع القرن صديقا يجلس إلى دكانه؛ لأن كل وقته تحمل، إلا أننى واثق أن له أصدقاء مقربين إلى نفسه جداً، وواثق أيضا من حب كل الناس له، زبائنه وجيرانه. حاول أن تتأمل وجهه؛ ستجد رغم الجدية بشاشة، وكأن هناك ابتسامة صافية على وجهه كل الوقت. ولأنها ابتسامة غير معلنة بالكامل، فهذا معناه أنك تستخلص معنى الابتسامة من وجهه، وأن ثمة إحساسا فاض على وجهه نابعا من داخله، والأصوب أن نقول إن وجهه يشع بالطمأنينة والسلام، هاتان أرق كلمتان تصفان وجه عم محمد. ورغم تقدم سنه وفقره وبشاشته إلا أنك تهابه، ورغم أنك تهابه فإنك تحبه، تحبه بمعنى أنك تطمئن وتستريح إليه وتود أن تتكلم معه أو حتى تجلس إليه وهو صامت. إن التواجد بجواره يعطى طمأنينة وسرورا، ولهذا فعم محمد رجل سعيد لأنه محبوب.

و«عم محمد» رجل سعيد؛ لأنه يحظى باحترام وحب زوجته. والحقيقة أنا لا أعرف إذا كانت زوجته على قيد الحياة أم لا (أطال الله عمره وعمرها إذا كانت موجودة)، ولكن لدى إحساس أنها موجودة، ربما كانت أصغر منه بعشرة أو عشرين عاما، يعنى عمرها فى الثمانين أو السبعين، ولا شك أنهما يعيشان فى حجرة أو شقة صغيرة فى حى الجمالية، بعد اتجاه الأبناء والبنات كل إلى حياته الخاصة؛ لا شك أن «عم محمد» هو سيد بيته، ولا شك أن زوجته تحبه وتحترمه وتهابه؛ فهو إنسان جاد وحازم وملتزم، وفى نفس الوقت هو إنسان ودود بشوش رحيم، وهو إنسان شريف وأمين وصادق، ولا شك أنه رجل كريم. لا يبخل عليها بالمال والعاطفة، وأنا على ثقة تامة أنه يؤدى واجباته الزوجية. فمثل هذا النوع من الرجال لا يضعف. ولأنه مازال يعمل؛ ولأنه مازال متحمسا للحياة فلابد أنه يتمتع بقوة. وهو يحب زوجته لأنها عاشت معه مالا يقل عن خمسين عاما، لم تتخلف عن الرقاد بجواره ولا ليلة واحدة، وهو لم يعرف غيرها على الإطلاق؛ رغم أن معظم زبائنه من السيدات والفتيات الصغيرات من ساكنات الأزهر والحسين والجمالية، واللاتى تراهن فى طريقك يتعثرن فى الملاءة اللف، التى صممت خصيصا لتكشف عن الأنوثة الحقيقية للمرأة المصرية، إلا عين «عم محمد» التى لم تطرف أبدًا ونفسه التى لم تهف إطلاقا لأى واحدة، بالرغم من إعجاب بعضهن برجولته التى تتبدى فى صلابته وجديته وبشاشته وطيبته. إن «عم محمد» يؤدى واجباته كاملة نحو زوجته ويجزل لها العطاء. ورغم أنه لم يتعلم الإتيكيت أو البرتوكول

إلا أنه يحترم زوجته جداً، يتعامل معها وكأنها ملكة، ولا شك أن هذه السيدة المحظوظة تشعر أنها أهم سيدة فى العالم، وهى ترى أن «عم محمد» هو أهم وأعظم رجل فى العالم.

وهى تعرف أن كل قرش يدخل بيتها هو قرش حلال. والزوجة تحترم وتهاب وتعشق الرجل الذى يرتزق من حلال. وانظر إلى زوجة مليونير أو بليونير تعرف أن زوجها يرتزق من حرام؛ إنه يحظى لديها بعظيم الاحتقار. وإذا كانت تحظى ببعض التسيب القيمى الأخلاقى؛ فإن رجلا آخر قد يتسرب إلى عقلها ووجدانها. ولكن زوجة «عم محمد» لم تعرف من الرجال إلا زوجها العظيم، ولا يمكن أن تفكر فى غيره، فهو يملأ عقلها ووجدانها وكل حياتها، كما أنها نشأت على خشية الله وفى بيت متماسك تؤدى فيه كل العبادات وتعلمت احترام الزوج والإخلاص له من أمها.

لم لا يكون «عم محمد» سعيدا وهو ينعم بإخلاص زوجته. الزوجة المخلصة هى أكبر مصادر سعادة الزوج.

و«عم محمد» يتمتع بصحة بدنية ونفسية طيبة، فمجيئه للدكان صباح كل يوم واستمراره فى العمل حتى المساء ووقوفه على قدميه طوال النهار وحركته الدائبة فى أركان الدكان؛ تعنى أنه معافى بدنيا. وهو يأتى إلى الدكان ويعود إلى بيته مترجلا. وهذا الاستمرار على مدى سنوات طويلة يعنى أنه لم يفقد الحماس فقط، وهذا يعنى سلامته نفسيا. ولا شك أن زوجته الطيبة تعد له الطعام الجيد بما يتناسب مع سنه ومع ظروفهما الاقتصادية. ولأنها زوجة مريحة وطيبة ومطيعة؛ فهو لا

يعانى من أى ضغوط. وبالطبع رجل مثل «عم محمد» لا يستطيع أن يهمل عنصر الترفيه فى حياته. فهو يقوم مع زوجته ببعض الزيارات الأسرية وكذلك زيارة أولياء الله الصالحين وفى ذلك مجلبة للسرور.. وفى المناسبات يصعدان إلى الحدائق التى تعلو ربوة الحى، وأحيانا ينفرد هو بالمشى فى ميدان الحسين، وقليلا ما يتبادل الحديث مع بعض الأصدقاء الذين يقابلهم فى الطريق، وأحيانا يدعونه إلى الشاى فى أحد المقاهى المتناثرة فى الحى القديم، وهذا أيضا يجلب له سرورا كثيرا، وهو يحب سماع الراديو وخاصة بعد عودته فى المساء وقبل أن يغادر بيته فى الصباح. إنها حياة مليئة بالصحة والنشاط والاستقرار والترويح الذى يجلو النفس. فلماذا لا يكون سعيدا؟

والمدهش، والذى يجعلنى متيقنا من السعادة التى ينعم بها «عم محمد» أنه رجل نظيف، ففى يوم من الأيام رأيته وهو يغادر الدكان بعد أن انتهى من عمله، وجدته رجلا نظيفا لامعا مختلفا عن الرجل الذى أراه أمام النار ممسكا بالأوانى، فطبيعة عمله تنشر هبابا (اللون الأسود الذى يتراكم بفعل الدخان) فى كل أرجاء الدكان وبالقطع تشمل وجهه وملابسه، لاشك أنه يغتسل باهتمام بعد نهاية اليوم الشاق ويلبس جلبابا نظيفا وطاقية بيضاء مزهرة. ولقد لمحت فى قدميه حذاء من الكاوتشوك الأبيض غاية فى النظافة. وأنا فى رأيى الخاص أن الرجل النظيف هو رجل سعيد، فالنظافة هى أحد أوجه الجمال، والذى يشعر بالجمال ويبحث عنه ويحرص عليه هو رجل سعيد. وأيضا هو رجل منظم، انظر إلى دكانه، المفروض أن يعج بالفوضى، ولكن أبدا، رغم الهباب إلا أن هناك نظاما وترتيبا يعطيانه هيبة واحتراما، فهناك مكان

للأوانى التى جاء بها الزبائن توا ، ومكان آخر للأوانى التى انتهى من تنظيفها وتلميعها بالقصدير ، ثم الفرن المكشوف ثم الحوض الملىء بالماء لغسل الأوانى وإطفاء سخونتها بعد وضعها فى النار . وأنظف مكان فى دكان «عم محمد» هو ذلك الحوض الذى يعلوه صنبور وعليه صابونة حيث يتوضأ ويغتسل إذ كان يؤدى الصلوات الخمس فى مواعيدها . كانت هذه من أهم الأشياء التى يحرص عليها ، نظافة ونظام ، أى كل شىء تحت سيطرته . وإذا أردت أن أقحم الطب النفسى ، فإننى أتصور أن «عم محمد» شخصيته قهرية أو شخصية وسواسية ، أى يحب النظافة والنظام والدقة والحرص على المواعيد والأمانة والضمير اليقظ والجدية والصرامة إلى حد عدم المرونة أحيانا . وأيضا الصفاء النفسى والنقاء وافتراض حسن النية .

ولا أتصور أن «عم محمد» سيحتاج إلى خدماتى كطبيب نفسى فى يوم من الأيام ، فهو ينعم برضا الله ومحبته ، فهو يحرص على الصلاة ، ورغم ضيق ذات اليد فهو متصدق ويؤدى بالكامل ما عليه من زكاة . ولكنه لم يستطع أن يحج وهو حريص على صلة الرحم .

ويحرص على مودة جيرانه وحسن معاملتهم ، وهو دائم الاستغفار واستحضار عظمة الله فى عقله وقلبه ، وهو إنسان راض ، لا يلهث ولا يتكالب ، يستمتع بالقليل الذى بين يديه ولا يتطلع إلى ما فى يد غيره . غاية أمانيه ألا يحرمه الله من صحته ليستمر يعمل ، فهو يجد متعة ولذة حين يتقن عمله ؛ ليشعر بأحاسيس الاكتمال تلك التى نسميها فى علم النفس «تحقيق الذات» هو لا يريد أكثر من ذلك . هو واثق بنفسه مقتنع بأهمية عمله وهو يحب هذا العمل .

وهو لا يعرف معنى كلمة سعادة، ولم يفكر فى السعادة أبدا، وهو لا يعرف أن ما يشعر به اسمه السعادة، غير أنه يدرك أنه يكون فى قمة حسن الحال حين يشعر أن بينه وبين الله عمارا. ولا تحاول أن تدقق فى معنى كلمة «عمار» ولا كيف يشعر الإنسان أن بينه وبين الله عماراً، هكذا يشعر «عم محمد». وهو يعرف بمفهومه الخاص معنى كلمة «عمار» ويعرف كيف هذا «العمار» بينه وبين ربه.

إن «عم محمد» تنتابه بعض حالات الضيق أحيانا وخاصة فى الصباح، وفى أحوال قليلة كان يجد صعوبة فى الذهاب إلى دكانه، ولحرصه على مواعيد الناس وحاجاتهم؛ كان يجر رجليه، وبحكم خبرتى كنت ألمح ذلك فى وجهه، وكان يحزننى أن أراه حزينا أو مهموما.

وأنا أدعوك أن ترى «عم محمد» وخاصة إذا كنت تمر بطريق الأزهر، ولكن أنصحك بأن تفعل مثلى وتكبح جماح رغبتك فى أن تقتحمه وتتحدث إليه. دعه يعمل لأنى أعتقد أنه غير مهتم بالتحدث إلى أحد، ولكن ادع له بالصحة فهو جزء من مصر، جزء من التاريخ الذى يعبق به الحى الذي يقع به دكانه، جزء من الشخصية المصرية، الإيمان، العمل، الجدية، الإتقان، الشرف، الأمانة، الصدق، الحزم، الطيبة، السماح، الصفاء، الشفافية، النقاء، هو كل مصر..

كم أنت سعيد يا «عم محمد».

كم أنت غنى يا «عم محمد».

الشخصية والزواج

ولو أردنا تحديدًا فمن الأفضل أن نتحدث عن شخصيات غير سوية، شخصيات لا تصلح للزواج. وإذا تزوجت أسهمت في حياة زوجية سعيدة مهددة بالطلاق، شخصيات متطرفة أقرب إلى المرض من الصعب الحياة معها. الطب النفسي صَنَّفَ هذه الشخصيات وأعطاها أسماء وحدد لها سمات، شخصيات تعيش بيننا، تعذبنا وتقلقنا وتجعل الحياة صعبة، خالية من نفوسنا الإحساس بالطمأنينة. إنها شخصيات صعبة:

١ ـ الشخصية النرجسية:

هو المختال الفخور الذى يمشى فى الأرض مرحا، كأنه قادر على أن يخرق الأرض وأن يبلغ الجبال طولا. هو المغرور المتكبر المتعالى الذى لديه شعور طاغ بأهميته، وبأنه هو الأوحد الذى يملك أندر الصفات وأغلى المواهب ولا أحد يضاهيه ولا أحد يملك أن ينافسه. والويل لمن يحاول أن يبرز بجواره أو أن يتعداه، أو حتى أن يرفع بجانبه، فهو لا يرى إلا نفسه عملاقا دون بقية الناس. إنه معجب بنفسه أيما إعجاب مزهو بذاته إلى حد الجنون.

إنه عشق الذات الذى يقف حائلا أمام عينه وعقله فلا يرى الناس إلا أقزاما أقل قدراً وأقل شأنا منه. ولهذا فخياله دائما يتجه ناحية النجاح غير المحدود؛ ليكون فى القمة؛ ليتجه إليه الناس مهنئين معجبين مباركين تابعين. والمحيطون به لابد أن يسخروا أنفسهم لخدمته وراحته والعناية به، وهو يستغلهم ويستثمر إمكاناتهم ويستنفذ طاقاتهم لخدمة مصالحهم، ثم ينكر جهودهم فى النهاية ويبدو هو فى صورة المبدع الخلاق العالم المفكر، بينما الحقيقة أنه قام بتجميع جهودهم وصاغها فى قالب ثم سطر عليها اسمه بخط عريض بارز.

تعرفه من ملابسه الذى يبالغ فى أناقتها والتى قد لا تتناسب أحيانا مع عمره.. تعرفه من طريقة مشيته؛ تعرفه من صوته، تعرفه من طريقه حديثه عن نفسه وإنكاره واحتقاره لجهود الآخرين.

إنه لا يحمل مشاعر لأى إنسان، لا يتعاطف ولا يتألم من أجل أحد. لايضحى ولا يتنازل ولا يعطى وإذا أعطى فمن أجل مصلحة، ولا يتورع عن إذلال من أعطاه، فهو الذى يتبع صدقته بالمن والأذى، وصدقته ليست لوجه الله ولكن من أجل أن يحقق شهوة التفضل والتميز والعلو، لا شيء يشغله غير ذاته المتضخمة المتورمة، فهو متمركز حولها وبالتالى فهو يبالغ دائما فى قدراته وإنجازاته، وهى مبالغة غير موضوعية.

ولشدة ولعه بالاستحواذ على اهتمام الآخرين وشدهم إليه ليدوروا حول مركزه؛ فإن اهتمامه بالسطح والقشرة وبالمظهر يكون طاغيًا على حساب الاهتمام بالموضوع فى عمق لديه، بل هو إنسان

ذو سطح لامع وخاو جداً من الداخل؛ ولهذا لا يحقق إبداعا حقيقيًا أو إنجازاً علميًا . .

إنه لا يضيف شيئا بل هو مقلد مزور، وهو يجيد فقط تلميع ما عنده وحسن عرضه كالتاجر الماهر الخادع الذى يهتم اهتماما بالغًا بوجهة العرض وإبراز بضاعته وحسن تنسيقها ورفع سعرها ورفع شأنها، مع أنها بضاعة فى حقيقة أمرها متوسطة الجودة.

وهو يتوقع أن الناس لابد أن تتجاهله وأن تهادنه وتقدم إليه الهدايا وأن تتطوع لخدمته، وبالرغم من ذلك لا يشعر أنه أصبح مدينا لهم بالمقابل وليس مطلوبا منه أن يجاملهم وأن يهدى إليهم، أو أن يقدم لهم خدمات مقابل ما قدموه له، فالرعية هى التى تتودد وتتفانى فى خدمة الملك، وليس الملك هو الذى يتودد إلى الرعية.

ولذا فهو يغضب ويثور ويتوعد إذا لم يقم المحيطون بواجبهم نحو خدمته ومجاملته، وغضبه يصل إلى مداه إذا تجاهلوه وعاملوه بغير اهتمام، يمتلئ قلبه غيظا ويهاجمهم ويؤذيهم إذا تمكن من ذلك، هذا الإنسان تكون توقعاته من الناس غير معقولة وغير متوازنة.

علاقاته بالناس قائمة على الاستغلال والانتهازية والأنانية، أصدقاؤه مرحليون، كل حقبة بأصدقاء جدد، يمتص دماءهم ويستفيد منهم حتى إذا اكتشفوا أمره وكرهوا غروره، انتقل هو إلى مجموعة لا تعرف تشوهاته النفسية؛ ولهذا ليس له أصدقاء دائمون مخلصون وليس عنده إحساس بضعف الآخرين ومعاناتهم.

هذا الإنسان معرض لنوبات اكتئاب وخاصة إذا تعرض لفشل، أو إذا تحدى الآخرون كبرياءه وغروره وإذا تجاهلوه أو احتقروه.

ونرجسيته تجعله شديد الحرص على نفسه أى على صحته، يراعى نظامًا غذائيًا صحيًا ويمارس الرياضة ويتابع حالته مع الأطباء. يهتم بأن يبدو دائما شابا وقويا ويعانى نفسيًا كلما تقدمت به السن. ويداهمه الاكتئاب الحقيقى إذا انتزعت من يديه السلطة والقوة وابتعد عن دائرة الضوء، والاهتمام بإقالته أو حين إحالته على المعاش، وهنا تبدأ أيضا معاناته الجسدية من آلام واضطرابات ليشغل بها لدى الأطباء.

والنهاية تكون مؤلمة لأن الإنسان يسير إلى ضعف، السلطان يزول، والمال يقل، والقوة تضمحل والجمال يذوى والصحة تعتل. ولا يبقى أمام النرجسى إلا الحسرة والأسى.

هذا هو الإنسان النرجسى، وهو يجعل الحياة الزوجية صعبة، فهو لا يستطيع أن يحب وبالتالى فهو لا يحب، أى أنها حياة تفتقد الحب؛ وبالتالى تفتقد المودة والرحمة. حياة جافة جوفاء سطحية، مظهرية شكلية، حياة بلا معنى ولا مضمون ولا عمق، حياة باردة إلى حد الصقيع. بعض الناس لا يحتملون الحياة الدائمة مع إنسان نرجسى؛ ولذا فالحياة الزوجية قد تنتهى إلى طلاق، بعد سنة أو حتى بعد عشر سنوات، أو بعد عشرين سنة.

***

٢ ـ الشخصية الاضطهادية.. البارونويد:

المحور الأساسى الذى تدور حـوله هذه الشخصية هو الشك فى كل الناس، ســوء الظن وتوقع الإيذاء من الآخـرين. كل الناس فى نظره سيئون. هذا هو موقفه الذى لا يتزحزح عنه. وهذا هو رأيه فى كل الناس.

إن أى إنسـان قـد يشك أو قـد يسىء الظن فى إنسـان آخـر أو فى مجموعة من الناس فى ظروف معينة، ولكنه إذا كان سويًا فإنه يغير رأيه؛ إذا أثبتت الظروف حسن نيـة الآخرين أو إذا كان هناك دليل على براءتهم. هنا يعتذر هذا الإنسان السوى عن سوء ظنه وشكه ويؤنب نفسه.

أما البارونويد فإنه يظل على موقفه مهما كانت الأدلة، ومهما أظهر الآخرون حسن نواياهم ومهما أجمع الناس على أنه مخطئ فى سوء ظنه. إنه يتمسك بشكوكه ويظل يرى السوء فى الآخرين؛ ولهذا فهو فى حالة تحفز، فى حالة استعداد دائم لصد عدوان يتخيله أو إفساد مؤامرة تحاك ضده.

وكل من يحاول أن يثنيه عن سوء ظنه يضعه فى القائمة السوداء ويضمه إلى قائمة السيئين، ولهذا فهو دائم الشعور بالاضطهاد. والشعور بالاضهاد يولد عدوانية داخلية، فهو ضد كل الناس ويضمر الكراهية أو عدم الارتياح أو عدم الحب لمعظم الناس، ومن السهل أن يتحول إلى شخص عدوانى يؤذى إذا أتيحت له الفرصة لذلك.

والعدوان يأخذ صوراً متعددة، كالنقد اللاذع والسخرية والاستهزاء بالآخرين، قد يواجه الناس برأيه فيهم، وقد ينتقدهم من خلف ظهرهم، وانتقاداته جارحة وتسبب جرحا وألما. ولا يراعى مشاعر الآخرين، بينما هو لا يتقبل أى نقد أو توجيه، فهو شديد لآراء الآخرين ويتخذ مواقف عنيفة وعصبية فيها تهور إذا تعرض له بالنقد أو باللوم؛ ولذا فهو معدوم الأصدقاء وعزلته تزيد من شعوره بالاضطهاد وتزيد من عدوانيته وعداوته.

والحوار مع هذه الشخصية مضن ومتعب؛ فهو لا يتقبل ظاهر الكلام وإنما دائم البحث عن الدوافع الخفية والمعانى الدفينة، والنقاش معه يطول، وهو فى الغالب محاور بارع يجهد من يحاوره، ويحمل المواقف والكلمات أشياء ومعانى بعيدة أو مبالغًا فيها، تتوه وأنت تحاوره وقد لا تفهم ماذا يقصد، وتندهش لتفسيراته وتحليلاته المشبعة بسوء الظن وتوقع الغدر والخيانة وكل ما هو سيئ.

هذا الشخص إذا أكدت الأحداث توقعاته شعر بزهو شديد، أما إذا أكدت الأحداث خطأ توقعاته وتحليلاته فإنه لا يتراجع عن سوء ظنه، حتى فى المواقف الجديدة ومع الناس الذين يقابلهم لأول مرة. فإن سوء ظنه يكون هو الغالب؛ ولذا يجتهد فى البحث عن أدلة لإثبات صحة نظريته.

وهذا الإنسان بلا عواطف أو عواطفه محدودة جدًا وتستطيع أن تقول إنه إنسان بارد، وكلمة بارد ذات دلالة ومغزى كبيرين، ومعناها أنك لا تستقبل منه أى شيء، لا تستقبل منه دفئًا أو مودة أو تفاهما أو

تعاطفًا، بل على العكس تهب عليك من ناحيته رياح باردة شائكة وسامة. أيضا وهو يفتقد لروح الفكاهة والمرح، قليل أو نادر الابتسام، لا يضحك من قلبه وابتسامته سوداء صفراء ساخرة، والغريب أنه يصف نفسه دائما (ليدافع عن برودته) بأنه إنسان موضوعى عقلانى. العقل عنده مقدم على العاطفة، الحقيقة أنه لا عقل لديه ولا عاطفة؛ فهو لا يتألم من أجل أى إنسان أو حيوان.

وهو صلب لا يتنازل ولا يقبل حلولاً وسطًا، تقلقه محاولات التودد والاقتراب من الآخرين، يتحاشاهم ويبتعد عنهم، والاكتفاء الذاتى، ولذا فهو متمركز حول نفسه بشكل خطير قد يصل إلى الإحساس المرضى بالتيه والزهو والشعور بالأهمية، إنها حالة من تضخم الذات التى تكون من سمات الشخصية البارونويدية. فى غالب الأحيان تكثر هذه الشخصية بين المتعصبين والمتطرفين وأصحاب الأفكار الغريبة، والباحثين عن الزعامة والذين يتجسسون على الناس للإيقاع بهم، كما تكثر بين الذين تقدم بهم العمر بدون زواج، وأيضا تكثر بين المطلقين والمطلقات.

وفى مجال العلاقة الزوجية فإننا نجد أن الزوج البارونويد علاقته بزوجته مضطربة؛ لسوء ظنه وغيرته وشكه وتقليله من شأنها وحساسيته لأى كلمة تصدر عنها. حياته الزوجية يسودها البرود وتلفها عداوة مستترة، ونفس الأمر فى علاقته بأبنائه.

ولسوء ظنه وشكه الدائم فإنه يبث فى أبنائه وبناته عدم الثقة والحذر المبالغ فيه وعدم القدرة على إقامة علاقات مشبعة مع

الآخرين. والزوجة التى لها هذه الشخصية تحقق نفس القدر من الخيبة فى الحياة الزوجية وغيرتها إلى حد المرض، ومن المستحيل أن تثق ولو للحظة فى صدق زوجها؛ فهو فى نظرها فى كل الوقت كاذب ومخادع وخائن وتتوقع منه الغدر فى أى لحظة.

إذن الحياة الزوجية للإنسان البارونويد رجلا كان أو امرأة هى حياة فاشلة، فلا حياة تقوم على الشك وسوء الظن. ولا حب يستمر مع التعالى والغطرسة، ولا مودة تسود مع روح التحفز والتوقع السيئ.

٣ ـ الشخصية الهستيرية:

التعامل مع هذه الشخصية يسبب إزعاجا وحيرة وتوترًا وضيقًا، وإذا كان الإنسان مضطرًا للتعايش معها فإنه يصاب بالإحباط واليأس، ويستولى عليه النفور. فهى صارخة منقلبة واعية وغير واعية بسلوكها الذى يسبب غيظ الآخرين وحنقهم وحيرتهم، وهى لا تبالى بمشاعر الآخرين واحتياجاتهم. وإنما يهمها ذاتها وراحتها وتحقيق رغباتها.

أنانية بلا حدود ليس لديها زر عطاء للآخرين، . وإذا أعطت فذلك أمر مؤقت مرهون بقضاء مصلحة أو حبا فى الظهور، ولذلك فهى لابد أن تعلن عن عطائها حتى وإن كان فى ذلك جرح لمن أعطت. فهى قد تتنكر لصديق محتاج أو فقير أو مريض فى أشد الاحتياج وتضن عليه بالقليل ولكنها فى نفس الوقت تعلن عن تبرعها بمبلغ كبير فى حفل عام لجمعية ترعى الحيوانات من أجل أن يقال عنها إنها محسنة كريمة.

وأنانيتـهـا مـرتبطة ببـخـلهـا ومـرتبطـة أيضـا برغـبـة مطـلـقـة فى الاستـحـواذ على كل شىء .

وسلوكـها فى أى وقت وفى أى مكان : فج ، أو حارق ، أو زاعق ، أو صـارخ . أى لابد أن يلفت النظر . تلك هى سـمـة أساسيـة أو هى مـحور كل السـمـات فى هذه الشـخـصيـة الغريبـة ، فـهى لا يمكن أن تتـواضع أو تتـوارى أو تخـجل أن تقف فى الصف الثـانى أو تنكر جـهدها ، أو تقـدم غـيرها على نفسـهـا ، أو تصمت ، أو تتبـسط فى مظهـرها . . إنـهـا دائـمـا تسـعـى لأن تكون فى الصف الأول وفى قلب الصف الأول أى فى المركـز حيث دائرة الضوء وأن تلفت كل العيون بمظهرها الصارخ جدًا . فمن المستحيل أن تراها بفستان بسيط وألوان هادئة ولذا فجنون الموضة هو من أجل إرضاء صاحبات الشخصية الهستيرية ، وهدفـهـا بالطبع أن تكون هى مـحط كل الأنظار وليس بعضـهـا ، والويل لمن يتجاهلهـا أو يبدى اهتماما بغيرها . إنهـا تنقلب ضده وتهاجمه وإن أمكن تجرحه .

ولفت الأنظار لا يكون بـالمظهـر فـقط وإنما بـالـلسـان والصـوت وحـركـات الوجـه والضـحكات الرنانة ، والحديث المتـواصل الذى لا ينقطع ، ولابد بالطبع أن يكون حديثًا مثيرًا ، ولذلك فهى تبالغ فى كل شىء وتحكى عنه بإحـسـاس عـمـيق (زائف) وتأثر بالغ . تؤدى دورا على المسرح ، دراميـة التعبير والسلوك ، مبدية على السطح كمًا من العواطف الجياشة ولا مانع من أن تدمع عيناها تأثرا .

حماسها لأى شىء جديد لا حدود له وسرعان ما يفتر هذا الحماس ويخمد ويتبخر نهائيا، وربما موقفا مضادا لنفس الشىء الذى تحمست له فى البداية.

عواطفها لأى شىء جديد لا حدود له وسرعان ما يفتر هذا الحماس ويخمد ويتبخر نهائيا، وربما تتبنى موقفا مضاداً لنفس الشىء الذى تحمست له فى البداية.

عواطفها لأى إنسان تتعرف عليه فياضة جياشة وتعيش قصة حب تهتز لها الأفئدة، وتتهور وتندفع وتصرخ وتعادى من أجل حبها ولكنها مثل تأثير الخمر فى العقول، تحدث نشوة تتبخر وتخلف الضجر والصداع هكذا ينقلب حبها إلى إحساس بالملل والفتور والإعياء واللامبالاة وكأنه لم يعبر بقلبها شىء.

وتصادق بنفس الطريقة. حماس وارتباط وهيام وتصادق.. ثم بعد ذلك لا شىء.

ولذا لا حبيب لها، ولا صديق لها ولا صديقة لها، حتى أقرب الناس إليها يبتعدون عنها يتحاشونها لأنها متقلبة. لا أمان لها ولا يمكن الاعتماد عليها ولا يمكن الوثوق بها، غير ملتزمة، غير مهتمة، غير مخلصة وأيضاً غير صادقة فهى تكذب وتكذب. فالكذب سمة من أهم سماتها والنميمة من أهم قسماتها، فحديثها عن الآخرين دائما ليس به خير.

فهى تلوك سيرة الناس وتفتش عن عيوبهم وتتحدث عن نقائضهم وتشيع عنهم الأخبار السيئة والتى تضر بسمعتهم، ولا

تبالى إذا تسبب ذلك فى الإضرار بصديق أو قريب، وتستمتع بالفضائح وخراب البيوت وتتلذذ بالضيق الذى ينزل بالناس.

إن روح الشر تسيطر بشدة على هذه الشخصية وسعيها من أجل جذب الأنظار وشد الانتباه وتعليق القلوب، يصل إلى حد أنها تحاول أن تثير الآخرين بأنوثتها والإيقاع بهم فى حبها وتحريك شهيتهم الجنسية، وتلمح باهتمام ورغبة فى علاقة خاصة، وقد تظهر حبّا وهيامًا ولوعة، ويقع المسكين فى حبالها، ويتصور أنه المحظوظ المختص بحبها واهتمامها ويفعل أى شىء من أجل إرضائها، يبذل الغالى والنفيس، وحين يقترب أكثر وأكثر، وحين يسقط داخل دائرة سيطرتها ينقلب الحال، ويعانى من صدها وهجرها وإهمالها وبرودها ويحترق بنار تجاهلها.

والغريب فى الأمر أنه مع هذا السلوك الجنسى الفاضح المبالغ فيه فإنها تعانى من البرود الجنسى، فهى لا تستجيب أثناء العلاقة الجنسية ولا تستمتع بها وربما تنفر منها. حتى إذا بالغت فى العلاقة الجنسية فهذا ليس عن رغبة، وإنما لتثبت لنفسها أنها مرغوبة جنسيًا ولتثبت للطرف الآخر أنها شهية جنسيًا.

الشخصية الهستيرية لديها عقد ومشاكل جنسية، إنها غير واثقة من قدراتها كأنثى، ولهذا فهى تغير إلى حد الموت من أى أنثى أخرى، ويحترق قلبها إذا استطاعت أى أنثى أخرى أن تسلبها اهتمام رجل.

وإذا انكشفت حماقاتها (وهى الحماقة بعينها) أو إذا تعرضت لضغوط أو هجوم أو إذا أهملها وتجاهلها من حولها، فإنها تهدد

بالانتحار، والتهديد بالانتحار هو لعبتها المفضلة ووسيلتها فى استمرار تحكمها فى الآخرين وسيطرتها عليهم، وهى لعبة مكشوفة لمن يعرفونها عن قرب لأنها تكررها فى كل مناسبة، وتقدم عليها فعلا ولكن بوسائل لا تفضى إلى موت حقيقى.

وبدلاً من القيام بمظاهرة مسرحية قبل محاولة الانتحار، فتصرخ وتجرى ناحية الشباك، أو تندفع محاولة إشعال النيران فى نفسها أو تحدث جروحا برسغها، أو تكتب خطابًا تضعه فى مكان ظاهر قبل المحاولة بوقت كاف أو تبتلع بضعة أقراص من الإسبرين أو الفيتامينات، أى لابد أن تقول لمن حولها إنها ستنتحر. وتضع شروطًا لكى تقلع عن المحاولة أى أنها تساوم. وهذا أمر مؤلم ومزعج لمن حولها أمر يضعهم فى صراع بين ضيقهم منها وحرصهم عليها إذا كانت ابنتهم أو شقيقتهم.

وهى حادة المزاج، تنفجر غضبًا لأسباب تافهة واهية وبلا معقولية، وتتفوه بأقذع الألفاظ وتندفع فى معاناتها وعنادها. تصرخ وتشد شعرها وتمزق ملابسها وتقذف بأى شىء ثمين أمامها وتحطمه، وطلباتها لا تنتهى ولا شىء يرضيها وقابليتها للإيحاء سريعة وشديدة؛ من السهل الإيحاء لها بشىء ولكن هذا التأثير مؤقت وسرعان ما يزول.

إن شخصيتها قابلة للتفكك ومن السهل أن تصاب بأعراض جسدية تحت تأثير الإيحاء، ومن فرط حبها لذاتها فإنها تصاب بأعراض جسدية فعلا كالصداع والآلام.

ومع الضغط الاجتماعى أو الأسرى الشديد وتضييق الخناق عليها، فإنها تصاب بالتفكك الكامل وتنتابها أعراض مرض الهستيريا؛ فتصاب بالإغماء أو التشنج أو فقدان مؤقت لوظيفة إحدى الحواس كالسمع أو البصر أو تصاب بشلل مؤقت فى أحد أطرافها أو قد تفقد النطق. وكلها أعراض مؤقتة سرعان ما تزول تحت تأثير الإيحاء أيضا.

* * *

هذه هى الشخصية الهستيرية، جمال خارجى وقبح داخلى، عاطفة على السطح وخواء بالداخل حماس بالظاهر وفتور بالباطن جنس طاغ بالعيون وموت وفتور بالأحشاء.. مودة بادية وغدر مختبئ.. هى عذاب لكل من يقترب منها.

الشخصية الهستيرية حياتها الزوجية فاشلة بكل تأكيد.

* * *

٤ ـ الشخصية السيكوباتية:

هو الشر على الأرض، هو الشيطان فى صورة إنسان، هو التجسد لكل المعانى السيئة والقيم الهابطة، هو الحقد والأنانية والانتهازية والعدوانية والكراهية والإيذاء هو الجانب الأسود للحياة على الأرض، إنه مجهض لكل المعانى الجميلة والجوانب المضيئة للإنسانية، وهو رائد الظلم ومهندس الخيانة وحامى الرذيلة والمبشر بالنذالة فى كل وقت.

وقد يكون جميل المنظر بهى الطلعة سمح الوجه برىء الهيئة، ولكن ذلك تغطية لقلبه الأسود ونفسه التى تشيع ظلاما، فهو إذا كان ذكيا فإنه سوف يجيد تخبئة كل سماته الفاسدة المفسدة ليتمادى فى الخداع والخديعة والإيذاء.

وقد يظل الكثيرون منخدعين مضللين يرونه الشهم الأمين العادل المنصف المحسن الودود، قد يفلح فى لبس القناع وإحكامه كأبرع ممثل ويعيش فى وسط الناس هاديا ورائدا ومعلما وناصحا ومبشرا بالخير والنور.

إن السيكوباتى العدوانى الأقل ذكاء ينكشف أمره بسهولة، يتحاشاه الناس أو يخشونه ويرهبونه أو يقاتلونه، أما السيكوباتى الذكى (ويعرف أيضا بالسيكوباتى المبدع) فهو الأخطر، لأن شروره تستشرى دون أن يدرى به أحد، أو يكون من الذكاء بحيث يخضع له الناس بسلطانه أو بماله أو بالتحكم فى أرزاقهم ومستقبلهم أو بابتزازهم. ولا أصدقاء دائمون له. هناك لكل مرحلة وحين ينكشف أمره بين أصدقائه ينتقل إلى مجموعة، يكوّن شلة أخرى وحين تنتهى مصلحته مع مجموعة سرعان ما يهملها وينتقل إلى مجموعة أخرى ترتبط مصالحه بهم فى هذه المرحلة وهكذا.

لا قلب ولا عواطف ولا مشاعر ولا أحاسيس، لا شىء بالمرة، وإنما ملذاته وأهواؤه ورغباته وأطماعه وشهواته هى التى تقوده وتحركه، وكلها شهوات مادية حسية تسلطية ولا يضحى من

أجل أحد، وإذا أظهر تأثرا فهو تأثر كاذب، إنه كالممثل تماما الذى يظهر تعبيرات الحزن والألم على وجهه ولكنه لا يشعر شيئا بداخله.

يخون أصدق صديق ويتسلق فوق كتف أقرب قريب، يدوس على عنق أعز عزيز، المهم أن يصل إلى هدفه، أن يعلو، أن يحقق طموحاته، ينسى من ساعدوه، بل يتحاشاهم ويهرب منهم ويتنكر لهم حتى لا يشعر أنه مدين لأحد.

وهو يكذب دائما ولقد تمرس فى أن يبدو صادقا وهو يمعن فى الكذب، ويحلف بأقدس يمين وهو كاذب ولا يتورع عن أن يكذب فى أخطر الأمور وأمام أى إنسان وأى مجتمع، يكذب ليخادع. أو ليدارى خطأ أو يحقق مأربا أو يهرب من مسئوليته. والسيكوباتى المبدع هو الذى يجيد فن الإقناع بالرغم من كذبه ويعكس وجهه فعلا الصدق ولا يتعثر لسانه.

والسلوك الجنسى مضطرب عند السيكوباتى فهو متعدد العلاقات الجنسية غير الشرعية، وهى علاقات قائمة على الرغبة البحتة دون وجود مشاعر، وهو لا يستطيع ولا يصبر على علاقة واحدة. والسيكوباتى صاحب أسرة فاشلة، فهو زوج فاشل وأب فاشل (أو أم فاشلة) ولا يتحمل أدنى قدر من مسئولياته كزوج وكأب أو كأم.

صعوبة التكيف مع الشخصيات الصعبة:

أسهبنا فى وصف هذه الشخصيات المضطربة لأنها أحد الأسباب الهامة لعدم التكيف الزواجى. أحد الأسباب الهامة للفشل والتعاسة

والطلاق، قد يكون الزواج فاشلا ولكنه يستمر، ولكنه يكون زواجًا تعيسًا يعانى فيه أحد الطرفين أو يعانى الطرفان معًا.

والشخصية المضطربة تتسبب فى خلق صراعات عنيفة حادة ومستمرة، وصاحب الشخصية المضطربة هو الطرف الجانى ولكن بدون أن يعرف بدون أن يقصد، فهذه هى شخصيته ولد وعاش بها، والطرف الآخر هو الضحية ولكن بدون أن يدرى أيضًا فهو لا يدرى سببًا لهذه الصراعات الحادة والمرة والمستمرة.

المشكلة أن صاحب الشخصية المضطربة لا تبدو عليه أى علامات أو مظاهر أو أعراض غير طبيعية، ولا تكون فترة الخطوبة كافية لأن يكتشف أحدهما الآخر بدقة. غير كافية للتغلغل فى الأعماق وفهم مفاتيح الشخصية.. وهذه هى خطورة الزواج السريع، الزواج بدون معرفة ما فيه الزواج، بدون اقترب نفسى، الزواج بدون حب، الزواج بدون معرفة قلبية الزواج بدون فهم وتفهم وارتياح.

ويجتهد كل طرف فى أثناء الخطوبة وربما فى الأيام الأولى من الزواج أن يبدو كما يجب أن يريده الطرف الآخر أن يكون، ولا شك أنه سيجتهد أن يزوق نفسه وكل هذه اجتهادات لا تتناول إلا القشرة اللامعة الزائفة، ولكن لايستطيع الإنسان أن يستمر طويلا فى لعب هذا الدور، إن المسرحية تنتهى بانتهاء الخطوبة وبعد أيام قليلة من بداية الزواج، ثم يبدو الإنسان على حقيقته كما هو لا كما يحبه الطرف الآخر أن يكون. ولا يجد نفسه مضطرًا لارتداء القناع، لا يجد نفسه مضطرًا لأن يجهد نفسه لإرضاء الطرف الآخر.

وتدريجيًا تنكشف الحقيقة، ولابد من مواقف حية فعلية تتبدى فيها سمات الشخصية، فالسمة لاتظهر إلا من خلال موقف حقيقى، موقف على مسرح الحياة وليس مسرح الممثلين.

وأهم أربع شخصيات تؤدى إلى اضطراب شديد فى التكيف هى الشخصية النرجسية والشخصية الاضطهادية والشخصية الهستيرية والشخصية السيكوباتية.

النرجسى: ليس لديه مساحة حب للآخر.

البارنويد. شديد الحساسية مما يستحيل أن يتعايش معه الإنسان وهو على طبيعته.

السيكوباتى: إنسان يملؤه الشر ويجسد كل القيم الهابطة.

الهستيرى: إنسان زائف.

فى الحقيقة إن هناك شخصيات أخرى بها سمات متطرفة وصعبة وتشكل عيوبًا بارزة فى الشخصية تجعل التعامل معها تكتنفه صعوبات كثيرة، ولكن الحياة معها ممكنة؛ فهى شخصيات قادرة على الحب والعطاء ويملؤها الخير.. وهذه هى المقومات الجوهرية لإقامة صرح الزواج واستمراره.

استمرار الحياة غير ممكن إلا مع إنسان قادر على الحب.

استمرار الحياة غير ممكن إلا مع إنسان قادر على العطاء.

استمرار الحياة غير ممكن إلا مع إنسان يملؤه الخير.

الشخصية القهرية مثلاً هى شخصية صعبة، فهى تتسم بالصلابة وعدم المرونة والعناد فى مواقف كثيرة. وتتسم أيضًا بالحساسية، ولكنها شخصية تتسم أيضًا بالصدق والأمانة والشرف والطهارة والدقة والنظام والنظافة، وإن أبرز ما يميز هذه الشخصية الإخلاص والوفاء والقدرة على التعاطف، إنها لا تقتنع بسهولة وتأخذ وقتًا طويلا وتردد ولكن إذا وصلت إلى قرار فإنها لا تحيد عنه. هذه الشخصيات تسبب بعض الصعوبات فى التعامل اليومى المستمر وخاصة فى نطاق الحياة الزوجية، ولكنها صعوبات من الممكن تحملها ليس هذا فقط بل يمكن التكيف معها.. وهذا هو المعنى الحقيقى للتكيف. والتكيف هو الاقتراب والتفهم والتقدير والتنازل والتقبل والتعود والامتزاج والانصهار التدريجى.

التكيف هو الإحساس بالآخر وتفهمه وتقبله.

التكيف هو تضاؤل الصراع إلى أدنى حد.

التكيف هو تحقيق أكثر درجات الاقتراب.

التكيف هو الرضا، ليس الرضا عن تسليم واستسلام، ولكنه الرضا عن قناعة واقتناع، الرضا عن حب.

وكذلك الشخصية الانطوائية قد تتسبب فى البداية فى بعض الصعوبات والصراعات وعدم التكيف ولكن تدرجيًا يحدث التكيف بمعناه الإيجابى الجميل والودود.

الشخصية الانطوائية تميل إلى العزلة، تجد صعوبة فى الاختلاط بالناس، غير اجتماعية وأيضا عاجزة عن التعبير عن مشاعرها وعواطفها

وانفعالاتها، ولكنها شخصية قادرة على الحب والعطاء والإخلاص، شخصية بعيدة عن الشر والعدوان قد تتغير تدريجيا، ولكن هذا يحتاج لوقت طويل ولا حياة معها عن قرب وفى إطار الزواج، فيمكن هذا بحد أدنى من الصعوبات والصراعات، فهى شخصية مسالمة لا تقوى على العدوانية المستمرة والتشاجر والتشاحن.

والشخصية الانبساطية هى عكس الشخصية الانطوائية، وهى شخصية تميل إلى الاختلاط وحب الناس والتفاعل المستمر معهم وتسيطر عليها روح البساطة والتسامح والدعابة، وهى أيضًا شخصية قادرة على الحب والعطاء والمودة. شخصية ليست عدوانية بل تسيطر عليها نزعات الخير، وبالتالى فالحياة معها ممكنة والتكيف معها سهل وسريع وقدراتها هى ذاتها على التكيف فائقة. قد يتسبب فى بعض الصعوبات فى البداية وخاصة إذا كان صاحب شخصية انطوائية ولكن سرعان ما يحدث التكيف لأن الأساسيات موجودة وهى القدرة على الحب والعطاء والخير.

والصعوبات والصراعات تنشأ لوجود اختلافات واضحة فى سمات الشخصية وخاصة إذا كانت هذه السمات واضحة ومؤكدة وبارزة وتشكل الأساس فى السلوك وفى أسلوب الحياة. ولكنها أبدًا لا تسبب فى نزاعات مريرة وصراعات دامية ومستمرة ولا تسبب فى تباعد نفسى. . وأبدًا لا تكون سببا فى انفصال وطلاق.

بل من الصحى ومن الطبيعى بل ومطلوب أن يكون هناك اختلافات وتباين، ليس مطلوبا أن هناك تشابه وتطابق، فالزواج أن

يلتقى الإنسان بنصفه المكمل، وهذا النصف ليس من الضرورى أن يكون متطابقًا ومتشابها بل مطلوب أن يكون مختلفًا لكى يكون مكملا، وهو ليس تكميلا كميّا بمعنى إضافة نصف إلى نصف ليصبحا واحدا صحيحًا، بل هو مكملاً باختلافه، لو كان متطابقًا لما أصبح مكملا وما أصبح مطلوبًا ومرغوبًا وهو أمر قريب الشبه من الموقف حين تلتقى البويضة بالحيوان المنوى فخلايا البويضة تحتوى على جينات تحمل الصفات الوراثية وكذلك الحيوان المنوى يحتوى على جينات تحمل صفات وراثية أخرى، ليس من الضرورى أن تتطابق هذه الجينات بما تحمله من صفات وراثية.

إن الطفل يرث من أمه صفات معينة ويرث من أبيه أو من شجرة أبيه صفات أخرى. وبذلك يكون التنوع وهذا هو ما يحدث حين يلتقى رجل وامرأة ويتحابان ويتزوجان. إن تنوع سمات شخصية كل منهما واختلافها عن شخصية الآخر يخلق ترابطا ووحدة من نوع مختلف، نوع جديد ونوع مثير، نوع مدهش.

وهكذا تصبح حياتها بعد ذلك متنوعة متجددة مثيرة مدهشة لأن كلا منهما مختلف، وفى الزواج رغم أنه التصاق والتحام وذوبان وتوحد إلا أن كل طرف يحتفظ بتفرده، بكيانه، بشخصيته، إن الشخصية لا تذوب ولا تنمحى عن طريق الزواج بل العكس إن الشخصية تتأكد ويزداد تفردها وتميزها عن طريق الزواج؛ لأنها وجدت الذى يحبها ويقدرها ويعتز بها ويتفاعل معها باحترام.

وهنا تبرز ملكات هذه الشخصية وإبداعها ومواهبها وإضافاتها للحياة. إن الإنسان يولد مرة أخرى حين يتزوج؛ إنه الميلاد الذى يكتمل فيه شخصيته وتتأكد سماتها وتجد الأرضية المناسبة التى تبرز عليها. إنه اختلاف فى السمات ولكنه تطابق فى الجوهر. جوهر الخير، فالشر لا يجتمع أبدا مع الجمود الوجدانى فى علاقة زواج. إنه تطابق فى العطاء، فالعطاء لا يجتمع مع الأنانية والبخل فى علاقة زواج. إنه تطابق فى التواضع، فالتواضع لا يجتمع مع النرجسية فى علاقة زواج. هذا هو تطابق الجوهر المطلوب فى علاقة الزواج.

والقدرة على معرفة الجوهر تتحق فى علاقة الحب، وأيضا المعرفة القلبية، الحدس والإلهام، هذه قدرة خاصة اختص بها الله الإنسان، وهى القدرة على الإحساس بإنسان آخر ومعرفة جوهره والنفاذ إلى داخله.

وحين يتم التعرف على الجوهر يحدث القبول أى الطمأنينة والأمان والرغبة فى الحياة مع هذا الإنسان، الرغبة فى التسليم له. إذا اطلعت على الجوهر الخير لإنسان فأنت تسلم له نفسك، وأنت مغمض العينين، وتشعر بيقين أنه سيكون الإنسان الأوحد فى حياتك، وستكون الإنسان الأوحد فى حياته، وستعيشان معا وأن حياتكما ستكون مستقرة ثابتة وخالدة، وأن لديكما القدرة مواجهة على الصعاب والمشكلات وحل الصراعات، التى من الممكن أن تنشأ بينكما لاختلاف البيئة فى سمات شخصية كل منكما؛ وبالتالى من الممكن أن يحدث التكيف بينكما بسهولة.

الاختــلاف فى سمـات الشخصية مطلوب ولكن لابد أن يكون هناك تطابق فى الجوهر .

* * *

ولذلك لابد أن نتوقع بعض المواجهات الحادة والساخنة فى بداية الحيـاة الزوجيـة ، لابد أن نتـوقع بعض الصـراعـات حتى بين الذين تزوجوا بعد عشق طويل . وهذه الصراعات سببها أن كل إنسان كان له أسلوب حيـاة ؛ لأنـه فى البـداية كـان واحـداً وهو الآن اثنان ، لأنه فى البداية كانت له حياة مشتركة ، لأنه فى البداية لم يكن مسئولا ، وهو الآن أصبح مسئولا ومشاركا ومتعاونا ، فلكل إنسان أسلوب حياة ، طريقـة ، شكـل ، رؤية ، فلسـفـة ، مـفـهـوم ، عـادات ، مـيـراث ، اهتمامات ، رصيد ذكريات ألم وأفراح .

لابد أن يحدث اصطدام بين أسلوبى حيـاة مختلفين الآن نحن نعيش الواقع . الاصطدام الذى يحدث بين العشاق هو مثل الاصطدام الذى يحدث فى الأحلام والذى لا ينتج عنه أى تأثير .

أمـا الاصطدام الذى يحدث بعـد الزواج فهـو اصطدام حقيقى ، ولابد أن يحـدث أثرا ، وهو أثر مطلوب لأنه ينبـهنا إلى ضـرورة التكيف ، ضرورة أن نوحد أسلوب حياتنا إلى الحد الأقصى الممكن ، ضرورة أن يحدث التكيف دون إلغاء للكيان والشخصية لكل طرف ، ضرورة أن يحدث الذوبان مع الاحتفاظ بالخصائص الشخصية وعدم الفناء والضيـاع فى ظل الوحـدة الجديد ، ضرورة أن أشعـر أننى اثنان ولست واحداً .

هنا تأتى أهمية تطابق الجوهر؛ إنه يساعد على التكيف، جوهر الحب والعطاء والخير، ومن يمتلك هذا الجوهر، ومن هو واثق من أن هذا هو نفس جوهر رفيقه؛ فإنه سيكون قادراً على التكيف إلى أقصى درجات التكيف.

ولهذا فالشخصيات الصعبة التى تحدثنا عنها فى البداية تفتقر هذا الجوهر؛ ولهذا فالتكيف معها صعب إن لم يكن مستحيلا فى بعض الأحيان.

العشر الطيبات
والعشر السيئات

زوج ناجح:

١ ـ أن ينجح فى أن يبث مشاعر الأمان الحقيقية لدى زوجته الآمنة لابد أن تكون صالحة إذا كان لديها الاستعداد للصلاح. إن أهم ما تحتاج إليه المرأة هو مشاعر الأمان والطمأنينة وإذا فقدتها اضطربت، والرجل الحقيقى هو القادر على منحها هذه المشاعر.

والمصدر الأول لأمان المرأة هو حب الرجل لها الحب الحقيقى، فإذا شعرت بحب زوجها اطمأنت، والزوج الذى تكون زوجته هى حبيبته وحبيبته هى زوجته وأن يرى الزواج كعلاقة مقدسة، علاقة أبدية خالدة؛ تطمئن المرأة فى حياتها مع رجل يقدس الزواج.

٢ ـ أن يكون مصدر قوته الحقيقية هو صدقه، الرجل الصادق هو رجل قوى. صادق مع نفسه، صادق مع الناس، صادق مع زوجته، والصدق هو قيمة أخلاقية عليا، وهى تعنى السمو. فالصادق هو إنسان سام ورفيع ولابد أن يكون شجاعًا، وهذا يعنى أيضا ثقته بنفسه وتلك مظاهر الجمال الحقيقية التى تشد المرأة

إلى الرجل، وتلك هى مواطن الجمال الحقيقية عند الرجل والمرأة تسلم لرجل شجاع.

٣ـ أن يكون قادرًا على تحمل المسئولية، مسئولية الحياة، مسئوليته عن نفسه وعن زوجته وأسرته ومسئوليته كإنسان، والمسئولية تنبثق من الإرادة الواعية، الإرادة الحرة وهى تعنى وعيه بدوره وقيمته وأهميته. تعنى إحساسه بذاته ونضجه، والرجل الحقيقى هو الذى لا يساق إلى تحمل مسئولياته، ولا يتهرب منها، وإنما يتجه إليها بصدق وهمة وإيمان وفهم وحب، ويسعد بما يقدمه للآخرين من عطاء، سواء كان عطاء المسئولية أو عطاء حرًا نابعًا من حسه الإنسانى النبيل.

٤ ـ الزوج الناجح هو رجل ناجح فى عمله، يعتز بعمله ويتقنه ويقبل عليه بحب، ويحاول أن يبدع فيه ويطور نفسه ويؤكد ذاته ويحقق طموحاته، لا شىء يأخذه بعيدا عن عمله، لا شىء يستغرقه ولا شىء يغرقه.

أحد جوانب إحساسه بذاته هو نجاحه فى عمله، وكذلك أحد جوانب فخره وثقته بنفسه واعتزازه بذاته، وهذا يعنى جديته وشعوره العميق بالمسئولية.

وثمة علاقة قوية تربط بين عمل الرجل وحبه وحياته الزوجية، إن نجاحه فى عمله يثرى حياته الزوجية وتوفيقه فى حياته الزوجية يثرى عمله. إنها علاقة تبادلية مباشرة تحفظ توازنه النفسى وتحفظ

للزوجة توازنها النفسى وتحفظ للحياة الزوجية استقرارها وتكون أحد دعائم نجاحها.

وأن يكون أيضًا ناجحا اجتماعيا، أن يكون قادرا على التأثير الاجتماعى، أن يكون له نفوذ إنسانى، وهذا يعنى ثراء شخصيته، يعنى اهتماماته بالحياة وبالإنسان وبالمجتمع، اهتماماته التى تمتد خارج نطاق عمله وأسرته، وبذلك يكون هو الوسيلة للعلاقة التبادلية بين الأسرة والمجتمع كل منهما يثرى الآخر.

٥ ـ أن يكون بناؤه الأخلاقى الإنسانى سليما، يعكسه ضمير نظيف وينبع من نفس طيبة خيرة هى المصدر للقيم الأخلاقية الإنسانية العظيمة. فهو شريف، أمين، عطوف، متسامح، نبيل، متواضع. وينعكس هذا على حياته العامة وحياته الخاصة. فالإنسان لا يتجزأ، والأخلاق لا تتجزأ فمن كان غير أمين فى حياته العامة فهو غير أمين بشكل أو بآخر فى حياته الخاصة. وهو بنفس الطيبة الخيرة يبعث أقصى درجات الطمأنينة فى نفس زوجته.

٦ ـ أن يتمتع بالثبات الانفعالى؛ فلا يندفع غاضبًا ثائرًا لأبسط الأمور، ويفقد السيطرة على أعصابه وسلوكه وينهار ويصدر عنه كلام غير منطقى وألفاظ سيئة. وأن يكون صبورًا حكيمًا منطقيًا مقدرًا عاذرًا، وأن يتجاوب انفعاليا حسب مقتضيات الموقف، أى أن يكون انفعاله مناسبًا للموقف. وأن يكون انفعالاً بناء لمعالجة الموقف. وأن يكون قادرًا على السيطرة على هذه الانفعالات إذا اقتضى الموقف. وأن يكون راقيًا أيضًا فى غضبه؛ فلا يلجأ إلى العنف البدنى أو اللفظى للسخرية والتهكم والتحقير والكلمات البذيئة.

إن الزوجة تفقد إدراكها الدقيق لحدوده كرجل إذا رأته فى هذه الصورة المتهاوية المنهارة، وخاصة إذا كانت تقف هى قبالته أى أن الموقف يتناولها هى شخصيا.

٧ـ الرجولة الحقة هى التى تجعل المرأة تشعر بأنوثتها الحقة، والأنوثة الحقة لا تظهر فى ظل رجولة مهزوزة أو منقوصة. والمرأة لا تشعر بذاتها الحقيقية ـ ذاتها الأنثوية ـ إلا مع رجل حقيقى، أى قوته وشجاعته وقدرته على الاحتواء، وغيرته الموضوعية النابعة من حبه ومن دوره فى المحافظة على زوجته، لا من مشاعر الضعف والهوان وحب الامتلاك والتعلق المرضى، والتى تنبرى فى صورة «غيرة» زائدة هى أقرب إلى الشك ولا تعنى إلا انهيارا رجوليا داخليا وعدم الثقة بالنفس.

٨ ـ أن يحافظ على التوازن بين الرومانسية والواقعية، وبين الخيال والحقيقة. الرومانسية تحفظ له شاعريته ورقته التى تحتاجها المرأة وشغفه العاطفى الذى ترتوى منه المرأة. وفى الوقت نفسه واقعيته تتيح له الإدراك السليم للواقع والحكم الموضوعى على الأمور والقيادة الواعية المستبصرة بمقتضيات الحياة.

المرأة تفقد حماسها واستثارتها إزاء عاشق ولهان تستغرقه الرومانسية، ويذهب به الخيال بعيدا عن أرض الواقع والحقيقة، وفى الوقت نفسه يفزعها الرجل الجاف الجامد الذى لا يهتز قلبه للحن جميل، ولا تنتشى روحه لزهرة بديعة ولا يثير خياله ليل أو فجر ولا تتعلق روحه بمعنى شعرى جميل.

المرأة تطمئن للرجل المتوازن وتفتن بالرجل المتكامل وتتعلق بالرجل الحى المتحرك النشط القوى الشجاع الحالم الرقيق. مزيج من الرجولة الحقة.

٩ ـ أن يكون حازما، قائدا، راعيا، عادلا. المرأة السوية تسلم القيادة لزوجها والقائد الناجح لابد أن يكون حازما. حازما بلا قسوة وبلا عنف. الضعيف المتهاون هو الذى تنتابه حالات العنف والثورة وهو الذى يقسو قسوة زائدة

وحزم الرجل مصدره عقله ومن خلال أساليب عقلية، وهو المنطق والثبات، الحجة والإقناع. والحزم لا يعنى أن يكون مرهوبا بل يكون عطوفا، ففى العطف حزم، وفى المنطق حزم، وفى عدم التنازل والتهاون فى الأمور المهمة حزم، وفى التجاوز عن الصغائر حزم، وفى التسامح عن أخطاء غير مقصودة حزم.

وحقه فى الحزم يأتى من دوره كراع، راع لامرأته وراع لأسرته.

والراعى لكى يستمر دوره لابد أن يكون عادلاً، والعدل قيمته تعنى السمو والحكمة. العادل هو إنسان سام وحكيم.

لأن دور الرجل أن يكون قائداً فلابد أن يكون حازما، وليس من حقه أن يكون حازمًا إلا إذا كان راعيًا ولا حق فى رعاية إلا بالعدل.

هذه صفات أربع متلازمة للرجل الزوج الذى يحظى بحبها واحترامها واطمئنانها للحياة معه: «القيادة والحزم والرعاية والعدل».

١٠ ـ أن يكون تقيًا مؤمنًا لا خير فى رجل لا يعرف ربه، ولا اطمئنان مع زوج لا يراعى حدود خالقه.

* * *

زوج فاشل:

١ ـ هو رجل لا يقدس الزواج.

٢ ـ هو رجل فاشل بوجه عام فى أمور كثيرة من حياته، عمله، علاقاته الاجتماعية.

٣ ـ هو رجل انهزامى انسحابى، ينزلق بسرعة فى مهاوى اليأس، يفتقد روح المرح. ضعيف الهمة، قليل الحركة.

٤ ـ سريع الانفعال والغضب، فاقد السيطرة، ينهار إزاء المواقف الصعبة.

٥ ـ كاذب وكذبه لضعفه وعدم ثقته بنفسه.

٦ ـ مفتقد لروح القيادة متهاون غير حازم ويقبل سيطرة الغير عليه.

٧ ـ مفتقد لمشاعر الخير والحس الإنسانى: متعال، مغرور، نرجسى، عدوانى، قاس.

٨ ـ ينزلق أخلاقيًا بسهولة، غير أمين.

٩ ـ لا يحرك مشاعر الأنوثة عند امرأته، تفتقد معه الإحساس بذاتها الحقة، وتفتقد معه مشاعر الأمان.

١٠ ـ يسيطر عليه الشك، غيرته مرضية نابعة من حبه للامتلاك وضعفه الداخلى.

زوجة ناجحة:

١ ـ قبل الزواج وقبل الحب هى أولا أمرأة سوية ناضجة، ينسجم تكوينها الفسيلوجى التشريحى مع تكوينها النفسى فى نسق أنثوى بديع تقبله وتعتز به ولا ترضى أن تستبدله أو تقترب به من النسق الذكرى.

ومن فطرتها الأنثوية الصافية الخالصة أنها لا تتزوج إلا من رجل تحبه، يحرك ويطلق نوازعها الأنثوية إلى أقصى درجاتها وتتأكد هذه النوازع معه وبرجولته. هى امرأة ترفض أن تتزوج من رجل لا تحبه أو رجل منقوص الرجولة.

وهى امرأة مثلما تعتز بأنوثتها فهى تعى أيضا دورها الأنثوى فى الحياة ومع رجل وكأم.

٢ ـ هى زوجة قادرة على احتواء الزوج بالحنان والاهتمام فهى بحسها الأنثوى تدرك احتياجات الرجل، فهى تعرف بفطرتها وبساطتها أن بالرجل جزءاً كالطفل يحتاج إلى أم، وبه جزء ناضج واع منطقى يحتاج إلى امرأة ناضجة عاشقة، وبه جزء أبوى يحتاج فيه أن يؤدى دور الراعى المسئول والقائد؛ ولهذا فهى تعطيه حنان الأم وحب المرأة العاشقة وخضوع الابنة المتفهمة.

هى تعرف أن الرجل يتوقع الاهتمام من الزوجة، يتوقع التقدير، ولذا فهى تعيش أحلامه وانتصاراته وأمجاده حتى وإن كانت هى

الشاهدة الوحيدة عليها، تعيش حياته واهتماماته وعمله لحظة بلحظة، ولا تفارقه لحظة.

٣ـ الحب هو حياتها، وزوجها هو محور حياتها، وأسرتها هى مملكتها.

٤ ـ هى زوجة ثرية العقل غنية الروح. تعيش الحياة بفهم يدفعها إلى الانفتاح على الكون؛ فتتفهم من أمور الحياة وأحوال الدنيا ما يجعلها مثقفة متفتحة فاهمة متعلقة عذبة الحديث، مقنعة المنطق، مؤثرة بأفكارها وروحها.

ولذا فمن حبها لزوجها وإحساسها بحب زوجها لها، تدرك أن نفوذها وتأثيرها لا يكمن فى جمالها الخارجى وزينة جسدها الشكلية، وإنما يكمن فى جمال عقلها ورونق روحها.

٥ ـ هى الزوجة التى تملك روحا سمحة ونفسًا طيبة وطباعًا هادئة غير متسلطة، غير عدوانية. لا تستهويها ولا تزدهيها سلطة أو قيادة أو زعامة. ولأنها ارتبطت برجل تحبه وتثق به وتطمئن إليه فإنها تسلم له قيادة مركب الحياة تساعده بعقلها وبجهدها، تقف بجانبه وليس وراءه ولا ترضى أن تقف أمامه.

٦ ـ أن تكون «غيرتها» نابعة من حبها بهدف الحفاظ على حبها وزوجها التى تثق به، فهو جدير بالثقة ولأنها تثق بنفسها أيضًا وفوق كل ذلك وقبل كل ذلك ثقتها بالحب الذى يربطها بزوجها، غيرة عاقلة هادفة هادئة تسعد الرجل وفى نفس الوقت تحذره وتوقظه وتنبهه.

٧ ـ إخلاصها ووفاؤها ليسا محلاً لنقاش أو تأكيد وإلا أصبحت الأمور كلها عبثية. من خلال سلوكها الاجتماعى المتوازن الراقى الذى يعكس حكمتها وتوازنها النفسى وثقتها بنفسها وعدم احتياجها لكلمات الإطراء وعبارات المديح وتلميحات الغزل. فهى ترفض ذلك بإباء نابع من حسها الأخلاقى القوى ومن احترامها لذاتها واحترامها لكيانها كزوجة، ولأنها واعية وناضجة وذكية؛ فإنها لا تستخدم سلاح الشك والغيرة لإذكاء مشاعر زوجها نحوها؛ لأنها تعرف أن هذا سلاح مدمر يقضى على الأحاسيس الطيبة لدى زوجها، يقضى على إحساسه بالأمان.

٨ ـ أن تكون مبادئها، إيجابية، مشاركة، متعاونة، فعّالة. وذلك فى إدارة شئون حياة الأسرة وأن تعرف جيداً أنها مصدر الحياة، ومصدر الاستمرار، ومصدر الاستقرار، وأنها هى القائد من الداخل، من الباطن، وأن مصدر قوتها هو الحب والاحتواء والفهم والوعى والذكاء. الذكاء الأنثوى الفطرى الذى يدرك بالحس الداخلى وباللاشعور أنه لولا المرأة لما كانت الحياة، المرأة الزوجة، المرأة الفاضلة.

٩ ـ أن تستند حياتها كلها إلى قاعدة أخلاقية، تتمثل فيها كل القيم الرفيعة من صدق وأمانة وتواضع وتسامح ينعكس فى سلوكها العام وحياتها الزوجية.

١٠ ـ أن تكون تقية مؤمنة. لا خير فى امرأة لا تعرف ربها، ولا اطمئنان مع زوجة لا ترعى حدود خالقها.

* * *

زوجة فاشلة:

١ ـ أن تكون عاجزة عن الحب.

٢ ـ أن تدخل فى منافسة مع الرجل.

٣ ـ أن تكون عدائية متسلطة.

٤ ـ أن تكون تافهة العقل.

٥ ـ أن تفتقد لمشاعر الانتماء للبيت ويصبح زوجها على هامش حياتها.

٦ ـ أن تتمتع بالاستهتار والسطحية والمبالغة والاهتمام بالمظهر الذى يكشف عن جوهر ضحل.

٧ ـ أن تكون قاعدتها الأخلاقية مثقوبة؛ فتهدر القيم وخاصة المتعلقة بالولاء والالتزام والإخلاص فى الحياة الزوجية.

٨ ـ أن تكون غير متوازنة نفسيًا؛ فتتذبذب انفعالاتها، وتتأرجح ثقتها بنفسها؛ فتندفع نحو حماقات ومهاترات لتأكيد الذات والدفاع عن النفس ضد اعتداءات وهمية. وبذا تتسم حياتها بالعنف، والعداوة والشك وسوء الظن.

٩ ـ أن تفتقد لمشاعر القدسية، قدسية الإنسان، قدسية العلاقة الإنسانية، الصداقة، الحب، الزواج، الأمومة، وهذا يجعلها تتناول الأمور الجادة تناولاً سهلاً رخيصًا يفتقد للبراءة والطهارة.

١٠ ـ أن تتمتع بالغرور والأنانية والنرجسية؛ فلا تعطى ولا تذوب، وإنما تصبح طرفا شاذا وناشزًا فى علاقة أساسها العطاء والذوبان وهى العلاقة الزوجية.

الوصايا العشرون

الوصية الأولى:

- **أن يكون محور حياتك، أن تدور حياتك حوله..**

أنت زوجى، معناها أنك محور حياتى. . أنت حبيبى، معناها أن حياتى تدور من حولك، أنت النجم الأوحد والقمر الأكمل. ولا حياة لى بدونك أفكر فيك كل الوقت. . وكل ما أقوم به من آمال إنما هو مرتبط بك منتسب إليك.

وقبل أن يفيق وعيى وأنا فى تلك اللحظات بين النوم واليقظة ومازلت مغمضة العينين ولم أستعد بعد إدراكى الكامل فإنك تهيمن على عقلى الباطن والنصف المستيقظ من عقلى الواعى، فأصحو عليك فأنظر بلهفة فأراك بجانبى. أبدأ يومى بك. صباح الخير. . وأقول إن الحياة تستحق أن أحياها لأنك موجود بها. . والعناء محتمل لأنك بجانبى، ويمضى يومى، أنت محوره الأساسى، أنت الهدف، أخرج لشأن من شئون الحياة أو أنشغل بأمر من أمور روتين حياتى اليومية، ولكنك تكون ملء الخاطر وكأنى أفعل كل شىء من أجلك. . وأعود لأجلك.

إن كل ما يشغلنى كل الوقت هو ماذا أفعل من أجل إرضائك، من أجل إسعادك، وحين أنشغل فكريا، حين يدور عقلى أو حين أتأمل وأغوص فى أعماق نفسى؛ فأنت دائما المحور. الأفكار تدور من حولك وبك ومنك وإليك أنت القاسم المشترك؛ ولذا فأنا أشعر بغزارة ومتانة النسيج الذى يجمعنا خيوطه من أفكارنا ومشاعرنا وذرات حياتنا المشتركة.

وأنا أعرف أننى محور حياتك. إن حياتك تدور من حولى.. وما أروعه من إحساس أن أكون الأول الأوحد الأساس، إذن أنت محور حياتى وأنا محور حياتك.. حياتى تدور حولك وحياتك تدور حولى.

وإذا كان للحياة محور آخر، إذا كانت الحياة تدور حول أمر آخر، فإن الحياة الزوجية تتأثر سلبيّا، يحدث التباعد والابتعاد التدريجى.. الهوة.. الانفصال.. المسافة.. وهنا تكمن الخطورة وتنتج العواقب الوخيمة بعد سنة.. أو بعد عشر سنين.

والأمر يحتاج إلى جهد واجتهاد.. وأن يحرص كل منهما على أن يظل محور حياة الآخر، ألا يدع أحدهما الآخر يبتعد عنه بعقله أو بإحساسه قيد أنملة.

وليبدأ كل طرف بنفسه وسوف تنعكس الآثار الطيبة الإيجابية على الطرف الآخر فتشده وتربطه، فإذا كنت أنت محور حياتى فلا شك أننى سأكون محور حياتك، وإذا كانت حياتى تدور حولك؛ فلا شك أن حياتك ستدور حولى.

وإذا أنا انشغلت عنك فلا شك أنك سوف تشعر بذلك تدريجيا . وبقدر انشغالى عنك ستنشغل عنى ، وبقدر ابتعادى عنك ستبتعد عنى . تلك هى الوصية الأولى وهى وصية جوهرية محورية . وهى تتحقق بشكل تلقائى وطبيعى إذا كان زوجك هو حبيبك وإذا كان حبيبك هو زوجك .

لا تنشغلى بشيء فى الدنيا عن زوجك ، وكل عمل تقومين به وكل فرد يرد بخاطرك ، وكل شعور يصدر عن وجدانك إنما يحب أن يرتبط بزوجك . وإن ذلك يبعث على الطمأنينة والسرور والاستقرار ويجعلك تعطى بلا حدود وبلا تردد ، إنه شعور بالانتماء الحقيقى .

الوصية الثانية:

● تحقيق الذات..

الرجولة معنى متكامل ، وتحقيقها يعنى تحقيق الذات «ذات الرجل» الذات الرجولية . وجوانبها التى يجب أن تتكامل تشتمل على عدة قيم : بداية قيمة العمل وإتقانه والنجاح فيه ، ثم الشعور بالمسئولية ورعاية الآخرين والعطاء بكرم وعن قوة وثقة . . وهى النضوج والفهم الشامل والرؤية العميقة . . وهى الشرف والأمانة والصدق والشجاعة والثقة بالنفس دون غرور وعن تواضع حقيقى أصيل . . وهى القدرة على الارتباط والإحساس بامرأة وحبها والزواج منها ورعايتها والمحافظة عليها وإكرامها واحترامها ، وأن يكون مسئولاً عن أطفاله منها وتربيتهم التربية الصالحة .

وهذا المعنى للرجولة لا يمكن أن يتحقق بصورته المتكاملة إلا من خلال امرأة فاضلة . . امرأة يحبها الرجل وتحبه . . امرأة يتزوجها الرجل . هذا هو قمة تكامل معنى الرجولة .

إذن هناك امرأة تسهم فى تحقيق رجولة الرجل ، وهناك امرأة تساعد على الانتقاص من هذه الرجولة . الدور العظيم للمرأة فى حياة الرجل أن تحقق إحساسه بذاته ، ذات الرجل ، الذات الرجولية . الرجل بدون أن يدرى ـ تدريجيا ـ يبتعد عن امرأته إذا كانت تؤثر سلبيا على إحساسه بذاته الرجولية . . إذا كانت تسهم فى الانتقاص من هذا الإحساس .

المرأة الواعية ؛ المحبة الذكية ؛ الأنثى الحقيقية هى التى تدعم وتبنى وتعمق وتؤكد إحساس الرجل بذاته . . ولذا يظل الرجل مشدودا إليها طوال حياته وفى كل لحظة . والرجل رجولة ولا شىء يحرك كل ذاته إلا من يجعله يشعر برجولته . . بذاته الحقيقية ، هناك تجعل الرجل يشعر أنه رجل الرجال . وامرأة أخرى تجعل الرجل يشعر أنه أقل من الرجال ، تلك المرأة الأخيرة يهرب منها الرجل ، يهرب حتى إلى الموت .

والأنوثة كذلك معنى متكامل وتحقيقها يعنى الذات ؛ ذات المرأة ؛ الذات الأنثوية . . وجوانبها التى يجب أن تتكامل تشتمل على عدة قيم أهمها الطهارة والشرف والإخلاص والوفاء والحنان المتدفق والعاطفة الفياضة والرقة والإحساس بالجمال والقدرة على ملء الهواء والسماء والأرض حبا وحنانا ، وأن تسبغ على الوجود جمالا .

وكذلك الانتماء لرجل وحبه والخضوع له والتسليم له ، ثم تدور حياتها حول هذا الرجل . . ويصبح هو المحور ولا تستطيع أن توزع

عـواطفـهـا بين رجلين، ولا أن تـوزع جسـدها بـين رجلـين، وهى قـادرة القدرة كلها على أن تجعل هذا الرجل يشعر بذاته وبرجولته . . فهو تحقيق متبادل تلعب فيه الأنثى الدور الأساسى من خلال أنوثتها .

وهذه الأنوثة بجوانبها المختلفة لا تتماسك ولا تترابط ولا يكتب لها هذا التحقيق إلا من خلال رجل .

والمرأة تظل مشدودة طوال حياتها فى كل لحظة لهـذا الرجل الذى حقق لها أنوثتها أى حقق لها ذاتها ، فهو استطاع أن يكتشفها وأن يظهر كنوزها وأن يحرك ذراتها ويجعلها قادرة على العطاء بكل جوانبه .

أيها الرجل إذا أردت أن تحافظ على حبيبتك زوجتك فساعدها على تحقيق أنوثتها ، ساعدها أن تكتشف نفسها ، ساعدها على أن تهبك حياتها وأن تكون محور حياتها . ستفقدها إذا فقدت أنوثتها معك وبسببك ستبتعد عنك نفسيًّا ثم تبتعد جسديًّا .

أيها الرجل «اهتم بالأشياء الصغيرة قبل الكبيرة وخاصة الأشياء المرتبطة بأنوثتها : جمالها ، عطرها ، شعرها ، أنفاسها ، لمساتها ، خطواتها ، ملابسها ، ألوانها ، صوتها . ثم ضع يدك على منطقة العواطف فتنفجر عين صافية عذبة ، عين أنثوية ، وهنا تكتمل سعادة المرأة . إن المرأة كالنهر المتدفق الذى لابد أن يجد مصبا ؛ فبدون مصب يتوقف النهر يموت ، ثم تحسس أفكارها ، رؤاها ، فلسفتها ، عمقها . ستجد أنك أنت نفسك ستكتمل بها ، أنت تحتاج إلى هذا النبض الفكرى الأنثوى الذى فجرته بيدك لتصبح إنسانا كاملا .

لا ترتبط امرأة برجل لا يحقق لها أنوثتها .

حين تفقد المرأة إحساسها بأنوثتها مع الرجل فإن هذا الرجل يموت داخلها وتموت هى من بعده.

حافظ على أنوثة امرأتك.

حافظى على رجولة رجلك.

الوصية الثالثة:

● **الثقـــة:**

لا تقوم حياة على الشك ولا تستمر حياة على الشك، والثقة لابد أن تكون متبادلة ومطلقة، بمعنى لا تشوبها شائبة وكل ذرة شك ينهار أمامها ذرة حب، يختل التماسك، يبدأ الهرم فى الانهيار. وكثيرون لا يدركون هذه الحقيقة الخطيرة. وأعظم هرم من الممكن أن ينهار ليس بالضرورة مرة واحدة، وفى لحظة واحدة ولكن الانهيار يبدأ تدريجيًا، تسقط ذرة ويعقبه ذرة أخرى وهكذا.. حتى يأتى صباح فلا تجد أثرًا.

هكذا يضيع الحب وينهار الزواج وهو ضياع لا نهائى وانهيار لارجعة فيه. إن أى مشكلة يمكن علاجها ومداواتها فى الحب والزواج إلا الشك، إذا انتزعت جرثومة الشك الأولى؛ فإنها لا تغادر هذه العلاقة أبدًا. تتكاثر الشكوك أوهاما وتتضاعف الشكوك ويصبح لا أمل فى هذه العلاقة والخلاص منها أفضل؛ لأنه لا علاج.

وقد يلعب أحد الطرفين لعبة الشك، قد تتصور الزوجة مخطئة أنهابتحريك شكوك زوجها؛ ستحرك عواطفه تجاهها وتجعله أكثر تشبثًا

بها أو لعله يعرف قيمتها؛ وأنها مرغوبة من رجال آخرين؛ فيقدرها حق قدرها ويقبل عليها. فتدعى مثلا إعجاب الآخرين بها ومحاولتهم معها، أو قد تدعى استحسانا وإعجابا برجل ما. . أو قد تتعمد أشياء من شأنها إثارة غيرته ثم إثارة شكوكه، وهى لعبة فى غاية الخطورة، إنها كالطفل الذى يلعب بلغم قد ينفجر فى وجهه فى أى لحظة.

وكذلك قد يلعب الرجل هذه اللعبة السخيفة، فينقل لزوجته مدى إعجاب النساء به والتفافهن حوله، أو قد يبدى هو إعجابه بسيدة ما أو يظهر استحسانه لامرأة ممتدحًا صفاتها وسماتها. . وهو بذلك يحرق أعصاب زوجته والحقيقة أنه يحرق عواطفها تجاهه ذرة بذرة وجزءاً بجزء.

وقد تبدى الزوجة غيرتها فعلاً وقد تبدى اهتمامًا بزوجها، ولكن ثمة شك انزرع فى داخلها، وثمة أوهام انغرست فى عقلها. وثمة مرارة علقت بعواطفها. .

وقد يبدى الزوج غيرته الفعلية. ويبدى اهتماما بزوجته التى يتهافت عليها الرجال ولكن يذهب من قلبه وللأبد براءة الحب وطهارة العلاقة. . وتتشوش وتتشوه صورة زوجته فى ضميره. تختلف نظرته لها وينقلب الجمال إلى دمامة وتنقلب الرقة إلى توحش، وينقلب الحنان إلى خداع. الصورة تتبدل تماما وتفسد العلاقة، ينامان على فراش من شوك ويمشيان على أرض من نار ويتنفسان هواء مسموما.

أيها الأزواج والزوجات: حافظوا على نقاء الحب وطهارة العلاقة ووفاء العهد. حافظوا على أقدس رابطة، لاتستعملوا سلاح الغيرة، لا تفجروا قنبلة الشك؛ إنها إذا انفجرت أطاحت بكل شيء وإلى الأبد. حقا إلى الأبد. ولم يكن هناك أمل فى أى إصلاح مهما حاول أحد الطرفين بعد ذلك إثبات حسن النية وتأكيد البراءة والطهارة.

احذروا فقد الثقة.

والمرأة التى تلعب لعبة الشك فى داخلها شيء سيئ. والرجل الذى يلعب لعبة الشك فى داخله شيء سيئ.

والشيء السيئ معناه أن هذا الإنسان الذى يلعب لعبة الشك ليس فعلا أهل للثقة، فى داخله عدوان وأيضا هو خبيث ولا يمكن أن يشعر أحد معه بالثقة.

هذا الإنسان الذى يلعب لعبة الشك من الممكن أن يخون فعلا؛ لأنه استطاع أن يلعب اللعبة على مستوى التخيل، لقد صمم سيناريو خيانة.

وقد تندفع المرأة إلى هذه اللعبة بسبب زوج يهملها، وقد يندفع الرجل إلى هذه اللعبة بسبب زوجة تهمله. . إن الإهمال هو الدافع وراء هذه اللعبة الخطرة، إذا لم يصبح شريك حياتك هو محور حياتك، وإذا لم تساعديه على أن يحقق ذاته فإنك ستدفعينه إلى أن يلعب فعلا لعبة الشك. ولكن مهما كانت الأسباب فإن الرجل الذى يلعب لعبة الشك لديه قدر من السوء داخله.

الوصية الرابعة:

توزيع المسئوليات..

علاقة الحب وعلاقة الزواج غير أى علاقة أخرى . . أى علاقة لابد أن تقوم على شروط مكتوبة أو غير مكتوبة . وتقوم أيضا على الندية والتكافؤ والتوزيع العادل للمسئولية . . أما فى الحب والزواج فإن الأمر مختلف فى هذه العلاقة المقدسة قد يكون أحد الطرفين ضعيفا ، قد يكون عاجزا ، قد يكون سلبيا ، قد يعانى من قصور معين ، نقص فى أمر ما ، وهنا يقوم الطرف الآخر وعن طيب خاطر بتعويض هذا العجز أو النقص أو القصور أو السلبية .

وهى علاقة بين الرجل والمرأة والرجل له طبيعة خاصة ومواصفات خاصة ، وكذلك المرأة ، ولكل دوره فى الحياة حسب إمكانياته وقدراته وطبيعته وتكوينه ، طبيعة الرجل وطبيعة المرأة ، وكل منهما ينهض بمسئولياته بتلقائية ورضا .

أيها الرجل لاتنازع المرأة فى مسئوليتها .

ويأيتها المرأة لا تنازعى الرجل فى مسئولياته .

ويأيها الرجل لا تطالب المرأة بتحمل المسئوليات التى من شأن الرجل أن يقوم بها . .

ويأيتها المرأة لا تطالبى الرجل بتحمل المسئوليات التى من شأن المرأة أن تقوم بها .

ودعوة المساواة هى دعوة تخلو من أى فهم لطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة. إن كل طرف لا ينظر إلى الطرف الآخر على أنه ند، أنها علاقة خالية من أى شبهة تحدى. . لا تحدى ولا ندية. ولا يمكن للمرأة أن تصير رجلا، ولا يمكن للرجل أن يصير امرأة، ولا يمكن أن يكون هناك تطابق فى طبيعة المرأة وطبيعة الرجل، إنهما مختلفان تشريحيا وفسيولوجيا ونفسيا.

والرجل الذى يطالب بمساواته بالمرأة هو رجل غير سوى، ذو طبيعة أنثوية. والمرأة التى تطالب بمساواتها بالرجل هى امرأة غير سوية ذات طبيعة ذكرية. . والرجل يهتدى لمسئولياته كرجل بفطرته وسويته، وكذلك المرأة تهتدى لمسئوليتها بفطرتها وسويتها.

فليتحمل كل منكما مسئولياته.

وليحمل أى منكما الآخر على كتفيه إذا كان هذا الآخر عاجزا عن تحمل قدر من مسئولياته لنقص أو عجز أو قصور أو سلبية غير متعمدة. والزواج ليس شركة، ليس مؤسسة الزواج، ليس تجارة. . الزواج حب، والحب زواج، وزوجتك حبيبتك هى أنت وزوجك حبيبك هو أنت.

أنتما معًا، أنتما شيء واحد، أنت محور حياتها وهى محور حياتك، تحقق ذاتها الأنثوية، وهى تحقق ذاتك الرجولية، أنت تثق بها وهى تثق بك. فتحمل مسئولياتك كرجل وتحملى مسئولياتك كأنثى.

الوصية الخامسة:

● **الكفـــــاح..**

الحياة ليست سهلة ، وأحد جوانب الحياة المثيرة والممتعة هو الكفاح ؛ الكفاح من أجل تذليل الصعوبات وتحقيق النجاح . . والنجاح يُفْقَدُ إذا لم يشهد عليه أحد ، وأعظم شاهد يهمك هو شريك حياتك .

والكفاح لابد أن يكون شريفًا من أجل غايات نبيلة وأيضًا لابد أن يكون مشتركًا أى أن تكونا معًا إذا شعرت أنك وحدك فى الميدان فإن الكفاح يُفقَدُ والنجاح يَفْقدُ معناه ، وتصبح الحياة روتينًا معقداً تعيشها بلا معنى وبلا هدف وبذلك يفقد شريك حياتك دوره بالنسبة لك ؛ ستفتقده فى البداية وبعدها ستشعر بأنك فقدته بالفعل .

والكفاح له ميادين مختلفة وأشكال كثيرة داخل البيت وخارجه ، والرجل له ميادين كفاحه والمرأة لها ميادين كفاحها . والشعور بأننا معا وهو الهدف الأول والأسمى للزواج لا يتحقق إلا إذا كنا فى الميدان .

لا تترك شريك حياتك وحده . ستفقده ويفقدك وستفقدان حياتكما وكل معنى للحياة .

عش كفاح زوجتك من أجلكما .

عيشى كفاح زوجك من أجلكما .

وليكن كفاحًا شريفًا من أجل غايات نبيلة لتشعرا أنكما دائما وللأبد معًا .

الوصية السادسة:-

• لغـــة الحـــوار..

حتى الصمت فى الحب، والزواج هو حوار. فالإنسان مع أقرب الناس إليه يتحاور أيضا بصمته، صمت مسموع ومحسوس ومرئى، صمت تشم منه رائحة طيبة، صمت تنقله الأنفاس ونظرات الأعين وتعبيرات الوجه.

وأى حـــوار داخل نطاق الحب والزواج لابد أن يكون ودودا، ويعكس روحًا طيبة سمحة سهلة سلسة بسيطة، حتى فى أشد الأوقات عصبية وثورة وغضبًا، لابد أن يمرح بينكما هواء طيب وأن تحوم حولكما الأرواح الطيبة.

العداء أمر مقيت ويفسد تدريجيًا ـ وبدون أن تدريا ـ حياتكما الزوجية.

تحاور بلطف، استخدم أرق الألفاظ حتى وإن أردت أن تعبر عن أصعب المعانى وأشقاها.. أنت لست ندًا، لست عدوًا، لست منافسًا.. ورفيق حياتك ليس طرفًا غريبًا إنه هو أنت وبينكما حب وبينكما زواج وبينكما عشرة.

احذر النقد بكل أشكاله، احذر التجريح، احذر اللوم، لا نقد ولا تجريح ولا لوم، فليكن تعبير وجهك سمحًا، فلتكن نظرات عينك حانية، ولتكن نبرات صوتك ودودة، ولتكن كلماتك طيبة..

اغضب.. تشاجر، انفعل، ثر، عاتب، ولكن فلتكن ودودًا رحيمًا كما أمرك الله. الزواج مودة ورحمة..

لاعنف ـ لا عداء ـ لا تحدى ـ لا ظلم ـ لا قهر ـ لا تجرع ـ لا لوم ـ لا تأنيب .

الوصية السابعة:ـ

● **الاحتـــــرام..**

الحب فى صميمه احترام والزواج الحقيقى الذى صميمه حب صميمه احترام. والاحترام معناه التقدير للطرف الآخر. أما التقليل من قيمة الطرف الآخر فهو عدم الاحترام. وحين تحب إنسانًا فإنك الأوحد الذى يستطيع أن يطلع على كل القيمة الجمالية والقيم الخيرة والقيم السامية. التى يتمتع بها هذا الإنسان، وحين تقرر الزواج به، فهذا معناه أنك تشعر أن حياتك تصبح لا شيئا بدونه، إنه يضيف قيمًا هامة لحياتك بل هو الذى يضيف المعنى لحياتك. هو كل شىء وفوق كل شىء وليس من قبله وليس من بعده، فكيف إذن لا يكون الاحترام هو الصميم.. صميم الصميم.

ولذلك ليس حبًا إذا ساد عدم الاحترام.

وليس زواجا حقيقيًا إذا ساد عدم الاحترام.

ضع رفيق حياتك فى أعلى مكانة فهو يستحق، إنه إنسان ورائع وعظيم ونبيل، إنه إنسان شريف ومخلص وطاهر ووفى ونقى، إنه يحبك ورضى أن يهبك نفسه ويعيش حياته معك، إنه المطلع على ما بك من جمال وخير وسمو، إنه الإنسان الذى اطلع على جوهرك. وهو الإنسان الذى استطعت أن تطلع على جوهره، إنه الإنسان الذى

يعطيك بلا حدود ويسعد بذاتك وأنت تثق به وهو الذى يشاركك مسئوليات الحياة. وهو الشاهد على كفاحك وهو الودود الرحيم.

لهذا فهو يستحق كل احترامك.

الوصية الثامنة:

● **تعـــدد الأدوار..**

أنت أيتها الزوجة لست زوجة فحسب أنت أيضا أم وأنت أخت وأنت ابنة وأنت حبيبة فلتتعد أدوارك فى حياة زوجك أى كونى كل شىء، كونى كل النساء فى حياته.

وأنت أيها الرجل، كن كل الرجال فى حياة زوجتك، كن الأب والأخ والابن والصديق والحبيب.

لا تلعبا لعبة الزوج والزوجة كل الوقت.

أيتها الزوجة.. الرجل يحتاج منك أحيانا إلى حنان الأم واحتوائها ورعايتها وقدرتها على التوجيه، الرجل يحتاج إلى أن يعبر عن الطفل بداخله، والطفل فى حاجة إلى أم وليس زوجة، هنا يلتقى الجزء الطفل داخل الرجل بالجزء الأم داخل المرأة، هذا لقاء مهم، لقاء يجدد ذكريات الطفولة التى كانت حيوية بين الابن والأم، إن ذلك يحرك بين الزوج والزوجة فيضا من الأحاسيس الثرية الدافئة الخطيرة، أيضا إنها لحظات مثيرة حية يشعر فيها الزوج بطفولته وتشعر الزوجة بأمومتها.

تعال هنا يابنى الحبيب لأضمك وأرعاك وأطعمك وأحميك فأنت كل شيء أنت قطعة منى .

تعالى يا أمى لأرقد على صدرك وأطعم من ثديك وأحتمى بحبك الفائض اللامشروط وأستريح من عناء الحياة وأسترشد بإخلاصك .

أيها الزوج ولتكن أيضًا أنت الأب الذى يحرك طفولة زوجته ؛ فيلتقى الأب مع الابنة ، الأب الحماية والقوة ، الرأى السديد والحزم والمسئولية الكاملة ، فتريحها من كل عناء تريحها مؤقتا من المسئولية ، تأوى إلى داخلك فتستنصر بك .

ومن أهم الأدوار دورالعشق ، فلتكن العاشق لزوجتك ، ولتكونى العاشقة لزوجك ، إن علاقة الحب فى الزواج تعلو على الزواج ذاته إنها العلاقة الأم . . العلاقة الأصل . فالمرأة تريد أن تشعر أنها مرغوبة ليس لأنها الزوجة ولكن لأنها المرأة التى عشقها . . والرجل يريد أن يشعر أنه مرغوب ليس لأنه الزوج ولكن لأنه الرجل الذى عشقته .

العشق فن وخيال وجمال وتحليق فى السماء وابتعاد عن الواقع .

فى حالة العشق تطيران بعيدًا عن الأرض تحلقان فى السماء السابعة تنعمان بلحظات أثيرية ، آثرة خالدة مسروقة من عمر الزمان .

الوصية التاسعة:

● **إظهار الإعجاب..**

قد تحظى بإعجاب كل الناس ، قد يظهر لك كل إنسان إعجابه بك ، ولكن إذا افتقدت إعجاب رفيق حياتك فإنك ستفقد إعجابك

بنفسك . . أنت لن تشعر بقيمتك الحقيقية إلا من خلال إعجاب رفيقك، زوجك، حبيبك بك. وأنت لا يهمك إعجاب أحد إلا إعجاب هذا الرفيق الحبيب، وهو فقط الذى يهمك أن تظهر جمالك وقوتك وإبداعك وتفوقك وشياكتك ونجاحك.

والإعجاب لابد أن نعبر عنه . . أن يبدو فى أعيينا وفى سلوكنا وأيضًا أن نترجمه إلى كلمات . . وكل إنسان له مناطق إبداعه وتفوقه وقوته وتميزه . وكل إنسان له قدرات ومواهب. كل إنسان له مناطق جميلة داخله وخارجه. ونحن نرى الإنسان بطريقة كلية شاملة، نراه كإنسان ونعجب به ونحبه . . نقترب منه فنعرفه أكثر. ونطلع أكثر على مناطق جماله ويسعدنا أن يتعرف علينا إنسان . . أن يعرفنا على حقيقتنا أن يقترب منا . . والحبيب الزوج هو فى أقرب موقع . . أقرب نقطة؛ ولذا فهو المطلع على السر كله.

ولذلك يهمنا أن نسمع منه كلمة إعجاب . . وهى ليست كلمات الإعجاب التى نسمعها من آخرين.

وإنما هى كلمة فهم، كلمة تعبر عن فهمه لنا عن إدراكه لحقيقتنا الكلية والنوعية، عن رضاه عن سعادته المطلقة لأنه معنا. عن أنه يعتبر نفسه أكثر الناس حظًا فى الحياة لأنه معنا، وإننا نستحق أن يحارب وأن يناضل من أجلنا؛ ليظفر بنا فى النهاية. نريد أن نشعر أنه يشعر أننا قيمة لا نهائية، أننا كنز، أننا شىء لا يتكرر، أنه دار على الدنيا كلها فلم يجد من هو أروع منا . . والروعة ليست فى جمال الشكل أو فى منصب أو فى مال وإنما هى روعة الداخل، روعة

الشخصية ، إنها شخصية تستحق أروع جائزة فى العالم الخارجى ، ولذلك تسمو وترقى كلمات الإعجاب هنا على كلمات الإعجاب التقليدية التى تتناول الشكل والشياكة والجمال الخارجى والإمكانيات المادية والذكائية والنجاح فى أمور الحياة .

إننا نحتاج إلى كلمات أعمق وأبلغ تعبر عن أحاسيس أكثر ثراء وأكثر قيمة . . كلمات تدل على الفهم العميق والمعرفة الحقيقية لقيم الشخصية العظيمة .

كلمات الإعجاب الرخيصة والسطحية نسمعها فى الشارع ويتلهف عليها الإنسان الذى لا يثق بنفسه والذى يفتقد الحب فى حياته .

والشخصية غير الناضجة المهزوزة يدور رأسها لكلمات الإعجاب الزائفة الكاذبة .

أما الذى يتمتع بجمال حقيقى ، الواثق بنفسه ؛ فإن أذنيه لا تسمع الإطراء والمديح والإعجاب ممن لا يهمونه . إنما يتوقع فقط إعجاب وفهم وتقدير وإحساس الإنسان الذى أحبه ويحبه .

الوصية العاشرة:

- **تجميل الحياة..**

الحياة جميلة لأنك أنت موجود بها ، الحياة تستمد جمالها من جمالك . فهيا بنا نعيش حياة الجمال وجمال الحياة معك وبك . . هيا بنا نتأمل الزهور والنهر والفجر والنجوم والليل والسحر ، ونسمع

الألحان ونقرأ الشعر وننفتح على الأفكار والثقافات. . هيا بنا ننفتح على عقول وقلوب الناس، فكثير من الناس طيبين وأخيار. . هيا بنا نرى الجمال فى الناس فى الإنسان ونأمل ونطمح ونحلم ونعلم بجد وإتقان وإخلاص وإبداع. ونتقرب إلى الله ونمتع النفس والروح والعقل بالعبادة.

الحب جمال.

والزواج جمال.

والحياة معًا جمال.

وأنت ورفيق عمرك قادران على رؤية الجمال داخلكما وخارجكما، جمال الداخل، وجمال الخارج، ولا أقدر من الأحباء على رؤية الجمال ومعايشته. . ولا أقدر من الأزواج على رؤية الجمال ومعايشته، والإنسان فطر على حب الجمال بشرطين:

- أن يكون عاشقا.
- وأن يكون معه رفيق حياته.

ساهم مع رفيق حياتك فى جعل الحياة ـ حياتكما ـ جميلة.

الوصية الحادية عشرة:

● المسرح..

إن السرور يشملنى لأننى معك فأشعر بالانشراح والابتهاج والتفاؤل والحماس والانطلاق. . أشعر بالحيوية والنشاط والقوة والتدفق، كلى آمال وأحلام وطموح، والأهم الأهم فعلا أننى أشعر بالرضا.

وكلما طالعت وجهك أبتسم.

وكلما طالعت وجهك أراك مبتسمًا

الوجه الباسم يشرح الصدر والقلب ويشرح العقل.

فليملأ الابتسام حياتنا.. فليملأ المرح حياتنا. المرح مُعد.. والاكتئاب أيضًا مُعد.. المرح يضفى جمالاً على الحياة، يجعل الحياة سهلة ومريحة وبسيَّطة ويهوّن الصعاب، ولا شك أن الحياة صعبة تحتاج لعمل وجهد وتعب.. ولا شىء يهوّن علينا كل ذلك إلا حبى وحبك يا زوجى، وبالمرح نسخر ونستهين بكل التعب ونتمتع بذهن صاف ونفس رائعة تساعدنا على المواجهة الموضوعية بدون جزع وبدون خوف وبدون قلق لكل مشاكل حياتنا.

الوصية الثانية عشرة:

● **الحيــاة الاقتصــادية..**

قد تكون البداية خطأ. يتزوج رجل امرأة لمالها الكثير.. أو تتزوج امرأة رجلاً لماله الكثير، وبالتالى فالتوقعات تكون كبيرة ومعنى الصفقة يظل سائدًا ويخيم بظلاله على العلاقة.. يسود منطق السوق؛ البيع والشراء، العرض والطلب، الفائدة والقيمة، المكسب والخسارة. كل شىء فى العلاقة يصبح مدفوع الثمن أو الأجر.

أحدهما يستغل الآخر، ينتفع به ويستنفذه، وإذا فشل طرف فى تحقيق توقعاته المادية من الطرف الآخر، يبدأ الانشقاق ثم الانفصال

مع مـزيد من الأسف والأسى وربما الاحتـقـار، لا تدخل العـامل الاقتصادى فى حسابك وأنت تتزوج. وحين تتزوج من تحب وتحب من تتزوج فأنت وزواجك ذات واحدة وبلغة البسطاء (الفلاسفة) يصبح جيبك هو جيبه، ولا تشعر أنك متفضل عنه. ولا تشعر أنك مدين له.

مطلوب فقط أن يكون لكما رؤية اقتصادية مشتركة، استراتيجية اقتصادية، تنظيما للحياة، تخطيطًا، ترتيبًا للمستقبل، وضوحًا، صراحة، صدقًا، انفتاحا كاملا ومتبادلاً، ثقة، طمأنينة، أمان، أمانة شرف.

تلك هى سمات الحياة الاقتصادية للأحباء المتزوجين.

والأصح أن تكون المسئولية الاقتصادية هى مسئولية الرجل كاملة إن استطاع، وكما أن الابنة لا تنفق على الأب، فإنه من غير المتوقع أن تنفق الزوجة على الزوج.. وإذا كان للرجل أهدافًا اقتصادية من زواجه بامرأة ما فإن هذا الرجل يعانى نقصًا ما فى رجولته وسوف تشعر زوجته هذا النقص وتعانى منه ويثير لديها الاشمئزاز والاحتقار إلا إذا كانت هى أيضًا تعانى نقصًا ما فى أنوثتها.

تعوضه بمالها؛ فتتزوج هذا الرجل منقوص الرجولة، نقص أمام نقص، نقص رجولة يقابله نقص أنثوى، تعوضه الأنثى المنقوصة بمالها.

والمرأة السوية يجب أن تحذر من الرجل الذى تشعر أن عينه على مالها منذ البداية.

ومن الممكن أن يكون هناك تعاون واشتراك فى تحمل مسئوليات الحياة الاقتصادية فى ظل الحياة الصعبة. ولكن يجب أن يكون الأساس حبًا واحترامًا، حبا وثقة، حبًا وتوحدًا، حبا وعطاء، حبا وحبًا.

وتفوق المرأة الاقتصادى لا يجعل الرجل الصادق الواثق بنفسه يشعر بالحرج أو القلق، والزوجة العاشقة المخلصة الواثقة بقدراتها الأنثوية والتى تكن لزوجها احتراما وحبا لا تشعره إطلاقا بتفوقها المادى. الزواج يجب أن يقوم على حب، والمستحب أن يكون الرجل متفوقا اقتصاديا وأن يتولى هو المسئولية الاقتصادية كاملة أو على الأقل يكون هناك تكافؤ اقتصادى وأن يتولى هو الجزء الأكبر من المسئولية.

الوصية الثالثة عشرة:

● الأطفـــال..

احذر أن يكون الأطفال هم مصدر الاستقرار فى حياتك الزوجية.. يجب أن تكون حياتك الزوجية مستقرة تماما قبل مجىء الأطفال وبعد مجيئهم زواج بدون أطفال من الممكن أن يكون زواجًا سعيدًا مستقرًا مستمرًا خالدا، المهم أنتَ وهى؛ المهم أنتِ وهو، المهم أنتما الاثنان معا. أنتما أهم من الأطفال.

إذا انهار زواج بسبب عدم الإنجاب فهو لم يكن زواجًا ولم يكن حبًا، وإذا استقر زواج لم يكن مستقرًا قبل مجىء الأطفال فإنه استقرار وهمى، استقرار لا يمنح أى سعادة.

الـزواج هو الرغبة الـروحية الخالصة فى أن تعيش مع إنسان ما، أن تكونا معًا حتى آخر يوم فى الحياة. أن تعيشا وتواجها الحياة معا. والأطفال زينة الحياة ولكن ليسوا الحياة.

الحياة ممكنة بدون أطفال. . ولكن الحياة تصبح صعبة بدون رفيق. بدون حبيب، والزوجة العاشقة يأتى زوجها قبل أطفالها، وتحبه أكثر. والزوج العاشق تأتى زوجته قبل أطفاله، يحبها أكثر، وحبنا لأطفالنا هو فى صميمه حب للزواج. الزوج يحب أطفاله من خلال حبه لزوجته والزوجة تحب أطفالها من خلال حبها لزوجها والأصل هو الحب الأكبر.

والزوجة تحب أطفالها أكثر إذا كان حبها لزوجها كبيرًا وعظيمًا، وكذلك الزوج يحب أطفاله أكثر إذا كان حبه لزوجته كبيرًا وعظيمًا.

إن حب رفيق الحياة هو المصدر لكل حب فى الحياة.

وإذا شعر الأطفال بهذا الحب الرائع بين الأب والأم؛ فإنهم يعيشون أكبر تجربة حب حقيقية وصادقة ومباشرة وواضحة وقريبة تلتصق بوجدانهم وعقولهم ويشبون على حب ويعيشون بعد ذلك حياة زوجية حقيقية أساسها الحب.

إن الدرس الأول فى الحب هو الذى نعيشه ونراه فى حب الأب والأم. وعلى عكس ما تصور السابقون الأولون فى التحليل النفسى، فإن الأطفال لا يضايقهم حب الأب والأم بل يسعدهم أن حب الأب والأم أحدهما للآخر يفوق حبهما لهم.

ولهذا فأنا أدعو الأب والأم أن يكون لحبهما مظاهر واضحة يراها أطفالهما. ولا مانع أن نعلق يافطة مكتوب عليها: بيت الحب.

الوصية الرابعة عشرة:

● **الأســرة الكبـــيرة..**

زوجك هو أبيك وأمك وأخوك وأختك.

زوجتك هي أمك وأبيك وأختك وأخوك.

زوجك أصبح كل شيء في حياتك. وزوجتك أصبحت كل شيء في حياتك.

هذه ليست دعوة للانفصال العاطفي عن الأسرة الكبيرة، ولكنني أوضح لكما الأوليات ودرجات الاقتراب.

زوجك هو رقم (١) ويأتي قبل أي إنسان آخر، ومن الطبيعي أن يأتي بعده أفراد أسرتك. ولكن ليس بعده مباشرة.. يجب أن تكون هناك مسافة بينه وبينهم، هو الأول وهم يأتون بعده بمسافة، هو الألصق لوجدانك وعقلك والمطلع على خبايا نفسك؛ همساتها، وزناتها، وجوارحها، زوجك الآن هو عاشق روحك وأنت عاشقة روحه، ولا تلجئي لأهلك ليساندوك في مواجهة زوجك. احذري كل الحذر هذا الموقف. زوجك هو أنت، أنتما معا في مواجهة العالم كله. احذري أن يشعر زوجك بأن لأحد آخر من أهلك مكانة متقدمة عنه في حياتك. وأنت إذا أحببت زوجك حبًّا حقيقيًّا فإنك وبدون أن تشعري وبدون

نصائح من أحد سيكون زوجك قبل أهلك وقبل أطفالك، ويجب أن يكون ذلك واضحا له . . أى تكون هناك علامات على ذلك، لا تكفى مشاعرك الداخلية . . ولكن سلوكك اليومى وفى كل لحظة يجب أن يوضح المكانة الأولى المرموقة المتميزة لزوجك .

وأنت أيها الزوج زوجتك قبل أمك، وهذا ليس معناه أنك ستحب أمك أقل منها، وليس معناه أن زوجتك ستقتطع جزءاً من حبك لأمك، المسألة ليست كمية، وليست درجات من الحب . إن حبك لزوجتك هو أصل الحب فى الحياة هو البداية للحياة، هو حب آدم لحواء . هو مصدر الحياة ولذلك فأنت بزواجك تتعرف على حب آخر؛ الحب الأصل، الحب الخالد، الحب الذى يعطيك هويتك كرجل، الحب الذى يحدد رسالتك فى الحياة، ويفتح لك آفاقا جديدة فى فهم المعنى، فهم الحقيقة .

ولهذا لا تضع زوجتك فى منافسة مع أمك، استقل تماما بأسرتك الجديدة . دعم هذه النواة الاجتماعية الإنسانية الجديدة . . أعطها كل دعمك واهتمامك وتأييدك ومساندتك . إذا ظللت متعلقا بأمك ستفشل كزوج، كمسئول، سيموت داخلك إحساسك كرجل مسئول ناضج . الرجل المسئول الناضج هو الرجل القادر على إنشاء أسرة جديدة، إنها مسئولية مربى أسرة ودور هام يحقق معنى الرجولة ويؤكد إحساسك بذاتك .

أمك هى حبك الأول والمستمر حتى آخر يوم فى حياتك، وزوجتك هى حبك الأساسى والمستمر حتى آخر يوم فى حياتك .

وزوجة اليوم هى الأم فى الغد. وهكذا الحياة، إنها سلسلة تتعاقب حلقاتها وعجلة تدور. المهم أن ندرك معناها، أن نحافظ على قدسيتها، وقدسيتها فى رابطة الحب التى تربط أجزاء الشجرة بعضها ببعض والشجرة الطيبة شجرة الحب.

الوصية الخامسة عشرة:

● **العلاقة مع الآخرين..**

أنتما تعيشان حياة واحدة وليست حياتان، أنتما تعيشان معا وليس كل منكما على حدة. حياتك لا تنفصل عن حياتها وحياتك لا تنفصل عن حياته.

أنتما معا والآخرون فى الجانب الآخر، والآخرون هم كل الناس، الأصدقاء والزملاء والجيران وحتى الناس فى الشارع.

ولذلك أنتما معا تحددان موقفكما من الآخرين، ولا يجب إطلاقا أن يكون هناك خلاف فى الرأى حول إنسان آخر، يجب أن يكون رأيكما وموقفكما واحدًا. ليس من المعقول أن تقول أنت إن هذا رجل سيئ وتقول زوجتك إن هذا رجل طيب. وليس من المعقول أن تقولى أنت إن هذه سيدة سيئة ويقول زوجك بل هى سيدة طيبة. ليس من المعقول أن يكون بينكما خلاف فى الرأى والتقييم يصل إلى هذه الدرجة من التباعد والتعارض، وإذا ظهر ثمة تعارض فيجب أن يتنازل أحدكما عن رأيه للآخر فورا انطلاقا من الثقة.. الثقة الكاملة.. والطمأنينة الكاملة.

أنتما تحددان معا درجات القرب من الآخرين، تحددان مدى العلاقة بالآخرين.

ويجب أن تكون هناك مسافة بينكما وبين الآخرين، الاقتراب الشديد من الآخرين ضار جدا بالحياة الزوجية، الحياة المحترمة يجب أن تقوم على المسافات، وخصوصيات الحياة الزوجية يجب ألا يطلع عليها أى إنسان صديق أو قريب.

ويجب ألا يكون هناك طرف ثالث بينكما، تشاجرا معا وتصالحا معا، الطرف الثالث هو طرف مفسد مسيء دائما مهما كانت حكمته ومهما كانت درجة قربه ومهما كانت درجة حسن نيته.

العلاقة الزوجية هى علاقة شديدة القدسية لا يعلم دفائنها إلا الله سبحانه وتعالى.. أنت أقرب الناس إلى زوجتك، أنتما لستما فى حاجة إلى الطرف الثالث.

إن ثمة عوامل لا شعورية مدفونة فى العقل الباطن قد تتحكم فى مشاعر ومواقف هذا الطرف الثالث منكما، والله أعلم بخبايا العقل الباطن، وأى زوجين سعيدين محسودان. الشيء الوحيد الذى يستحق الحسد فى هذه الحياة هو الحب وليس المال والسلطان.

الوصية السادسة عشرة:

- الخصوصية.

أنتما معا أنتما واحد؛ ذات واحدة؛ ذائبان منصهران، حبا وعشرة، حاضراً ومستقبلا، آمالاً وطموحًا وجراحًا، معا كل الوقت بالخاطر

والعقل والإحساس والتواجد الوجدانى؛ المكانى والزمانى. معًا الجذور والساق والفروع والثمار. ودورة الأيام حب ثابت ومستقر.

ولكن لتبقى أشياء خاصة، ربما أشياء بسيطة وتافهة ولا وزن لها، ولكن فلتبقى خاصة بمعنى أن رفيقك يخفيها عنك. وأنت لا تعرف عنها شيئا، ولا تحاول أن تعرف عنها شيئا، لا تتحرى ولا تسأل ولا تفتش. ربما هى أشياء لها علاقة بك، ولكن رفيقك يجب أن يخفيها أن يبقيها لنفسه. لا بد أن يكون للإنسان حوار مع نفسه، حوار مع ذاته، صلة بنفسه لكى يتحدث عنك، لكى تكون أنت موضوعها المفضل. حتى حبك لرفيق حياتك فأنت لا تطلعه عليه كله. تبقى شيئًا لنفسك. تحبه أكثر بينك وبين نفسك.

وهناك أمور نخفيها تتعلق بأشياء أخرى فى العمل، أشياء تتعلق بالأسرة الكبيرة، أشياء نخجل منها وأخرى لا تخجل منها، ولكننا لا نحب أن نطلع عليها رفيق حياتنا، ليس لأننا نخفى عنه أسرارًا، وليس لأنه لا يحتل المكانة الأولى والأهم فى حياتنا، وليس لأنه هناك من نثق به أكثر منه وليس لأنه على هامش الحياة، وليس لأنه محورها. ليس كل هذا إطلاقا ولكن لأنه يجب أن تظل هناك أشياء خاصة. أشياء نحتفظ بها لأنفسنا.

قالت له:

الغريب أن هذه الأشياء الخاصة والتى أخفيها عنك تجعلنى أقرب الناس إليك، لست أدرى تفسيرًا لذلك، ولكن كلما زادت الأشياء

التى أخفيها عنك رغم عدم أهميتها ، زاد اقترابى منك . هذا أمر غير مفهوم ولكن دعنى أشعر ببعض الاستقلالية ، حتى أزداد حنينا للذوبان الكامل فيك والتوحد الكامل معك .

وهذه الأشياء التى أخفيها عنك حتى وإن كانت بعيدة عنك ولا تتعلق بك ، فإنك تظل أنت المحور لهذه الأشياء التى لا تتعلق بك وهذا أيضا أمر غريب .

أنت أعظم إنسان احترمته لأنك الإنسان الذى أحببته ، وبعض احترامك لى أنك لا تفتش فى أوراقى الخاصة ودعنى أقول لك إن هذا بعض حبك لى .

الوصية السابعة عشرة:

● المســـافـة..

الزواج أن تكونا معا يدك فى يده وأنفاسكما ممتزجة كل الوقت ، ولكن مع هذا يجب أن تظل هناك مسافة ، والفائدة العظيمة لهذه المسافة هى الحنين الجارف المستمر لمزيد من الالتصاق والشوق المتجدد للالتحام ثم الذوبان ؛ شوق الروح للروح ؛ شوق الجسد للجسد ؛ شوق العقل للعقل ؛ شوق القلب للقلب .

المسافة أن أكون وحدى لكى أرى الدنيا من غيرك وأدرك أننى أريد أن أعود لأراها معك ؛ لأنى على يقين أن الجمال سيزداد والمعنى سيتضح .

وإذا نظرت إلى البحر وحدى فإنى أتلهف لوجودك بجوارى؛ لأراه معك، وإذا سمعت لحنا بمفردى أتشوق لوجودك معى لأسمعه معك، وإذا قرأت فكرة جديدة أتحرق لوجودك فى مقابلتى محاورا لينعم عقلى بعقلك.

ولا توجد درجة قصوى ونهائية للالتصاق والالتحام والذوبان وهذا ما يضنينى. إذ إننى فى حالة قلق وشوق وحنين دائمة. حنين للمزيد؛ مزيد من الالتصاق ثم الحنين ثم حنين الالتحام ثم حنين الذوبان. إنه حنين للتوحد، ولكى يظل هذا الحنين مؤججًا محرقًا مستمرًا يجب أن تكون هذه المسافة.

والمسافة معناها أن أخلو لنفسى بعض الوقت، وليس معناها سفرًا بعيدًا، ليس معناها انفصالا، ليس معناها إجازة زوجية، الإجازة الزوجية هى رغبة دفينة للانفصال الحقيقى، الإجازة معناها أن الحياة أصبحت لا تطاق بينهما، الإجازة مرفوضة بين الأحباء والأزواج إنهم لا يقوون عليها، المسافة معناها الانفراد بالنفس برهة.. قليل من الوقت. المسافة هى تأكيد للحنين والشوق إليك من أجل الالتصاق ثم الالتحام ثم الذوبان.

الوصية الثامنة عشرة:

● احذروا هذه الكلمة..

المرأة بالذات تردد هذه الكلمة كثيرا وهى أسوأ كلمة.. كلمة الطلاق وهى لا تقل بشاعة عن كلمة الموت، ورغم أن الموت حق وأن

الطلاق حلال إلا أننا نبغض هاتين الكلمتين، والمعنى واحد. الانفصال موت.. والموت انفصال.. ورغم أنه لا مفر من الطلاق فى بعض الأحيان. ولكن هذا أمر مختلف عن مجرد ترديد هذه الكلمة بدون داع وبدون أن نقصدها وبدون أن نعيها.

ولعل اللاشعور أى العقل الباطن لدى المرأة هو الذى يدفعها إلى ترديد هذه الكلمة وطلبها؛ لكى تسعد برفض زوجها تطليقها، لكى تؤكد لذاتها أنها هى التى تريد أن ترحل وزوجها يرفض رحيلها، أنها هى الرافضة وليست المرفوضة، أنها هى المرغوبة والمطلوبة وأنه يتمسك بها، وهذا دليل على عدم الطمأنينة وبالتالى دليل على وجود خلل فى العلاقة الزوجية.

والمرأة تردد هذه الكلمة فى الأوقات الحرجة التى تمر بها وخاصة فى الفترة ما قبل الدورة الشهرية وحين تقترب من سن اليأس.. إنها اهتزازات بيولوجية ونفسية ترددها وهى لا تقصدها إطلاقا، ويرددها الرجل أيضًا حين يكون مستواه الاجتماعى والأخلاقى متواضعا، وحين يكون باغيا ظالما أمام زوجة ضعيفة فى حاجة ماسة إليه.

وفى لحظات الثورة قد ترغب المرأة فى الطلاق فعلا، ولكنه يكون نوعا من الانتحار، ولكنها حين تهدأ تعود إلى رشدها وتندم على تفكيرها. ولهذا كان زمام الأمور فى يد الرجل فهو أقل انفعالا وأقل اندفاعا.

والوصية ألا تردد هذه الكلمة على الإطلاق، ترديدها ـ حتى وإن كانا لا يعنيانه ـ يغرس بذور عدم الطمأنينة، وبذلك نحرم أنفسنا من أعظم متع

الزواج وهى الطمأنينة. إن أردتها ـ كلمة الطلاق ـ بلا معنى، بلا قصد حقيقى، يعنى أحد أمرين: اندفاع أحمق أو سوء خلق وسوء نية.

إن أردتها بهذا الشكل؛ فإن هذا يسىء لقدسية العلاقة؛ علاقة الزواج علاقة الحب.

الوصية التاسعة عشرة:

● **الجنـــس..**

فى ظل زواج الحب وحب الزواج فأنت تتمتع بالجنس الحقيقى.

حافظ على نقاء وطهارة العلاقة الجنسية بزوجك.

هذه أحاسيس طبيعية وتلقائية دعها تتحرك بتبادلية.. وحساسية ورقة ورقى.

الوظائف البيولوجية للإنسان تخضع لعوامل كثيرة ولكن أهم هذه العوامل هى الحالة النفسية، إذا كان رفيقك غير مهيأ بيولوجيا دعه ولكن حاول أن تفهم، ابحث عن الأسباب. أحيانا الخلل البيولوجى أو الاضطراب أو التوقف البيولوجى المؤقت يقودنا إلى خلل أو اضطراب فى مناطق أخرى.

قد تكون هناك مشكلة عاطفية بينك وبين زوجك تحتاج إلى أن تعطيها اهتمامك ووعيك، وقد يكون التوقف البيولوجى بدون سبب، دعه يتحرك، احترم موقفه البيولوجى، ليس دائما تتحرك الرغبات فى وقت واحد، ولكن إذا استمرت الحالة ابحث عن أسباب خفية وأسباب نفسية.

ليس من العيب وليس من الخطأ أن تعبر عن شوقك الجسدى لرفيق حياتك، فهذا الشوق الجسدى ينطوى أساسًا على شوق روحى أنت تشتاق إليه كله. والجسد أحد وسائل التعبير، أحد وسائل التواصل، أحد وسائل الالتصاق والالتحام والذوبان.

شىء غير سليم أن يرتبط الفراش فقط بالجنس، شىء غير صحى أن يستقل كل منكما بفراش أو بحجرة منفصلة. الفراش هو معنى لأن تكونا معا. الفراش ليس الجنس فقط، الفراش هو جزء من الحياة حياة التوحد. منذ أول يوم فى زواجكما وحتى نهاية العمر احرص على أن تنام كل ليلة مع رفيق عمرك فى نفس الفراش، احرص على أن يكون هو آخر وجه تراه قبل أن تخلد إلى النوم. . احرص على أن يكون هو أول وجه تراه حين تستيقظ من النوم. وأسعدكما حظا هو الذى يبادر الآخر بصباح الخير.

الوصية العشرون:

● **اكتبـــها أنــت..**

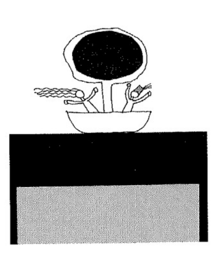
كل حب هو حب فريد، كل زواج هو زواج فريد، علاقة خاصة جدًا. من الصعب التعميم، ولذا فإن الوصية العشرون وحتى الوصية المائة من صنعك أنت. إنها حياتك أنت. . وهى ليست مثل حياة أى إنســـان آخـــر. . إن لك خـبـــرتك الخـاصـــة ورؤياك وفلســفــتك ومفاهيمك. . إنها قصة حبك أنت فأضف أنت الوصية العشرين.

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ١٣٤٢٨/ ٩٩
الترقيم الدولى 6 - 0566 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الغلاف للفنان حلمى التونى



متاعب الزواج

هذا الكتاب يحاول أن يقول شيئًا واحدًا، وهو أن المشكلات التى تنشأ بين الأزواج والزوجات لا تؤثر على جوهر العلاقة بينهما. قد نشعر أحيانًا بالملل والضيق والرغبة فى الفرار، إلا أن الحقيقة أننا لا نستطيع أن نضحى بشريك حياتنا بسهولة.

وقد يظن الزوج ـ بعد عدة سنوات من الزواج ـ أنه لم يعد يحب زوجته، وقد تظن الزوجة ذلك أيضًا، إلا أن الحب فى الزواج له طعم مختلف وله جوهر مختلف، فالعلاقة الزوجية قوية وعميقة وحميمة، إلا أنها أيضًا تتمتع بدرجة عالية من الحساسية، ولذا؛ فهى تتطلب المودة والرحمة.

وهذا الكتاب يأخذ بيدك إلى طريق المودة والرحمة برفق لتنعم بأعظم سكن؛ وهو قلب وعقل شريك حياتك، أعظم نعمة منحها الله للإنسان.

دار الشروق
القاهرة، ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب، ٣٣ البانوراما - تليفون، ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس، ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت، ص.ب، ٨٠٦٤ هاتف، ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس، ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)